شيوعيون

و

ناصريون

د. فتحي عبد الفتاح

شيوعيون و ناصريون

د. فتحى عبد الفتاح

كتب صدرت للمؤلف

- **وجه امريكا القبيح (مع آخرين)**
  دار الكاتب العربى ١٩٦٧
- **الثقافة والقرية**
  دار للكاتب العربى ١٩٦٨
- **قصص ريفية**
  القاهرة ١٩٧٠
- **القرية المصرية**
  دراسة فى الملكية وعلاقات الانتاج
  دار للثقافة الجديدة ١٩٧٣
- **القرية المعاصرة**
  من الاصلاح والثورة
  دار الثقافة الجديدة ١٩٧٤
- **التعاونيات الزراعية فى مصر**
  دراسة قدمت فى ندوة عالمية حول
  مشاكل التطور الزراعى فى الدول النامية
  موسكو ١٩٧١
- **تجربة الثورة فى اليمن الديمقراطى**
  بيروت ـ دار ابن خلدون ١٩٧٥
- **شيوعيون وناصريون**
  روز لليوسف ١٩٧٥

الاشراف الفنى محمد سليم

مقــدمة الطبعة الخامسة

لست ادرى بالضبط اى طبعة هـذه ، هـل هى الرابعة ام الخامسة ..

الذى أعرفه أنه ومنذ صـدرت الطبعة الأولى لهـذا الكتاب عن مؤسسة روز اليوسف فى نوفمبر سنة ١٩٧٥ ، صـدرت لــه طبعتان ملاحقتان فى بضعة شهور فى أوائل سنة ١٩٧٦ ، نفذت كلها فى اقـل من شهر .

ثم عرفت بعـد ذلك أن دار نشر مجهولة فى بيروت اعـادت نشره عن طريق التصوير ، وبل وقرأت بالصحفة ان احـدى دور النشر العربيـة فى القـدس المحتـلة ، لعلهـا دار نشر صلاح الدين ، قـد اصـدرت طبعة خاصة من الكتاب منذ سنوات لقـد ابهجنى واسعدنى للغاية بالطبع هـذا الاحتفاء الواسع من جانب القارىء المصرى والعربى بهـذا الكتاب ، هـذا الاحتفـاء الذى اخـذ اشكالا وصورا فاقت كل تصوراتى :

- ففى الاسـتفتاءات التى اجريت لسنوات ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ اختير كاحسن كتاب ، وشارك فى الاختيار نخبة ممتازة من الكتاب والصحفيين والفنانين ورجال الفكر تنوعت وتباينت منابعهم الفكرية ، كمـا تنـاوله غالبيـة الكتـاب بالنقـد والتحليـل .
- كان الكتاب موضوعا لرسالة ماجستير فى الأدب السياسى فى جامعة ليبزج الشهيرة ، كما اعتمدت عليه عـدة دراسـات ادبيـة وسياسية كمرجـع اساسى لهـا وهى تؤرخ للمرحلة الناصرية .

● على ان الاهم من ذلك كله هى عشرات الآلاف من الرسائل التى تلقيتها من مواطنين فى مصر والعالم العربى ، ومن نوعيات وشخصيات مختلفة ، ليس فقط فى افكارها بل وفى اوضاعها الاجتماعية والطبقية ٠

ولن انسى تلك الرسالة التى تلقيتها من المرحوم الدكتور حسن فهمى الأستاذ فى كلية الهندسة ومؤسس فرقة رضا للفنون الشعبية والتى جاء فيها :

« ٠٠٠٠ أخذت ابحث عنك فى كل مكان بعد قراءتى لكتابك فهو ليس مجرد كتاب ممتاز ، بل واحد من تلك الكتب التى يمكن ان يطلق عليها وبثقة « كتاب فريد وعبقرى » ٠٠

كنت ابتعد عن السياسة ، واعتبرها حرفة مختلفة تماما عن حرفتى ، ولكنى احسست باننى واحد من هؤلاء « السذج الغافلين » الذين قدمتهم فى كتابك ، والذين غرقوا فى دراساتهم وفى حياتهم الخاصة دون ان يلتفتوا حولهم ليروا كيف تمضى الأمور فى مجتمعهم ويرتبطون بمشاكله وهمومه ٠٠

اعاهدك يابنى اننى ساحاول ان اغير من هذا فى سنوات العمر الباقية لى ، لعلى استطيع ان افعل شيئا على الأقل فى الهدف الذى كرست حياتك للدفاع عنه وهو ان تكون مصر للمصريين جميعا ، دون تمييز أو اضطهاد ، للنساء والرجال ، للعمال والمثقفين والمنتجين الحقيقيين بعيدا عن اى تعصب او ارهاب ، وبعيدا عن اى امتهان جسدى او نفسى ٠٠

●

كان ذلك فى الواقع اغلى ثمن يمكن ان يحصل عليه كاتب ٠٠ علما بان كل ما حصلت عليه من حقوق التاليف لم يتجاوز

٣٠٠ جنيه ٠٠ وعلما باننى كان قد سبق لى واصدرت قبل هذا الكتاب ست كتب اخرى من دراسات سياسية واجتماعية وادبية بما فى ذلك مجموعة قصصية قصيرة ، وقد حظى بعضها وخاصة الدراسات المتعلقة بالقرية المصرية باهتمام واسع ٠٠

ولكن احدا منها لم يكن لـه هذا الدوى الواسع ، ولم يتبوأ مثل هذه المكانة المتفرده ٠٠

ولقد دفعنى ذلك لأن أتوقف كثيرا عند التعليقات والنقد الذى نشر عن الكتاب ٠٠

البعض اعتبره نموذجا جيدا للرواية الواقعية ٠٠ والبعض نظر اليه على انه وثيقة تاريخية هامة ، تسجل وقائع واحداث مرحلة خطيرة فى تاريخ مصر والعالم العربى ٠٠

والبعض الآخر ناقشه على انه « سيرة ذاتية » تضمنت تجربة متميزه ٠٠

اشاد البعض بالأسلوب ، وابرز البعض الآخر النهج الموضوعى فى سرد الأحداث وتناولها ٠٠

على أننى حين سئلت قلت ، وما زلت اجد هذا القول مقنعا ٠٠ ان القضية ليست فى الأسلوب ٠٠

وليست فى القدرة على التناول وعرض الأحداث ٠٠
ولكنها قبل كل شىء تكمن فى خطورة التجربة نفسها ٠٠

واذا كان يقال ان الأسلوب هو الرجل ، فان الكاتب هو التجربة ٠٠ وكلما كانت هذه التجربة « عامة وحقيقية » اى تتميز بصدقها وبالتجربة الانسانية فى مجملها ٠٠ كلما وجدت

طريقها بسهولة الى قلوب وعقول اوسع قطاعات ممكنة من القراء ..

فلقد كتبت ما كتبت وانا على قناعة تامة بانني لست بصدد عرض لمعاناة فرد او مجموعة افراد ..

ولم استهدف الدفاع عن فكرة معينة او مجموعة من الأفكار ، بل كنت متمثلا لقضية اوسع واعرض بكثير ، قضية لا تتعلق بسرد احداث التجربة فى الماضى ، بل تضع عينها فى الأساس على الحاضر والمستقبل ، قضية تطمح فى سد الطريق امام اى شكل من اشكال القهر البدنى او النفسى لأى مصرى او مصرية لانه او لانها تحمل آراء قد تتفق او تختلف مع الآخرين .

والفكرة النابعة من احتياج انسانى حقيقى ، لا تتوه او تضيع بمرور الأيام ، بالعكس تتعتق وتتاصل ، ولعل هذا هو الحد الفاصل بين اى ابداع فكرى او فنى حقيقى ، وبين الكثير من اللغو المكتوب الذى تكنسه رياح الزمن وتلقى به الى صحارى العدم ..

وبعد عشر سنين من صدور الطبعة الأولى للكتاب ، وعشرين سنة من احداث التجربة نفسها ، اجد نفسى اقف على نفس الشاطىء الممتد ، وارى كل ابناء وبنات مصر يطمعون مثلما اطمع فى اصدار قرار جماعى حضارى مصرى ، متمثلا التاريخ والتراث ، ومنطلقا لآفاق المستقبل ، وبان تكون مصر لكل المصريين قولا وعملا ..

●

حين يلقى الانسان بنظرة عريضة على الواقع العربى اليوم ، والواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى ، فلن يختلف احد فى ان هناك ثمة واقع جديد مختلف ..

واقــع تتبدل فيه القيم والمفاهيم ، وتدخـل عوامل جـوهرية فى تغير البيئة الفوقية والتحتية للمجتمعات ، ابتداء من المفاهيم والأسس الاقتصـادية الى المتصورات الثقافيـة والفـكرية ٠٠

تغييرات خلقت ثروات هـائلة على السطح ، وفقر مدقـــع فى الأعمـاق ٠٠ فمنذ اكتوبر سنة ١٩٧٣ وحـين عبر الأبطـال المصريون قناة السويس وخط بارليف ، وحتى الآن ارتفـــع سعر البترول لأكثر من عشرة اضعاف ، وتدفقت عائداته الهائلة الى شركات البترول فى المحل الأول ثم الى الدول المنتجة حتى ارتفع التراكم الراسمالى فى بعض الدول العربية الى آفاق غير مسبوقة فى التاريخ ٠٠

وبغض النظر عن التحفظ ازاء التعبير الخـــاص بالتراكم الراسمالى اذ ان البعض لا يرى فى ارصدة الدول البترولية سوى مجرد فائض مالى او نقـدى ، الا ان هـذه الثروة الهائلة من « البترودولار » كان ولابد وان تعكس نفسها فى المنطقة باكملهـا وليس فقط فى الدول البترولية ٠٠

واخطر ما فى هـذه « الثروة الطارئة » انها جاءت فى غالبيتها بعيدة تماما او تكاد عن وسائل وعلاقات وقـوى الانتاج التى كانت وما زالت فى جـوهرها سائدة فى هـذه الاجتماعات ٠٠

ونجـد انفسنا امام تناقض غريب ٠٠

راس مال مالى متراكم يحسب بالاف المليارات من الدورات ، وعـلاقات انتاجيـة واجتماعية متخلفـة ، تنتمى غالبيتهـا الى المجتمعات القبلية والعائلية والعرقية وجميع الأشـكال السابقة حتى على مرحلة التطور الراسمالى ٠٠

هـذا التناقض الغريب افرز لنـا اشكالا وانماطا حياتيـة

غريبة وغير متسقة ، ولكنها كلها تعنى فى النهاية انتصار قيم « الثروة » على قيم « الثورة » ..

وفقدت كثير من التعبيرات والمسميات معانيها الحقيقية .. فمن يدعون الى السلفية والتراث اليوم لا يستطيع الانسان ان يحدد تماما ماذا يستهدفون لانهم هم انفسهم غارقون حتى النخاع فى مظاهر الثروة ومباهجها ..

وعلى الطرف الآخر نجد البعض ممن ينادون بالثورة لايدركون تماما ماذا تستهدف او ماذا تعنى ، بل احيانا ما تكتشف انهم هم الآخرون وجه آخر لعملة « البترودولار » .

خلط غريب وجديد فى كثير من الأوراق والمسلمات السابقة .. وعلينا أن نعترف « بأن ذلك الواقع الطارىء » سيستمر ولفترة يفرزلنا كما واشكالا جديدة من الأفكار والتناقضات ، ولكنه بالتأكيد وضع طارىء لا يمكن أن يستمر للأبد ..

فى هذه الفترة بالذات ، يحتاج الانسان العربى الى التمسك بالقيمة الأساسية التى لم تندثر بعد ، الخشبة التى يمكن فيما بعد ان نجعل منها سفينة النجاة وسط عواصف واعاصير للبترودولار ، وهى احترام حقوق الانسان العربى ، حقه فى ان يعبر عن رايه بالقول والكلمة بعيدا عن اى مخاوف لظلم او اضطهاد انها القضية الملحة التى يجب أن نكسبها وأن نفرضها فى عالمنا العربى .

ففى مرحلة الترانزيت التى نعيشها تصبح حرية الراى واحترام انسانية الانسان هى الجوهر والمنقذ الوحيد الذى يمكن به للانسان العربى ان يعيد اكتشاف ذاته ومجتمعه ..

ومن هنا تصبح التجربة التى اقدمها جهدا على الطريق الشاق الذى يحاول ان يخرج بالانسان العربى الى آفاق التنوير الانسانى حتى لا تغرق فى الهوة السحيقة التى تعدلنا ..

ودعنا نامل ..

القاهرة ـ سبتمبر سنة ١٩٨٥

فتحى عبد الفتاح

- ١ -

حولك اشباح الاكاذيب وانت
تقيمين لها سوق الاوهام تعالى
بعيدا عن هنا ٠٠ ياطفلتى ٠٠

(طاغور - مسرحية الناسك)

اول يناير سنة ١٩٥٩ :

وصلت الى الجريدة فى الساعة السادسة صباحا ، دعك عامل المصعد الصغير عينيه وكتم مشروع تناؤب ، فلم يكن قد حضر بعد سوى عدد قليل من عمال النظافة ، وحتى « عم محرم » ساعى مكتب القسم الخارجى لم يكن قد حضر ٠

لم أكن أعرف بالضبط ما الذى دفعنى للحضور للجريدة فى هذا الوقت المبكر ٠ حقيقة ان العاملين فى القسم الخارجى كانوا مطالبين بالحضور المبكر ، ولكن ليس الى هذه الدرجة فلقد كان هناك أكثر من ساعة كاملة على ان اقضيها وحدى قبل حضور أحد من الزملاء والزميلات ، فمابالك واليوم هو أول السنة الجديدة بما حفلت به الليلة السابقة من حفلات وسهر حتى الصباح ٠

كذلك فان وجود بيتى قريبا من الجريدة كان يتيح لى فرصة التحكم في الوصول فى موعد العمل دون حاجة الى اتوبيس أو تاكسى أو حتى عربة الجريدة ٠ فما كان علي الا أن اقطع بعض الحوارى فى بولاق لاصل الى شارع الصحافة حيث مبنى الجريدة ٠٠ وطوال العامين الماضيين أى منذ التحقت بالعمل في « المساء » وانا استيقظ في حوالى السابعة وفى السابعة والربع أجلس على مكتبى ٠٠ ميزة كنت اتمتع بها ويحسدنى عليها الزملاء ، وخاصة الزميلات اللاتى يقيم بعضهن فى مصر الجديدة ويضطررن الى ان يبكررن بساعة على الاقل قبل الموعد تحسبا للمواصلات ٠

وجاء « عم محرم » وقرأت دهشة فى عينيه الغائرتين كعيون الفار ، وقبل ان ينطق بكلمة كنت قد طلبت القهوة والشغل .. ولابد ان الرجل قد استشعر ان الامر خطير ، فأخذ يهرول بسرعة الخيل الى غرفـة « التكرز » ويجمعهـا بدون ترتيب ليضعها امامى ومعها جرائد الصباح ، والحقيقة انه لم يكن لدى اى حماس للعمل ، وكنت قد قرأت جرائد الصباح فى بوفيه « المحطة » ، ولذلك ازحت اكوام التكرز وعدت الى حالتى التى كنت عليها طوال الليل ، استكمال لما كان يشغلنى طوال ليلة امس والتى لم انم فيها ربما ليس عن قلق فقط بل عن رغبة أيضـا .

والحقيقة اننى حتى لو كنت اريد النوم فلم أكن لاستطيع فلقد كنت اعيش اياما غاية فى الصعوبة والتعقيد ، ولقـد جربت من قبل وطوال حياتى الجامعية اياما سوداء ولكنها لم ترق ابدا الى مستوى هـذه الايام ، ففى السـنوات الخمس الماضية فقدت « الام » ، وكنت فى أول عام فى الجامعة ، وبعد ذلك ومنذ عامين فقط ، فقدت أخى الاكبر « انيس » ، وقـد كان صديقا ورفيقا فوق كونه أخى ، عشنا سويا فى القاهرة، هو فى الحقوق ، وأنا فى الاداب ، تجمعنا غرفة ، وأحيانا شقة، ثم مات فجأة بعد مرض قصير .

وفى هذا العام كنت قد فقدت أيضا ماتصـورته فى ذلك الوقت أكبر تجربة عاطفية مرت بى .. زميلة تعلقت بهـا وتعلقت بى ، تزاملنا فى الكلية ثم عملنا فى الصحافة بعـد التخرج .. ثم اكتشفت بعد ذلك اننى عشت واهما أو متوهما .. وان وظيفة محرر فى جريدة مسائية ومرتب لايزيد عـلى العشرين جنيها لايمكن ان تكون اغراء كافيا لزميلتى ، وخاصة اذا دخل المنافسة بعض الكهول من العاملين فى الصحافة ممن لهم اسماء لامعة ومرتبات دسمة .

وفى كل هـذه المناسـبات كان الالم يعتصرنى فالجأ الى الهروب والنسيان .. حين ماتت أمى لم ادخل الدور الاول فى الامتحان ، فلقد كان من الصعب على أن اجلس الى مكتب أو كتاب .. ونجحت فى الدور الثانى وانكسرت حدة الازمة ،

وحين مات أخى كنت قد حصلت على الليسانس وعملت فى الجريدة اغرقت نفسى فى العمل ووجدت فيه بعض السلوى ·

وحين صدمت فى حبى ، أخذت اجازة من الجريدة وذهبت الى الاسكندرية لمدة اسبوعين ، وحينما عدت الى الجريدة اكتشفت ان البحر استطاع ان يغسل الآمى وحبى ، وكنت اول من هنأ زميلتى بخطيبها الجديد ·

ولكن هذه المرة كانت المسائل أعنف واقوى واعمق · فلم تكن ازمتى وحدى ، او ازمة الجريدة التى اعمل بها ، بل كانت ازمة تعيشها البلد كلها ·

كان ذلك فى أول ساعات عام ١٩٥٩ ، وكانت الامور تمضى فى وتيرة سريعة وغريبة وغير مفهومة وكانما تدفعها قوى خفية لايعرف احد مصدرها ·· وكانت التطورات اليومية تمضى فى خط معاكس تماما لكل المقدمات التى توحى بها السنوات الماضية (الثلاث) ·

فمنذ أقل من عدة شهور كنت اتصور ومعى الكثيرون ان حركة التحرر العربى بقيادة الثورة المصرية ، وجمال عبد الناصر على وجه التحديد ، قد كسبت المعركة نهائيا ضد قوى الاستعمار والتخلف فى المنطقة ، وكانت جريدتنا تعكس ذلك فى ثقة ووضوح · ولقد ولدت جريدة المساء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وعاصرت امجاد وانتصارات الشعب المصرى فى مواجهة العدوان الثلاثى بعد شهر من الصدور · ومنذ ذلك التاريخ والثورة المصرية تحقق المزيد من الانتصارات ، وبرز جمال عبد الناصر كقائد وطنى شجاع وكنموذج للقيادات الوطنية المخلصة ، ليس على النطاق المصرى والعربى فقط ، بل وعلى النطاق العالمى ·· فبعد الانتصار على العدوان الثلاثى على مصر والذى اشتركت فيه انجلترا وفرنسا واسرائيل ، ثم قوانين التمصير التى ضربت المصالح والشركات الاجنبية التى كانت تنهب الاقتصاد المصرى ، ثم الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨ ، واعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ثم سقوط النظام الملكى الاستعمارى فى العراق فى يوليو سنة ١٩٥٨ ، وانهيار حلف بغداد ·

كل تلك المكتسبات الرائعة فى خلال فترة زمنية قصيرة كانت توحي بأن احلام الشعب المصرى ، بل والشعوب العربية كلها فى التحرر من الاستعمار والاستغلال والصهيونية قد اصبحت وشيكة ٠

ولهذا كله فلقد كان ما يحدث فى الشهور الاخيرة لعام ١٩٥٨ ، أى بعد اقل من ستة اشهر امرا لم يكن لاحد ان يتنبأ به ، حتى أكثر الناس تشاؤما من قوى الثورة العربية ٠٠ ولم يكن لاحد ان يحلم به حتى أكثر الناس اخلاصا للمصالح الاستعمارية والرجعية ٠ كانت الصورة قد تبدلت تماما أو هكذا كانت تبدو على السطح ٠٠ الحكم الوطنى فى العراق ، والذى جاء متمثلا بكل شعارات ثورة يوليو يدخل بعد اقل من شهرين من قيام الثورة فى تناقض مع القيادة الوطنية فى الجمهورية العربية المتحدة وتبدأ تبادل الاتهامات والتراشق بالالفاظ خفيما ومستترا فى البداية ، ثم ينفجر فى معركة عنيفة ، سوداء ، فتهاجم القيادة العراقية الجمهورية العربية المتحدة بشراسة وعنف كما لو كانت هى نفسها الولايات المتحدة الامريكية ٠ وترد الجمهورية العربية المتحدة لتهاجم العراق كما لو كانت هى نفسها بريطانيا العظمى ٠

وتفشل كل المحاولات التى بذلتها القوى الوطنية العربية لرأب الصداع ، بل وتدخل هذه القوى فى صراع مدمر بينها وبين نفسها ٠٠ ليس ضد اسرائيل ، أو ضد القواعد والمصالح الاستعمارية فى المنطقة ٠

وأصبحت القضية هى معركة بين الناصريين والبعثيين والماركسيين ، ووقفت القوى الرجعية والعميلة فى المنطقة وقد تنفست الصعداء بعد ان وجهت لها ضربات قاسية طوال السنوات الثلاث الماضية ، بل وتبدأ هذه القوى فى القاء المزيد من الزيت على الصراعات العنيفة التى بدأت تدور بين هذه القوى والتى كانت حتى الأمس القريب تجمعها وحدة فى الشعارات والعمل ٠

واصبحت كلمة ناصرى او بعثى او ماركسى مرتبطة بكثير من النعوت والصفات الغريبة داخل كل بلد عربى ، فالبعض فى العراق يرى فى « الناصرى » ناصرا للاستعمار ، والبعثى نموذجا للانتهازية والعمالة والبعض فى مصر يرى فى الماركسى خائن وعميل ، والصحف في العراق لا هم لها الا الهجوم على عبد الناصر والنظام فى الجمهورية العربية المتحدة ٠٠ كنظام توسعى دكتاتورى يسعى الى اغتنام الخيرات العربية والتنسيق مع الاستعمار والولايات المتحدة الامريكية والصحف فى مصر وسوريا لاترى فى عبد الكريم قاسم والنظام العراقي سوى نظام شيوعى عميل للشيوعيين ومعاد للقومية العربية ويعمل بوحى من الاستعمار البريطانى ٠

كيف حدث هذا ؟؟ ٠٠ وفى خلال شهور فقط من الثورة العراقية التى كانت فى حد ذاتها تعبيرا عن انتصار عبدالناصر ومبادئه فى مطاردة الاستعمار فى المنطقة ؟؟ ٠

هذا ماكان يحير الكثير من الوطنيين ، وكنت واحد منهم والذين لايرون مبررا موضوعيا واحدا لكل تلك المعارك القاسية ، بين القوى صاحبة المصلحة الحقيقية فى معاداة الاستعمار وتحقيق الأمانى والطموحات المشروعة للقومية العربية والشعوب العربية ٠

كانت هذه هى الصورة العامة للازمة ٠٠ ولكن الازمة بالنسبة لجريدتنا كانت تعنى شيئا أكثر تحديدا ٠٠ فلقد كانت « المساء » بعد « الجمهورية » هما الجريدتان اللتان انشئتا فى عهد الثورة ٠٠ وحينما استدعى جمال عبد الناصر زميله وصديقه خالد محيى الدين سنة ١٩٥٦ وطلب منه انشاء جريدة جديدة ، طلب منه ان تكون جريدة وطنية تقدمية تعبر عن طبيعة المرحلة التي يمر بها النضال المصرى والعربى ٠٠ واستعان خالد محيى الدين بعدد من الكتاب والصحفيين اليساريين والماركسيين ، وخرجت المساء فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، لتعبر عن الخط الوطنى الديمقراطى المعادى للاستعمار العالمى ، ولتثير الكثير من القضايا الداخلية والخارجية التى لم تكن تحوز فى الصحف الموجودة فى ذلك

الوقت سوى مساحات قليلة ٠٠ ولقد كانت الصحف الموجودة حتى ذلك الوقت فيما عدا جريدة الجمهورية صحفا قديمة لها تراثها وتفكيرها الخاص قبل سنة ١٩٥٢ ٠

كانت هناك الاخبار التي يصدرها الاخوان أمين بمدرستهم المعروفة فى الاثارة والتسطيح وتجاهل القضايا الاجتماعية

وكانت هناك الاهرام التي مازال يحكمها خط أبناء تكلا منذ تأسيسها فى أواخر القرن التاسع عشر وهو خط فاتر بعيد عن الانغماس فى المشاكل الواقعية للمجتمع المصرى ٠٠ وكانت هناك جريدة القاهرة المسائية تمولها المملكة السعودية ٠ أما الجمهورية وهى الجريدة التى انشاها عبد الناصر ، وكان صاحب امتيازها ورأس تحريرها أنور السادات فبالرغم من خطها الوطنى الذى برز من اللحظة الاولى الا أن صفة الرسمية التي اصطبغت بها من البداية كانت تتيح الفرصة للصحف الاخرى للنيل منها ٠

وهكذا كان صدور جريدة المساء هو فى الواقع تقديما لمدرسة جديدة فى الصحافة المصرية ٠٠ افردت الصحيفة ومن العدد الاول صفحاتها الواسعة للهجوم على الاستعمار والمصالح الاستعمارية ، ليس فى مصر وحدها والبلاد العربية ، بل وفى العالم كله ٠ وكانت هناك أبواب مثل : من كفاح الشعوب و أضواء على الاستعمار العالمى وقضايا ومشاكل داخلية ٠ وغيرها من الابحاث والدراسات الجادة التى تقدمها الصحيفة بالنسبة للمشاكل الداخلية والخارجية ٠

ولذا اشفق كثيرون على هذا اللون من الصحافة الجادة والمقاتلة فى مواجهة أكبر مدرسة كانت تتصدر العمل الصحفى فى ذلك الوقت وهى مدرسة أخبار اليوم ، والتى كانت تعتمد على الموضوعات الخفيفة والمثيرة ، ويومها زار مصطفى أمين خالد محيى الدين فى مكتبه فى المساء وكانت المسافة بين مبنى أخبار اليوم ومبنى المساء لاتتجاوز مائة متر وقال مصطفى أمين ضاحكا لخالد « لو وزعت الجريدة الجديدة عشرة آلاف فانها تكون قد نجحت أما خمسة عشر الفا فستكون قد تفوقت » ٠

كانت تلك تقديرات مصطفى أمين يوافقه عدد كبير من العاملين فى الحقل الصحفى بما فيهم العاطفون على الجريدة الجديدة وصدرت الجريدة ، وواكب صدورها العدوان الثلاثى على مصر وبلغ توزيعها فى تلك الفترة فوق المائة الف ، وكانت تطبع أحيانا أكثر من طبعة ، بل وتصل الى ثلاث طبعات .

ووصل متوسط التوزيع فى الايام العادية حوالى ٦٠ ألف نسخة ، وهو رقم كان يفوق كثيرا من الصحف الصباحية فى ذلك الوقت .

ولقد كان من الطبيعى ان تجتذب الصحيفة عناصر كثيرة من المثقفين ذوى الاتجاهات الوطنية واليسارية ، فبالاضافة الى عدد من الشبان الذين عملوا فى مختلف اقسام الصحيفة وبالذات فى القسم الخارجى الذى عملت فيه كان هناك أيضا عدد من الكتاب والمفكرين اليساريين الذين يعملون فى الصحيفة أو يساهمون فى تحريرها . فهناك عبد العظيم أنيس ، ولطفى الخولى ، وعلى الشلقانى ، وسعد التاته واديب ديمترى ، واسماعيل صبرى ، وعلى الراعى ، وشهدى عطيه وفوزى منصور ، ومحمد عوده ، ومصطفى بهجت بدوى ، وعادل ثابت ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمود العالم ، وأنور عبد الملك ، والدكتور حسين كمال الدين ، ودكتور عبدالرازق حسن .

أما الشبان والذين كنت واحد منهم ، فلقد اتجهنا الى العمل فى (المساء) عن ايمان بانها المنبر الوطنى الديمقراطى الذى نستطيع ان نعبر فيه عن مفاهيمنا واحلامنا فى بناء مصر الوطنية الديمقراطية .

وكان غالبنا حديثى التخرج ، وبعضنا عمل بعض الوقت فى صحف اخرى قبل صدور المساء ، ولكن الخط الفكرى الذى خرجت به وعبرت عنه المساء كان قوة جذب لنا .

بل اننى وقد عملت بعض الوقت فى صحيفة الجمهورية من خلال علاقة قرابة للاستاذ أحمد قاسم جوده رئيس تحرير الجمهورية فى ذلك الوقت ، ثم انتقلت للعمل بعد التخرج فى

القسم الخارجي لجريدة الاخبار مع الاستاذ مصــــطفى
وجدت نفسى مدفوعا أو مندفعا للعمل فى المساء رغم ان
أو بمعنى ادق المكافأة التى اقترحت لى فى المساء كانه
بكثير مما كان يعرض فى الاخبار ٠

وسبقنى ولحقنى عدد آخر من الشبان ، جميل عبد ا
طاهر عبد الحكيم ، فيليب جلاب ، بهيج نصار ، عايدة
ليــلى الجبــال ، ابراهيم وهبى ، عــدلى برســوم ، اسـ
المهداوى ، عبد الفتاح الجمل ، فاروق منيب ، جيلى عبدا
أمير اسكندر ، بدوى محمود ، عبد السلام مبــارك ، ،
عثمان ، اميمة أبو النصر ، عايدة صالح ، صبحى الشار
مصطفى الحسينى ، فوزى سليمان وعبد المجيد أبو زيد
العطار الخطيب عباس ، شفيق خالد ٠

وهكذا كانت هيئة تحرير المســاء ســـواء كانت لا
نصف لامعة أو من الدم الجديد الشاب يمكن كلها ان
تحت توصيف سياسى هى أنها عناصر وطنية ديمقراطي

كان هناك الماركسيون والاشـــتراكيون الديمقـــر
والليبراليون ،بعضهم ممن له تاريخ طويل فى العداء ا
والاقطاع والنظام القـــديم الذى انهار منذ اربع ســ
وبعضهم دخل السجون والمعتقلات قبل ثورة سنة ٢
وحتى بعدها فى بعض الفترات التى لم يكن مســـار
الوطنى الديمقراطى قد تحدد بوضوح وبالذات سنة ٤
حينما كانت الولايات المتحدة الامريكية تكثف جهودها
أجل احتواء الثورة وقيادتها ٠

ولكنهم كلهم ومنذ سنة ١٩٥٦ ، كانوا يساندون الث
خطوطها العامة وخاصة وقد اتضـــحت هـــويتها الو
ومنطلقاتها الثورية فى العـــداء للاســـتعمار العالمى و
السياسية والعسكرية معـــه ابتداء من رفض وتحطيم
بغداد الى تأميم القناة ومواجهة قوى العدوان الثلاثى ثم
وفضح الاهداف الاستعمارية والامريكية منها على وجه
فى المنطقة والحاق الفشل بمشروع ايزنهاور ونظرية

التى تكشفت عنها مخططات جون فوستر دلاس وزير الخارجية الامريكية .

وبالاضافة الى الحماس التديد الذى عكسته صحيفة المساء للسياسة المعادية للامبريالية التى اعلنتها وتابعتهـــا القيادة الوطنية فى مصر فى ذلك الوقت ، دأبت الصحيفة أيضا على اثارة ومناقشة عدد من القضايا الحيوية والهامة التي ترتبط بخط التطور الاجتماعى والاقتصادى .

وخصص لاول مرة فى الصحف المصرية صفحة فكرية هى الصفحة الخامسة ، كانت تتناول وتعالج الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بمنهج جديد يضع فى اعتباره مصلحة الغالبية العظمى من السكان وخاصة العمال والفلاحين .

وأثيرت قضايا مثل تطبيقات قوانين الاصـــلاح الزراعى والسياسة التعليمية والثقافية والاسعار والاجور والتنظيمات النقابيــة والتخطيط الاقتصـــادى ، وهكـــذا وبكل المعايير الموضوعية كانت صحيفة المساء أكثر الصـــحف تعبيرا عن افكار وبرامج الثورة الوطنية الديمقراطية وكانت فى الواقع تجسيدا لجبهة وطنية عريضـــة تضم جميع المدارس الفكرية الوطنية والاشتراكية .

ولهذا كان من الطبيعى ان تكون المســاء بخطها وهيئــة تحريرها أكثر الصــحف تحفظا واحساسا بالمســئولية ازاء الانقســام المفــاجىء الذى طرأ عــلى الجبهة الوطنية العربية فى لحظة كان يعتبرها الجميع قمة انتصار هذه الجبهة وقيادتها .

والتزمت المساء منذ بداية الازمــة بين القيــادة المصرية والعراقية فى ذلك الوقت بموقف مبدئى وواع بالمسئوليــة ازاء ضرورة وحدة الصف بين جميع القوى الوطنية ، ولذلك نات عن الدخول فى معــارك الشتائم والشتائم المضــادة ، بل واخذت تحذر من مغبة انقسام القوى الوطنية العربية فى تلك الفترة العصيبة .

وفى الوقت الذى كانت صحف ومجلات اخبار اليوم تزيد النار اشتعالا وتدخل من اوسع الابواب فى كل ســـطورها

معارك المهاترات بانتشاء وحرفنه ليس حرصا على هذا أو ذاك بل عملا على توسيع هذه الخلافات بين القوى الوطنية العربية تمهيدا واستعدادا للقضاء على كل القوى المتناحرة ، سواء كانوا ناصريين أو بعثيين أو ماركسيين أو قوميين عرب ·

ودخل الساحة قوى غريبة ومريبة الافاقون ومحترفى الانقلابات والعملاء السافرون للاستعمار فى المنطقة ، وكاد يتوه العقل والمنطق ، بل لقد تاه بالفعل وسط طوفان من الشتائم والاتهامات المتبادلة ·

ووسط هذا الجو المشحون بالانفعالات والتشنجات ، كانت المساء هى الجريدة الوحيدة ، وربما فى العواصم الثلاث،القاهرة ودمشق وبغداد ، هى التى تكافح بالعقل والمنطق ·

واخذت تؤكد فى مقالاتها وافتتاحياتها عن ضرورة الوحدة الوطنية وتحذر من المنزلقات التى يرميها الاستعمار والرجعية فى الطريق وتؤكد ان مايجمع القوى الوطنية المختلفة سواء كانت ناصرية أو بعثية أو ماركسية او قومية ، أكثر بكثير مما يفرقها ، بل واخذت بموضوعية شديدة تناقش بعض القضايا الخلافية بين القوى والتنظيمات الوطنية المختلفة مثل قضية الوحدة والديمقراطية والقومية ·

وكانت تاتى أيام تبدو فيها الامور كما لو ان العقل قد انتصر فتخف حدة الشتائم والاتهامات المضادة ، وفجاة يصدر تصريح من بغداد أو من القاهرة ربما على لسان واحد من صغار المسئولين فيتكهرب الجو مرة أخرى وتنطلق شحنات حاقدة ومدمرة وغريبة ·· وستظل اسماء مثل : فاضل المهداوى فى بغداد ، وموجهى صحف أخبار اليوم ، ومدير اذاعة صوت العرب وكثيرون غيرهم تثير دائما علامات استفهام كثيرة حول دوافعها واهدافها الحقيقية فى اشعال نار الخلافات بين القاهرة وبغداد فى تلك الفترة فى وقت كانت القيادة فى البلدين تنتمى بالقطع لجذر وطنى واحد ، بل وتنطلق من اساس واحد تقريبا ·

فلقد كان سخيفا ما ردده البعض فى بغداد من ان فى

القاهرة نظام توسعى يسعى لضم الدول العربية أو نظام يقوم بدور الشريك للامبريالية الامريكية فى اهدافها .

كما كان يساويه فى السخف ما ردده البعض فى القاهرة ان فى بغداد نظام شيوعى أو عميل للشيوعية او شريك للاستعمار البريطانى واهدافه فى المنطقه ، وكان هذا حكم المنطق والاسس الموضوعية ، وهذا ما أكدته السنوات القليلة اللاحقة .. ولكنها بحق فترة غير منطقية فى تاريخ المنطقة أو هكذا كانت تبدو لبعض العقلاء .

★★★

كان الزملاء قد بدءوا يفدون .. مجموعة الدقى والجيزة والاطراف المجاورة أولا .. سعيد عثمان والخطيب عباس وعبد العزيز فهمي وطاهر عبد الحكيم .. وكانت هناك اخبار غير عادية وخاصة على وجه طاهر الذى تشير ملامحه بالحزن والغموض .

وقبل ان أجد الفرصة لاتأكد كانت مجموعة مصر الجديدة والعباسية والحدائق قد وصلت ، وقالت عايدة ثابت وهى تضع حقيبتها وترمى جسدها على المقعد فى انهداد واضح :

ـ لقد قبضوا على عبد العظيم الليلة فى الفجر .

هكذا مع أول شعاع للعام الجديد الذى لم يكن قد انقضى على ميلاده بضع ساعات .. واستبد الصمت بالمجموعة ليسوا لانهم فوجئوا ، فلقد كانت المظاهر والاحداث فى فى الاسابيع الماضية تسير فى اتجاه يمكن أن يصل الى هذا الحد .

ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن تجرى الاحداث بمثل هذه السرعة ، بل ان الدكتور عبد العظيم نفسه كان قد قال لى صباح اليوم السابق :

انني اتوقع ان يسود العقل فى النهاية فليس هناك مصلحة لاحد فى استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية .

كان عبد العظيم متفائلا مثل كثيرين من قيادة الحركة الشيوعية المصرية فى تلك الفترة بل كانت البيانات التى

كانت يصدرها التنظيم الشيوعى سواء « مجموعة الاغلبية » بقيادة أبوسيف يوسف واسماعيل صبرى عبد الله ، وفؤاد مرسى ، أو « مجموعة الاقلية » (١) بقيادة كمال عبد الحليم وشهدى عطيه الشافعى تلتقى كلها حول ضرورة محاصرة الخلاف القائم بين القوى الوطنية وتعلن ثقتها فى أن عبد الناصر والقيادة الوطنية فى مصر ستدرك خطورة اتساع هوة هذا الخلاف الذى لن يستفيد منه سوى قوى الاستعمار والرجعية فى المنطقة ٠

والتف عدد من الزملاء والزميلات حول عايدة يستفسرون ويهدئون فى نفس الوقت من حالة الانهيار الكامل الذى بدا على ملامح وجهها الشاحب ، والتى فقدت زوجها أكثر من العمل ، وهى التى لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من شهور ٠

ووجدت طاهر عبد الحكيم بوجهه الحزين الغامض يدفع بيده ورقة طواها جيدا وتناولت الورقة « لقد اعتقل فجر اليوم عدد كبير من الزملاء ٠٠ بهيج نصار وجميل عبد الشفيع وكل القيادات المركزية فى الحركة الشيوعية وعدد من العناصر الديمقراطية » ٠

وطويت الورقة فى صمت وبدات فى ترجمة الاخبار ٠

---

(١) احب ان انوه هنا الى اننى استخدم تعبير الاقلية بالمعنى الكمى فقط فلست أحب ولم يعد من المصلحة الدخول فى تفصيلات حول هذا الموضوع والتهم التى تبادلها الفريقان لفترة .. فلقد كانت قناعتى ومازالت ان الخلافات من الفريقين لم يكن لها جذورا موضوعية ولقد أثبتت الاحداث صدق ذلك .

فلنتركها اولا تنفث لهيبها
وتبتلع العالم حتى يمتلىء فمها
بالرماد ثم اخيرا ، ومن خلال
بقايا الحريق تأتى الفضيلة .

(كازانتزاكس — الاخوة الاعداء)

١٣ مارس ١٩٥٩

تجمعنا في مكتب مصطفى بهجت بدوى أو مصطفى بك كما نسميه . والواقع ان هذا الضابط والشاعر الشاب الذى كان يعمل مديرا للادارة حاز وبشكل سريع ثقتنا .

وقد كان كل ما اعرفه حين بدات العمل فى جريدة المساء انه واحد من الضباط الشبان الذين شاركوا فى حرب فلسطين وتحمسوا لثورة يوليو كما كان يقرض الشعر وينشر بين الحين والآخر بعض قصائده وخاصة فى مجلة الاشتراكى للاستاذ أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى « مصر الفتاة سابقا » .

وكانت الفكرة الشائعة انه من اهل الثقة ، وان عبد الناصر قد اختاره مديرا للادارة فى جريدة المساء ليكون فى الصورة مع خالد محيى الدين ، ولكن هذه الصورة اختفت بعض الشىء بعد أن عملت معه لمدة عامين ، لقد عرفت فيه أولا وقبل كل شىء الوطنى المتحمس الذى قد نختلف معه فى كثير أو قليل ولكنك لايمكن ان تشك فى حماسه الوطنى ، كما كان يتسم بأدب شديد واخلاقيات « نظيفة » فى معاملته .

ولذلك وحينما أخذ « عم محرم » يمر علينا واحدا واحدا ويهمس فى اذننا بان « مصطفى بك » يريدنا ، كنا ندرك أو على الاقل نحس بما هو قادم . فبالأمس صدر قرار بتعيين الاستاذ مصطفى المستكاوى رئيسا لتحرير المساء بدلا من خالد محيى الدين .

ووقف الرجل الطيب على مكتبه وعلى وجهه آلام حقيقية ، وفى عينيه حـــزن غير مصطنع ، وقال وهو يجاهـد ان يكون طبيعيا :

ـ « آسف اذا كنت أحمل لكم اخبار غير طيبة ، ولكنى على يقين من انكم تقدرون الظروف ، ولعلكم مثلى تؤمنون بانهـــا ظروف طارئة سرعان ماتنجلى على خير » ٠
وتوقف الرجـــل ثم فتح درج مكتبه وتناول عـــددا من الخطابات واخذ يمر علينا ويسلم لكل منا خطابه وهو يقول :
ـ « لقد تعمدت ان أكون انا وليس غيرى الذى يســـلمكم تلك الخطابات » ٠

وقبل ان ننصرف قال مصطفى بك فى كلمات حماس « احب أن انقل لكم أن المسئولين آكدوا لى ان هذا هو أقصى اجـــراء سيتخذ معكم ٠٠ وليس هناك اعتقال ٠٠ !! »
كان الرجل صادقا حقا فى نقل ماقالوه له ، ولكن ذلك لم يمنع بعضنا من ان يدرك السخرية الكامنة فى هذا الكلام ٠
وخرجنا ، ١٣ محرر ومحررة نحمل خطابات ممهورة باسم مدير الادارة ورئيس التحرير ، تقول :

« بعد أن تقرر اعادة تنظيم جريدة المساء على اسس جديدة لذلك فلقد قررنا الاستغناءعن خدماتكم ابتداء من ١٣ مارس ١٩٥٩ ٠٠ ٠٠ الخ ٠٠ »

وذهبنا شبه طابور منتظم الى القسم الخارجى ، فقد كانت غالبية الدفعة المفصولة من هذا القسم ، وبدأ كل يفتش عن اوراقه الخاصة فى الادراج ٠

كان جوا غريبا ومثيرا ٠٠ وموحيا ايضا فلقد حســـمت قضايا كثيرة طالما اقلقتنا فى تلك الشهور الثلاثة الماضية ، أى منذ اعتقالات أول يناير ١٩٥٩ ، بل ولا اتجاوز الحقيقـــة اذا قلت اننى احسست بالراحة بعد ان كنت اعيش دوامـــة حقيقية فى الفترة الماضية ٠
كانت الاموز غامضة طوال تلك الفترة ، والاعصاب مشدودة ٠٠ تصبح على خبر وتبيت على خبر آخر (٠) يتأكد فى يوم ان

هناك من يدبر مذبحة للشيوعيين والقوى التقدمية ثم يصفو الجو فى اليوم التالى .. والآراء تتضـــارب وتختلف وتقع فى حيرة ، خالدمحيى الدين يلتقى بجمال عبد الناصر ، ثم يؤكـد ان الازمة حوصرت وان المعتقلين سيفرج عنهم ويشيع جـــو من التفاؤل ، بل ونتلقى رســائل من زملائنـــا المعتقلين فى القلعة كلها تفاؤل ، ولكن اخبــار اليوم تشــعل النــار فى مانشتاتها كل يوم .

وتمتلىء صفحاتها الاولى باثارة غريبة بين القوى الوطنيـــة .. ولكننا وبعد استرداد الانفاس فى اعقاب حملة الاعتقالات الواسعة فى أول يناير والتى شملت حوالى مائتين من القيادات الماركسية والديمقراطية ، بدأنا نرد ونوضـح ونكتب مرة أخرى فى اتجاه شجب كل المحاولات التى تبذل للوقيعـة بين القوى الوطنية .

وفى ٨ يناير ١٩٥٩ ، كتب خالد محيى الدين بمناسبـــة الاحتفال بعيد الجيش العراقى .

« لاشك ان خطاب عبد الكريم قاسم يريح قلب كل عربى ويقطع عــــلى ذوى الاغراض السيئة طريقهم ويحفظ وحـدة الصف العربى فى المعركة ضد الاستعمار ، ويثبت لنا كذب تلك الانباء التى كانت تروجهـــا وكالات الانباء الغربيـــة وصحفهم وعملائهم » .

وفى ٢٨ يناير كتب خالد محيى الدين أيضا حول حديث الرئيس جمـــال عبد الناصر فى التليفزيون البريطانى ، « ان الاستعمار العالمى بريطانى وأمريكى ، وغيره يريد ان يعكـــر صفو العلاقات بين الجمهورية العربية المتحـــدة ، والجمهورية العراقية،وعلينا نحن الشعوب العربية الانسمح لهذه المحاولات ان تنجح وان نفتح عيوننا » .

وابرزت المساء تصريحات الرئيس عبد الناصر ردا عــــلى ســـؤال مندوب التليفزيون البريطانى حـــول الموقف مـن الشيوعيين العرب قال الرئيس : « حينما اريد ان أبدى رأيى فى نشاط الحزب الشيــوعى الســـورى فانى ابديه هنا فى

القاهرة ولا ابديه فى اذاعة لندن ، لان الحزب الشيوعي السورى وغيره من الاحزاب الشيوعية العربية هم عرب اولا ، ثم شيوعيون » .

واصل خالد محيى الدين طوال تلك الفترة فى كل المقالات الافتتاحية تاكيد ضرورة وأهمية وحدة الصف العربى والبحث عن نقط الالتقاء .

وكتب عبد العزيز فهمى فى بابه الاسبوعى « السياسة فى اسبوع » ، نفس المعانى ، وكتب زملاء كثيرون فى هذا الاتجاه .. ليس فى المساء فقط ، بل وفى الجمهورية وروز اليوسف .

وكتبت فى هذه الفترة مقالين تحت عنوان : « الوحدة العربية بمعناها التقدمى» ، و « ظروف تمت فيها الوحدة» ، بمناسبة العيد الاول للوحدة المصرية السورية ، وقد عنيت بشرح المخاطر التى تتعرض لها حركة التحرير العربى ، وخاصة اذا غلبنا التناقضات الثانوية بين القوى الوطنية على التناقض الرئيسى القائم مع الاستعمار .

وقلت فى مقال آخر ان اعدى اعداء الوحدة هم الذين يغمضون العين عن الاخطاء ، بل ويصفقون لها .. ان كل حريص على الوحدة العربية لابد وان يطالب بان تتوفر لها الاسس الموضوعية ، لكى تبقى وتستمر ، فبالامر ليس مجرد انفعالة عاطفية فقط ، ولكنه يتعلق بمصير وأمانى عزيزة على كل عربى .

وطالبت بان يكون هناك اساس ديمقراطى سليم ومؤسسات جماهرية وسياسية حقيقية ومعبرة عن حركة الجماهير لتلعب دورا فى دعم الوحدة حتى لاتصاب وحدتنا بنكسة .

وفى فبراير كان يبدو ان العقل والمنطق قد كسبا المعركة، بان ذلك فى عدد من المظاهر الواضحة مثل الخفيف من حدة الهجمات الاذاعية والاعلامية المتبادلة بين القاهرة ودمشق من ناحية ، وبغداد من ناحية اخرى ، وأصدر التنظيم الشيوعى فى مصر — بجناحيه — بيانات بهذا المعنى ، بل وبدأت حملة جماهيرية لجمع التوقيعات من الكتاب والعناصر الوطنية

والديمقراطية تدعو الى وحدة الصف وحشد القوى ضد المؤامرات الاستعمارية والصهيونية ، وجاء خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة الذكرى الاولى للوحدة المصرية والسورية فى ٢١ فبراير خطابا ايجابيا هادئا ليس فقط خاليا من اى هجوم على العراق ، بل انه اشاد بالعلاقات المصرية السوفيتية وبضرورة التضامن بين القوى الوطنية العربية ، وحذر من المؤامرات الاستعمارية .

كذلك فلقد أكد مجلس التضامن الاسيوى الافريقى ، وكذلك مؤتمر الشباب الاسيوى الافريقى اللذين انعقدا فى القاهرة فى فبراير على ضرورة وحدة الصف العربى ضد الاستعمار والصهيونية .

وفى العراق أيضا القى عبد الكريم قاسم خطابا رحب فيه باتصالات رسمية على مستوى كبير من المسئولية فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية ، كما اصدر الحزب الشيوعى العراقى بيانا بهذا المعنى وبضرورة توحيد كل القوى صاحبة المصلحة فى الوحدة والتقدم .

بل لقد شاعت اخبار فيها الكثير من الصحة عن اتصالات بين المسئولين فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية بعضها دار فى القاهرة وبعضها فى بغداد أو بيروت واشترك فيها بعض الشخصيات العربية لتنقية الجو وتصفية الخلافات .

ولكن أيام فبراير الاخيرة حملت بالاضافة الى رياحها الباردة على غير العادة احداثا اخرى ليست باردة على أى حال ، بل كانت كفيلة بان تشعل النار فى المنطقة كلها .

ففى خطاب لخروتشيوف القاه فى موسكو جاءت فيه فقرة يرد بها على هجوم عبد الناصر على الشيوعيين والاتحاد السوفيتى فى فترة سابقة تقول : « انه شاب حدث ، أمامه ان يكتسب خبرة طويلة » كما أكد خروشوف فى نفس الخطاب الدوافع الوطنية المختلفة لدى القادة الوطنيين ، وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر .

وحذر من أى شقاق بين القوى الوطنية ، وان هناك دوائر

معينة تستخدم سلاح العداء للشيوعية للوقيعة بين القـــوى الوطنية العربية ٠

كان خطاب السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في ذلك الوقت وبكل المعايير الموضــوعية خطابا هادئا ، حاول فيه خروشوف ان يدافع عن موقف الاتحـــاد السوفيتي في مساعدة مصر ابان العدوان الثلاثي ومساندة الثورات العربية ، ولكنه لم يدخل في هجوم أو شتائم بل أعاد تأكيـد اسـتمرار الاتحـاد السـوفيتي في موقفـه المسـاند للقوى الوطنية العربية وجهوده من أجل وحدة هذه القوى ٠

ولكن دوائر معينة تجاهلت كل ماجاء في الخطاب وركزت فقط على الفقرة التي وصف فيها عبد الناصر بانه شاب حدث امامه ان يكتسب خبرة طويلة ، » وبدات صحف اخبار اليوم وصوت العرب حملة عنيفة ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعيين وعلى راسهم الشيوعيين العراقيين والســـوريين وجارتها في هذا بعض الصحف الاخرى ، بل وبعض الاوساط التي كانت دائما في انتظار الفرصة ، بالرغم من ان الرئيس عبدالناصر اكد في رسالته التي بعث بها الى خروشوف بانه لن يســمح بنجاح المحاولات لاساءة العلاقات بين البلدين ٠

● أما الحدث الثاني فهو انقلاب عبد الوهاب الشواف في الموصل في الاسبوع الاول من مارس ٠ لقد كان هذا الحدث الذي انفجر فجأة قنبلة دمرت كل الجهود والمساعي وبالتالي أي احلام كانت في مخيلتنا عن عودة وحدة الصــف العربي والداخلي ٠

سارعت اجهزة الاعلام والصـحافة من اللحظـــة الاولى الى التأييد المطلق للانقلاب ، ولعب حزب البعث وقيادته في ذلك الوقت دورا كبيرا في ذلك ٠

وخرجت الاخبار والاهرام بعناوين عريضـــــة عـــن ثورة الشواف ضد الحكم القاسمي الشيوعي !! وأخذ أحمد سعيد في صوت العرب يثير بطريقته البدائيـة » هيـــا ياعرب ٠٠ جهزوا عليهم ، الشيوعيون الملاحدة ٠٠ طهروا التراب والتراث ٠٠ اقتلوهم حيثما وجدتموهم ٠٠ الخ ٠٠

كان من الواضح ان حزب البعث وجماعات القوميين العرب

فى ذلك الوقت وراء هذا الانقلاب فى الموصل ، وكان من الواضح أيضا وبعد عدة ساعات من وقوع الانقلاب انه فشل اذ قامت جماهير الفلاحين والعمال المسلحين بالزحف على الموصل ومحاصرة الشواف والفرقة التى كان يقودها .

وخرجت المساء بعد ذلك بعنوان يحمل الصورة الحقيقية ، وان كان قد مثل تناقضا صارخا مع صحف الصباح ومايذيعه راديو القاهرة ودمشق .

كان مانشيت المساء : « فشل انقلاب الشواف » ، كان المانشيت حقيقة ، ولكنه كان حقيقة مرة بالنسبة للآخرين ..

وبدأت على الفور اشرس واعنف حملة شهدتها مصر ضد الشيوعيين والقوى الوطنية الديمقراطية . ونجح المخطط الاستعمارى تماما .

وبدأ واضحا ان القضية الحقيقية ليست ناصر أو قاسم او الشواف أو حتى حزب البعث ، بل ان الغرض الحقيقى هو ان تغرق الارض فى بحر من الدم والهيستريا ليس مع القوى الاستعمارية والرجعية ، بل بين القوى الوطنية نفسها . هذا ماتأكد لدى حينها ، وما اجزم به حاليا ، وارجو ان تكشف الوقائع عن ذلك (٠) ان انقلاب عبد الوهاب الشواف فى العراق دبر بأيد غير عربية ، وانه كان يستهدف نسف المحاولات والجهود التى كانت تبذل لتهدئة الجو بين القاهرة وبغداد .. ووجدت اخبار اليوم ومعها كل تلاميذ مدرسة الاثارة الفرصة الكاملة لاستعراض كل مواهبهم فى الاختلاق والتلفيق والاثارة وخاصة انه كان الطبيعى ان يصاحب القضاء على انقلاب الشواف فى الموصل بعض العنف .

وخرجت الاخبار لتقول ان الشيوعيين يدوسون المصاحف ويقتلون رجال الدين ويسحلونهم فى الشوارع ويحطمون المساجد ، وركزت اجهزة الدعاية على تلك النغمة المجوجة وطالبت الاخبار بوضوح بأن تقام مذابح للشيوعيين ، ومن على شاكلتهم فى مصر وسوريا ، وبدأوا يدقون فى هذا الاتجاه (٠) وبمراجعة بسيطة لما كتبته الاخبار فى تلك الفترة سنجد ان

مصادرها كانت لمراسل اليونيتدبرس أو الاسوشيتدبرس الامريكيتين ٠

وفي الفترة منذ فشل انقلاب الشواف حتى يوم ١٣ مارس وهو اليوم الذى تسلمنا فيه خطابات الفصل من الصحيفة كانتموجة العداء والهستريا تتزايد يوما بعد يوم ، ويقوم اساتذة من المهيجين يتقنون جيدا جو الاثارة والوقيعة برسم سيناريو يومى عن الشيوعيين الكفرة فى بغداد والموصل وكركوك وكيفيقتلون ويسحلون ويستحلون كل ماهو محرم٠
وقد كان البعض يعتبرها جرأة غير عادية منى حينما ادخل فى مناقشة لاؤكد ان عبد الكريم قاسم ليس شيوعيا ، وان الشيوعيين دعاة وحدة وطنية وسلام ، وليسوا دعاة قتل وارهاب ، وان ماتنشره الاخبار وأخبار اليوم ويذيعه صوت العرب فيه كثير من المبالغة ومأخوذة عن تقارير يكتبها مراسلون امريكيون معروفون بعدائهم للشعوب العربية ٠

ولكن يبدو انهم هم الآخرون فى بغداد كان لديهم نفس القوى التى تحاول اشعال النار لتأتى على كل شىء ويبدوايضا ان الحزب الشيوعى العراقى ، وخاصة بعد انقلاب الشواف فقد جزءا من اتزانه وتعقله وترك نفسه ينزلق هو الاخر فى الحملة العصبية ٠ وقد قدم الحزب بعد ذلك نقدا ذاتيا لبعض النصرفات والاندفاعات فى تلك الفترة ٠ وقد التقيت بزميل عراقى كان عضوا فى الحزب الشيوعي فى تلك الفترة وتحفظت على كثير من آرائه واندفعاته وخاصة فيما يتعلق بالثقة المطلقة الذى يعطيها الحزب لعبد الكريم قاسم والذى جعله يرفع شعار « ماكو زعيم الاكريم » ٠

ويومها وكان معنا الزميل أسماعيل المهداوى قلت للزميل العراقى « أنا افهم ان هناك قوى وطنية قد تكون ضيقة الافق سواء فى مصر أم فى العراق ، وانها لاتعى تماما مصلحتها ، وافهم أيضا ، ان هناك قوى أخرى استعمارية او عميله للاستعمار تزيد اللهب اشتعالا ٠ ولكن الذى لايمكن ان افهمه او اغفره انكم وانتم القوى الواعيه والمدركة والمسئولة تنزلقون الى نفس الاساليب » ؟

ويوما قال الزميل العراقى :

ـ يبدو انك قد بدأت نتأثر بالدعاية البورجوازية ٠

وكان وجهه يقول كلاما آخر يتهمنى فيـــه باننى فى حالة خوف ٠ وقد كنت خائفا حقا ، ليس من الاعتقال كما صور له وهمه الساذج ، أو من المضايقات التى يمكن ان نعانيها نحن الماركسيين والديمقراطيين المصريين ، ولكنه كان خـــوف من النوع العام،حينما تحس انك امام عاصفة تحركها قوى مجنونة وليس هناك مجال للعقل ٠

ولعله بعد سنوات طويلة من ذلك الحـــدث يتضح الى أى مدى كنت محقا فى هذا الخوف ٠

فلقد ذهب عبد الناصر بعد أن ادرك خطاه ، وحاول قــدر لامكان اصلاحه وذهب عبد الكريم قاسم بعد ان انقلب عـــلى الشيوعيين ، ثم انقلب على نفسه حتى قتل ٠

وذهب كثير من القيادات البعثية والشيوعية والقوميـــة ، ولكن كل هذه القوى ، الناصريون والشيوعيون والبعثيون والقوميون يتعرضون للهجوم اليوم من منطلق واحد،وتستخدم ضدهم نفس الاساليب والاتهامات التى كانوا يستخدمونهـــا ضد بعضهم البعض ٠ ولست مغاليا اذا قلت ان كل الدعاية والاتهامات المحمومة التى قيلت فى هذه الفترة كان ومازال لها اثارها على كل القوى الوطنية فى المنطقة ٠

لقد كانت اياما لها ما بعدها ، ولسنوات طويلة ٠

★★★

لملم كل منا ورقه ، ولم يكن هناك فى الواقع ورق كثير ، ليلم ، فلقد كنا وباحساس الخطر الذى نعيشه فى الشـــهور الماضية قد نظفنا ادراجنا ٠

ووقف الاستاذ الحامولى ومعه عـدد من الـوافدين الجـــدد الذين جاءوا ليحلوا محلنا ليعبروا عن أسفهم ، وبأنها محنه سرعان ماتنتهى ، وضحك بعضنا مدعيا عـدم الاهتمـــام ، وتجمعت مشروع دمعة فى عينى وأنا القى نظـرة أخـيرة على المكتب لم وغادرنا مبنى الجريدة حوالى الحادية عشرة (٠) كلنا

ثلاثة عشر من محررى المساء من بينهم انستين،وسيدة،ومررنا على دار أخبار اليوم فى الطريق ، ورفعت عينى أتأمل المبنى الذى كنت اراه يوميا فى الغدو والرواح ، بل واراه من شباك الجريدة ، وكان كل الزملاء والزميلات يفعلون نفس الشىء فى نفس اللحظة ، وربما دارت فى عقولهم مادار فى ذهنى من ان يوما سيجىء لتصبح هذه المؤسسة ملك للحقيقة لشعب مصر ، فلم أكن افهم لماذا ، ونحن على الاقل زملاء مهنة ، لماذا هذا الموقف الغريب والمعادى لاى رأى معارض الذى تتخذه الدار خطا لها · لقد غفر لهم الشعب موقفهم المعادى له وللوفد وانحيازهم للسراى ولاحزاب الاقلية التى كانت تحكم باسم الانجليز قبل الثورة · فلماذا لم يتعلموا الدرس ·

وضحكت اميمة ابو النصر ، وكانت دائما مرحة ، وقالت فى خفة دم عصرت الابتسامات على وجوهنا :

ــ ما العمل افادكم الله ؟؟

وقال فيليب جلاب ·

ــ ليس امامنا سوى ان نرسل برقيات الى مكتب العمل والى رئيس الجمهورية ، فهذا فصل تعسفى ·

وقال طاهر عبد الحكيم :

ــ تشكو من من ؟؟ ·· ولمن ؟؟

وأفتى أمير اسكندر :

ــ ومن يدرينا ·· ربما كان الفصل مقدمة لاشياء أخرى ، وأكد طاهر أفتاء امير ·· واضاف بالتأكيد كلنا مرشحون للاعتقال ، وعادت أميمة للتدخل بخفة دمها :

ــ فال الله ولا فالك ·· لاتقل كلنا ·· تكلم عن الرجال فقط ·· فلم يعتقل فتيات فى مصر حتى الان ·

وتدخلت قائلا :

ــ سواء اعتقلنا أو لم نعتقل ·· المهم ان نستنفذ الان كل الاجراءات الممكنة فيما يتعلق بالفصل التعسفى ·

واقترحت ان نرسل بيانا لنقابة الصحفيين باعتبارها الجهة

المسئولة عنا ، ثم نذهب الى محامى ليدرس النواحى القانونية فى المشكلة ، وسجل طاهر عبد الحكيم اعتراضه على المنهج الشكلى والقانونى الذى نتبعه ، وان كان قد صحبنا الى مكتب الاستاذ أحمد مجاهد المحامى .

وجلسنا بعض الوقت فى مكتب المحامى ، وشرحنا الموضوع .. وأخذ منا البيانات اللازمة ، وأكد أكثر من مرة انهـــا قضية مكسوبة سلفا ، كما حفل حديثه بكلمات التشجيع ، وتواعدنا على لقائه بعد أسبوع ، وعندما كنا نغـادر المكتب هرش أحمد مجاهد بعض الشعر المتبقى فى مؤخرة رأسـه وهو يقول :

ـ افضل أن تعطونى توكيلا شاملا تحسبا للظروف .. !!

وأدركنا ماذا يعنى ، بل كانت أعماقنا ممتلئة به ..

وغادرنا المكتب وكلنا قناعة بأن شيئا ما فى الطريق ..

- ٣ -

هناك وقع اقدام
جاءوا ليقتلعوا الزهرة
جاءوا ليدنسو الطفل
باللتعاسة والفجر .

(بول ابلوار ـ قصائد حب)

٢٨ مارس ١٩٥٩

كنت متعبا للغاية في ذلك اليوم ، فبالاضافة الى اللف والدوران طيلة الاسبوعين الماضيين وسط جو عصبي هستيري يفتك باعصاب الجمال هاجمتني الانفلونزا وبقسوة ..

فمنذ أن فصلنا فى ١٣ مارس الماضى كانت الأحداث تتصاعد بدرجة خطيرة فتسلم عدد آخر من محررى جريدة المساء خطابات الفصل منهم : الدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقاني وعادل ثابت واسماعيل المهدوى وعدلى برسوم .كما فصل عدد آخر من الكتاب الصحفيين التقدميين فى عدد من المؤسسات الصحفية الاخرى .

كذلك حدثت بعض المظاهرات فى الجامعة وفى شارع القصر العينى يقودها بعض الطلاب العرب من البعثيين والقوميين العرب تهتف بسقوط الشيوعيين ، وحاول بعض هؤلاء الطلاب العرب الذين تأكد للجميع بما فيهم السلطة المصرية بعد ذلك انهم فى غالبيتهم العظمى عناصر مشبوهة ، الاعتداء على بعض الطلبة المصريين بدعوى أنهم شيوعيون .

وتصدى لهم الطلبة المصريين ومعهم ايضا عدد آخر من الطلاب العرب .

وفيما عدا هذه الاحداث العنيفة فيما عدا الحملات الهستيرية التى كانت تقودها أخبار اليوم وتدعو علنا لقتل وذبح العناصر الديمقراطية والماركسية تحت دعوى انهم يفعلون ذلك فى العراق

.. كان المواطن العادى المصرى يمضى فى حياته العادية مواصلا همومه ومناعبه وهو يهز رأسه ويتساءل : لماذا كل تلك الضجة ؟.

ولم يكن أحد وسط هذه الهستريا يقدم له تحليلا موضوعيا مقنعا لتفسر له هذا الانقلاب المفاجىء .

فمنذ فترة ليست بعيدة ، كان المواطن يسمع عن العدوان الثلاثى وعن وقفة الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية الى جانب مصر وانذار بولجانين الذى اكتسب شعبية كبيرة لدرجة أن بعض العائلات فى الأحياء الشعبية مثل باب الشعرية وبولاق أطلقوا اسم بولجانين على أبنائهم .

ومنذ فترة ليست بعيدة سمع هذا المواطن عن مشروع ايزنهاور ومحاولات أمريكا للنيل من استقلال بلده وتدبير الانقلاب فى الاردن واثارة الثغرات الطائفية فى لبنان من اجل محاصرة الثورة المصرية .

ومنذ شهور فقط سمع هذا المواطن عن ثورة العراق واسقاط الملكية ونورى السعيد وزيارة جمال عبد الناصر لبغداد ثم لدمشق وسط طوفان من الترحيب الشعبى العربى الذى وصل الذروة فرحا بانتصار الثورة فى العراق وسقوط حلف بغداد.

فما الذى حدث .. ولماذا ؟ حتى تنقلب الصورة رأسا على عقب ..؟

ان أحدا من العاملين فى أجهزة الاعلام المصرية فى ذلك الوقت لم يجهد نفسه للاجابة على تلك الاسئلة بل غرقوا فى نوع من الدعاية والاثارة التى كانت فى أغلب الاحيان تأتى نتيجة عكسية .. ولعل المسؤولين انفسهم قد أحسوا بذلك وحاولوا أن يوقفوه . فبالاضافة الى ماكانت تكتبه أخبار اليوم فى ذلك الوقت الذى كان فى حقيقته تحريضا على سفك الدماء وتوسيعا لهوة الخلافات بين الاشقاء كتب أحد الصحفيين المصريين العاملين فى جريدة الجمهورية «رع» مقالا صور الخلاف كله من وجهة نظره شذوذ جنسى اتهم به بعض القادة العرب .

ولقد منع هذا الصحفى من الكتابة بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر صبيحة اليوم الذى ظهرت فيه مقالته .

ووسط هذا كله خرجت مجلة «طريق الشعب» فى الاسبوع الأخير من مارس التى يصدرها الشيوعيون المصريون لتدعو مرة أخرى الى وحدة الصف الوطنى ولتدين كل من يسعى الى زيادة شقة الخلاف بين القوى الوطنية الحاكمة سواء فى القاهرة أو بغداد وتطالب بوقف الحملات المتبادلة وتوجيه الجهود واليقظة ازاء المؤامرة الاستعمارية والرجعية التى تستهدف اسقاط الحكم الوطنى فى البلدان . (١)

ولم أتحمس فى حياتى لشىء قدر حماسى لهذا العدد من طريق الشعب ، كنت أحس انه صوت عاقل وصارخ .. فى البريه .. وأخذت أوزعه بشكل شبه علنى فى الاتوبيسات .. وعلى المقاهى .. يملؤنى احساس بأن العقل قد يسود ولكنى كنت فيما يبدو كمن يحاول أن يوقف الطوفان بيديه .

كان أبى قد جاء الى القاهرة بعد ان سمع بفصلى — وكم كانت صدمة قاسية له وهو الذى كان يرى فى عملى الصحفى بعض العزاء عن فقدان أخى الاكبر — وحاول أن يقنعنى بان أذهب معه الى القرية حتى تمر العاصفة . وحينما رفضت حاول ان يهددنى بقطع المصروف بعد ان اصبحت بلا عمل .. وحينما جلست صامتا وغاضبا قام الرجل الطيب والذى أحيل الى المعاش منذ شهر واحد واحتضننى وهو يقول :—

لاتحزن .. شدةوتزول .. وان شاء الله هترجع تانى وتكتب .. بس خالى بالك من نفسك .

وتناولت الغذاء مع هذا الأب والصديق الذى كان يعمل حتى شهر مضى ناظرا لمدرسة القرية الابتدائية والذى تلقى علومه فى الازهر وعاش تقيا متدينا لايترك فرضا . يؤم الصلاة فى الجامع ويلقى خطب الجمعة ويلجأ أهل القرية اليه فى خلافاتهم ومشاكلهم قبل أن يلجأوا الى العمدة .

---

(١) لابد ان اسجل فى هذا الصدد ان موقف اخبار اليوم والصحف الاخرى لم يكن يعنى انه كان هناك كتاب وصحفيين غير ماركسيين رفضوا ان يساهموا فى تلك الحملة القذرة الكثير منهم كامل زهيرى .

كان أبى يحرص دائما على مناقشتى طوال تلك السنين الماضية فيما أكتب وأقول ٠٠ وكان فى البداية ، خاصة أيام الجامعة ،يتخذ دائما موقف الاب الحريص على ابنه فيريده بعيدا عن المشاكل ٠ ولكنه فى نفس الوقت لم يكن يخفى اعجابه وتقديره لعناد ابنه والافكار التى يرددها عن الاشتراكية والعدالة وتوفير حياة انسانية للفلاحين فى القرية وفى كل قرى مصر وكان ينهى دائما مناقشاته معى قائلا :ـ

كل دا كويس وعظيم ٠٠ لكن يا ابنى لن تستطيع ان تغير الكون ٠٠ وحدك ٠

ـ لست وحدى ٠

فيقول مبتسما وقلقا فى نفس الوقت :ـ

ربنا معاكم ٠٠ والله انتو بتفكرونى بالمسلمين الاوائل وارتباطهم بالعقيدة الصحيحة ٠٠ انكم تحملون سيف أبى ذر ٠ وكانت كلماته دفعات حانية وقويه ٠ بل لا أكون مغاليا حين أقر أن هذا الاب والصديق المؤمن بحق كان أحد الذين دفعونى دفعا الى الايمان بالاشتراكية ٠٠ دون أن يدرى ٠

بل انى مازلت أذكر وقد كنت فى الثقافة العامة حين اخذ يحكى لى ونحن نجتمع حول «موقد النار» بحثا عن الدفء فى ليلة من الليالى الباردة تاريخ حياة أبى ذر الغفارى أحد أصحاب الرسول وزهده وتقشفه ودفاعه عن الحق والمساواة بين الناس الى أن مات فى احدى البرارى وحيدا شريدا بين ذراعى امرأته العجوز ٠ وقد تجمعت الدموع فى عينى وعين اختى الصغرى بل وأخذت أمى تبكى بحرقة بالغة ٠ وقبل أن أقرأ بعد ذلك كلمة عن الاشتراكية وصراع الطبقات كانت كلمات أبى ذر الغفارى تملأ رأسى بأحلام انسانية واسعة يعمقها حياتى فى القرية ٠

وكنت أتصوره دائما ببشرته السمراء وعينيه المدعجتين وجبهته العريضة ووراء جموع الفلاحين من أهل قريتنا يحملون السيوف تنفيذا لكلماته المأثورة «عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج على الناس شاهرا سيفه» ٠

وقبل أن يغادر أبى القاهرة هذه المرة قال وهو يحتضننى عند محطة أتوبيس المنصورة فى صوت مبلل بالدموع :

يابني لاتنسى ان أبي ذر مات وحيدا وشريدا في الصحراء ·

● ● ●

كان أمامي في ذلك اليوم عدة مشاوير فقد كان على ان أمر على المحامي لأعرف مصير القضية ، كما كان من المفروض ان أذهب الى نقابة الصحفيين لأسأل عن الشكوى التي تقدمنا بها بعد فصلنا ، ولكن الانفلونزا اللعينة والدوار المستمر في الرأس المصحوب برعشة داخلية أقنعاني بضرورة الذهاب الى البيت ··

ودون ان أقول كلمة لأختي وزوجها اللذين كنت اقيم معهما دخلت الى حجرتي وألقيت نفسي على السرير ·

وجاءت أختي خلفي وتحسست جبهتي التي كانت مشتعلة بالتأكيد وصرخت في ذعر :

ــ ياخبر دانت نار ·· مالك ·

ــ شوية برد ·

ــ أعمل لك شاي · .

ــ أنا أخذت اسبرين ·· لما انام هرتاح ·

وجاء سامح ابن اختي الصغير الذي لايتجاوز الرابعة وحاول أن ينام بجانبي كعادته ولكني طلبت من أمه أن تأخذه معها خوفا عليه من الانفلونزا ·· ولكن الصغير أصر وتكور في حضني رافضا كل محاولات الاغراء والتهديد التي بذلتها معه أمه ··

وطلبت من أختي أن توقظني في العاشرة مساء قبل أن تنام فلقد كان من عادتي ان ابدأ سهرتي في الكتب بعد تلك الساعة ·· ونمت ·· نوما طويلا لاأحس فيه بشيء ·· دون آلام ودون أحلام ·

وحينما اخذت اتقلب على هزات يد أختي وصوتها القادم من بعيد وهي توقظني كنت أتصور ان الساعة قد أصبحت العاشرة وأخذت أتململ وأطلب منها أن تتركني ساعة أخرى ·· ولكنها عادت تهزني في رفق وفي صوت باك ··

وافقت على دمعة ساخنة تسقط على جبهتي ··

وقمت أدعك عينى وأنظر حولى لارى الغـرفة قد امتـلأت بعدد من الملابس الصفراء‥ كانت أختى تقف الى جوارالسرير وبجانبها زوجها وورائهما اربعة من الوجوه الغريبة ينظرون الى بتركيز غريب ‥ ودعكت رأسى بعنف متصورا اننى احلم ولكن شهقة باكية من أختى جعلتنى أعيش الواقع وأدركه بكل تفاصـيله ٠

اذن فقد جاءوا ‥

كان فى الغرفة أربعة منهم اثنان يلبسان الملابس العسكرية وآخران يرتديان الملابس البلدية بالكوفية والطاقية التقليدية ‥ وعلى باب الغرفة وقف ضـابط فى لون البن المحـروق يشاهد المنظر فى هدوء ٠

وبقيت وسط السرير وأخذت اجول بنظرى بينهم وكأننى أشهد فيلما صامتا ونحيب أختى تقـوم بدور الموسـيقى التصويرية ٠ نفس الوجوه التى سـمعت عنهـا كثيرا جمـود وبلاده وتحفز ‥ عيون بعضهم كعيون الصقر تلتقى بهـا فلا تجفل أما الضابط فقد كان يتلاشى دائما نظراتى ‥ وابتسمت فلطالما حكى لى جميل عبد الشفيع عن هذا المنظر كثـيرا فى تجاربه السابقة كان يقول «انهم يطبون فى الفجـر كانقضاء المستعجل وليس هناك من بد سوى أن يكون الانسان واثقا من نفسه امامهم ، وتذكرت كل هذا فى لحظات ثم وثبت فى خفة غريبة الى وسط الغرفة ونسيت المرض بل وأحسست بقـوة طارئة تمدنى بطاقة وتغرينى بأن ألكم أحدهم فى فكه ٠

وقلت : أفندم !!

وتقدم الضابط الاسمر الممتلىء ٠

ـ الصاغ أحمد صالح داود من المباحث العامة ٠

وقبل ان أسأل تقدم وقد أدرك ماأعنى وقدم مايثبت شخصيته

ثم أردف فى لهجة حاول ان يكون فيها مهذبا ٠

ـ معى أمر باصطحابك وبالتفتيش ٠

ـ من النيابة ٠

ـ من الجهات المختصة ٠

ـ الجهات المختصة التى اعرفها هى النيابة .
وقلل من محاولاته المهذبة وقال فى صوت صارم :
ـ أستاذ لاداعى لهذا الجدل .. فأنت تعلم جيدا الظروف، هناك قرار جمهورى .. ولم يضع لحظة واعطى امره بالتفتيش
ـ وانتشر ثلاثة من الاربعة فى الشقة بينما وقف الى جانبى شاويش ممتلىء بشوارب كثه وملامح قاسيه واتجه الضابط الى مكتبى وأخذ يقلب فى بعض الكتب . وابتسمت مرةأخرى. وقلت عن ماذا تفتش ؟ واجاب دون ان يلتفت الى : مجرد اجراء روتينى ثم أمسك بمصحف فى يده التقطه من المكتب وكانه عثر على شىء لم يكن يتوقعه .
ووضع المصحف مكانه وهو يحاول ان يبتسم .
وقال : غريب هيه .. يمكن أطلع اخوان مسلمين ؟!
فيه منشورات .. فيه كتب ماركسية .
قلت : منشورات لا .. لكن كتب ماركسية طبعا .
وهل هناك مثقف واحد فى العالم تخلو مكتبته من الكتب الماركسية .
وسمعت صرخة عالية لأختى تأتى من الحجرة المجاورة ... وغلى الدم في عروقى وكدت أنشب أظافرى فى رقبة الضابط الذى امتقع وجهه فجاة ، ثم اندفعت الى حجـرة أختى وورائى الشاويش والضابط .

وكان كل شىء مقلوبا فى الغرفة ، محتـــويات الدولاب والملابس ملقاة على الارض وفى أى مكان ومرتبة مقلوبةواخرى مشقوقة بالطول والمخبر الملكى يعبث بالقطن ويرميه فى كل مكان وأختى تصرخ وتســب وتلعن . وامســـكت يد المخبر ودفعته تمهيدا للانقضاض عليه
كان الهدوء الذى التزمته به من البداية يخفى وراءه ، كل توترات الموقف .

وأحس الضابط بالموقف المتفجر الذى قد يسفر عن معركة سيكون فيها هو الخاسر فلقد كانت التعليمات لديه محددة .
« القبض فى الفجر وبدون اثارة اى ضجة .
ووقف الضابط بينى وبين المخبر ولكزه فى جنبه ونهره

ببضع كلمات ، ثم أخذ يعتذر لأختى التى وصلت فى حالة هياج شديد وأخذت تلعنهم وتلعن مهمتهم وتدافع عن أخيها .

والغريب ان هذه الاخت الطيبة التى لم تشغل نفسها فى يوم من الايام بالسياسة والتى كانت تحذر فى دائما من المخاطر اندفعت الكلمات من لسانها كما تندفع طلقات المدفع الرشاش « انتو ظلمه .. عاوزين اخويا ليه .. اخويا مع الحق مع الناس ، وكل اللى بيقوله صح ، بكره هتشوفوا وهيجيلكوا يوم » .

كان صوتها يعلو ويعلو مدويا فى صمت ساعات الفجر الاولى .

واستيقظ سامح الصغير على صوت أمه وجاء يفرك فى عينيه ويبكى .. وأحسست كما لابد وان يكون قد أحس الضابط ان بعض الشبابيك فى العمارة والعمارة المجاورة قد فتحت .

وحاول الضابط بكل مايستطيع أن يهدىء الموقف ، ولكن عيار أختى كان قد انفلت ، ولم يعد فى قدرة أحد ان يسكته .

وطلب منى الصاغ صالح داود أن اتدخل لان الموقف سيتعقد هكذا .. وأخذ يرجونى ، بل ويتوسل الى ان تسكت أختى أو على الاقل تخفض صوتها .. وأخذ يؤكد انها مهمة سخيفة ولكن الاوامر .. !!

هكذا .. يخافون حتى من الصوت العالى ؟؟

وأخذت اختى بين يدى أهدىء من ثورتها التى بدأت تدخل فى تشنج مرتعش ، وصرخت فى الضابط والجنود الذين اصطفوا خلفى :

ـ مادمتم تعرفون ان مهمتكم سخيفة ، فلماذا لاتلتزمون الادب على الاقل ؟؟

وجلست أختى على كنبة بجوار السرير واضعة راسها بين يديها وهى تشهق وتنتحب ، بينما حمل زوجها سامح الصغير الذى كانت عيناه تعكسان حيرة المتفرج الصغير على مسرحية لايفهم مغزاها ، واندفعت أنا الى شنطة صغيرة اضع فيها بعض الملابس كما ارتديت بدلتى على عجل لاهرب من هذا الموقف الذى لم اعد احتمله .. حقيقة لم اعد احتمل .

وتمالكت أعصابى ووقفت فى الصالة ممسكا بالشنطة ٠
أنا جاهز ٠٠

وحاول الضابط ان يؤكد ان الامر بسيط واننى ساعود اليوم الى البيت ، وربما بعد ساعتين ٠ ولكنى لم اعد احتمل كل ذلك السخف ٠

وصرخت بصوت أعلى :

ـ من فضلك ياللا أنا جاهز ٠٠٠٠ وفتحت باب الشقة وارتمت اختى على الارض تصرخ وصرخ معها سامح :

ـ آجى معاك ياخالى ؟؟

وكنت اقفز درجات السلم حتى لا اسمع ٠٠٠ كان الموقف قد تحول الى « ميلودراما » وكنت اريد ان أظل متماسكا وطوال هبوط السلم أو هرولتى عليه ومن خلفى الضابط والعساكر والمخبرين كانت الشقق المفتوحة تنطق بكلمات خاطفة على لسان صاحب الشقة أو زوجته أو ابنه ٠٠ واذنى تلتقط وسط كل هذا الطوفان :

ـ ربنا معاك ٠٠

وبدون استئذان فتحت باب العربة السوداء الفاخرة التى كانت تنتظر أسفل العمارة وجلست الى جانب السائق ٠٠٠ وفى الخلف جلس الصاغ ومعه جندى ٠

أما الثلاثة الباقون فقد ركبوا « بوكس » كان فى الانتظار ٠٠ وتحرك الركب سريعا ٠٠ وخيوط الصباح الاولى تبدو فى الافق عند سطح النيل القريب ٠٠ وعم مدبولى صاحب محل الخردوات فى العمارة يفتح دكانه ويدفع الباب الصاج بيده ، وباليد الاخرى يحاول أن يقول ٠٠ ربنا معاك ٠

- ٤ -

هذه ارادة الله ، فالله يقول لنا لتصبحو بشرا ، كفي تعلقا باطراف ثوبي كالاطفال الصغار ٠٠ انهضوا وتعلموا كيف تمشون ٠٠وحدكم تماما ٠

كازانتزاكس ـ الاخوة الاعداء

٢٨ مارس ١٩٥٩ ٠٠ صباحا ٠

كانت القاهرة قد بدأت تتثاءب وتتمطى استعدادا لليقظة ودارت بنا العربة الليموزين السوداء ووراءها البوكس الاغبر في اتجاه شارع الكورنيش فجاردن سيتي ثم مبنى المباحث العامة في لاظوغلي ٠٠ وأمام المبنى كانت هناك حركة غير عادية، عربات كثيرة تقف وأخرى تنطلق ومجموعات تخرج بحراسة وأخرى تدخل بحراسة أيضا ٠

وحينما كنت أرتقي السلالم العريضة للمبنى ، وأمامي الضابط ، وورائي الشاويش لمحت آخر يهبط وفي يديه قيد حديدي ، وتعثرت قدمه فجأة فسقط على الارض ، ثم قام بمساعدة الحارس ليفتش عن نظارته ٠

واندفعت نحوه اعطيه النظارة التي كانت قد قفزت الى جانبي ٠٠

ـ سلامتك يادكتور ٠٠٠ خير :

ونظر الى الدكتور لويس عوض استاذي في كلية الاداب وهز رأسه في صمت ، ثم مضى مع حارسه ٠

صعدنا الى الدور الاول ، وكان المبنى الصغير يشغي بالحركة والناس جنود وضباط ومخبرين ٠٠ معتقلين مثلي يحملون شنطهم ، وفي يد البعض القيد الحديدي ، والاخرين لم يستكملوا الاجراءات مثلي ٠٠٠ واكتشفت حقيقة أخرى هي ان الضابط الذي القى القبض على شخص هام في ذلك

المبنى،فالكل يحييه باحترام شديد بما فى ذلك الضباط وعرفت ان أحمد بك « كما ينادونه » هو رئيس قسم مكافحة الشيوعية فى المباحث العامة وانتابنى شىء من الغرور ... وكان الرجل والحق يقال يعرف عمله جيدا فهو متمرس وله خبره واسعة قديمة تمتد الى عهد الملك .. وربما كـان ذلك السـبب فى تصرفاته معى التى حاول ان تكون مهذبة قدر الامكان فى حين اننى سمعت بعد ذلك ان بعض الضباط الذين اشتركوا فى حملة الاعتقالات تلك الليله تسبب فى كثير من الاشتباكات نتيجة رعونتهم وصلفهم .

واستكملنا بعض الاجراءات الضرورية فيما يبدو ، من تصوير أمامي وجانبى وملأ بعض البيانات فى كارت أصفر .
ومضى كل شىء هادئا مع تغيير نسبى فى أسلوب أحمد بك الذى بدأت لهجته تتخذ طابع الاوامر الحازمة ...
وكان التعليق الوحيد الذى قاله وأنا أسلمه كارت البيانات :

ـ ياه .. انت صغير قوى ٢٣ سنة بس ... أنت طالب ؟؟
ـ لا ... تخرجت منذ ثلاث سنوات ..
وقال وهو ينظر الى ملف فى يده ... غريبة ... التقارير عنك تقول انك خطير ... ومسئول العمل السياسي فى منطقة بولاق ومسئول أيضا عن الهاربين من التنظيم بعد يناير .
وابتسم كلينا فى صمت ... وان كان مغزى الابتسامتين تختلف تماما ..

كنت ابتسم فى سخرية واعتزاز ... وكانت ابتسامته ترحى ببعض خيبة الامل لاتخلو من تقدير .. وضغط على زر بجواره وطلب ضابطا معينا ، حضر اليه فى دقائق وأسر اليه ببعض الكلمات ، ثم قال دون ان يرفع رأسه من المكتب :
ـ مع السلامه يا .. استاذ ..
وخرجت مع الضابط الشاب والشاويش .
كانت انوار الصباح تنمو وتنتشر الدور الداكن حتى

الشوارع والعمارات .. كما كانت الشوارع هذه المرة عامرة ببعض المارة وبحركة الترام ... وركبت البوكس في الخلف والى جوارى الشاويش وفى معصمى القيد الحديدى الذى أمر به الضابط الشاب ...

وانطلق البوكس مارا بميدان عابدين ثم ميدان العتبه وقفنا امام قسم الموسكي ... ونزل ثلاثتنا ، وسأل ضابط المباحث عن المأمور ، ولما لم يجده قال للضابط النوبتجى :

ــ خذ هذا عندك لحين الطلب .

وبرغم ان الضابط النوبتجى كان برتبة يوزباشى فى حين كان ضابط المباحث برتبة ملازم الا أن الاخير جلس على كرسى المأمور فى حين ظل ضابط القسم واقفا ، بل وكانت يديه ترتعد وهو يستوفى اجراءاته .

وأخذت كرسيا كان بجوارى ورميت بجسدى فوقه ، وقد احسست فجأة بتيارات المرض والاجهاد تنال من جسدى وصرخ ضابط المباحث :

ــ قوم يامسجون .. قوم ..

وتلفت حولى فلقد حسبت انه يامر انسانا آخر ..

وعاد يقول والشرر يتطاير من عينيه الضيقتين ويشير بعصاه صغيرة فى يده :

ــ أنت ... أنت .. ياولد أنت .. قوم .

ــ أنا لست ولد .. ولست مسجون .

ولم اقم .. !!

ومضت لحظات .. طويلة وممدودة ، وعينى فى عين ضابط المباحث ، وقد نسيت مرة أخرى المرض والارهاق فى حين كان ضابط القسم ينتقل ببصره بسرعه بيننا فى حيرة ، أما الجاويش فلقد وقف متحفزا بجوارى ويده اليسرى شبه ممدودة استعدادا للصفع أو الضرب .

ولم يكن هناك مخرج فيما يبدو ... وبدأت أعد نفسى لصدام كنت على استعداد له . وكان اليقين الذى غمرنى هو انى لن اخسر شيئا ، فماذا بعد القيود الحديدية ؟؟ .. ان كل شيء يتضاءل بعد ذلك ولا تنتظر من انسان يحب الحياة حقا

ان يتردد في الوصول الى آخر مدى طالما فقد حريته الغالية ..
كان هذا هو الشعور الذي يملكني وانعكس في نظرتي النابية على ضابط المباحث الذي أخذ يضرب بعصاه على المكتب في رتابة ووجهه يفيض بتيارات العنف والغضب (٠) وفتح الباب فجأة .. دخل مأمور القسم .. لم أكن اعرف

بالضبط ماذا سيحدث لو لم يدخل المأمور البدين ليملأ الغرفة بالضحكات والقفشات والترحيب ليس فقط بضابط المباحث .. بل بي أيضا ... شيء واحد كنت اعرفه هو أني على استعداد لان اذهب الى آخر مدى ..

وانتهت عملية التسليم وقبل ان يخرج ضابط المباحث رمقني بنظرة حاول ان يقول فيها اشياء كثيرة ، ثم قال :
— دا معتقل شيوعي خطير .. لابد من التحفظ عليه بشدة ويوضع وحده ياحضرة المأمور ... وخرج ومعه الجاويش وسمعه ان يغلق الباب بعنف .. وكأنما ارتاح الجميع من كابوس ثقيل ، وبان ذلك على وجه المأمور الضاحك الذي بدت حركة من يديه على المكتب تنم عن ذلك . وقال ضابط القسم بعد أن استرد انفاسه من الورطة التي وجد نفسه فيها بصوت مسموع :

احنا مالنا ومال المعتقلين يافندم .. هنوديه فين دلوقتي الحجز كله مليان .
وقال المأمور دون ان يفقد روحه الخفيفة .
— حجز النساء اخباره ايه ؟!!
— فيه اثنتين قدام وايراد جديد النهارده الفجر .
وأشار المأمور الى :
— حطه معاهم ..

ثم غمز بعينه وضحك بصوت عال ..
— ابسط ياعم ... حبسه حلوه ... ديك وثلاث برابر .
ودخلت الحجرة واغلق العسكري الباب بمفتاح غليظ ..
ووقفت اتأمل الغرفة المظلمة كان كل شيء معتما ساكنا ..
وكوة صغيرة في أعلى الجدار المقابل للباب يتسرب منها بعض ضوء النهار الوليد ويتبدد على الجدران الملوية دون ان يكون

له انعكاس فى الداخل وأيضا بعض صجة للشارع المجاور ٠ وأخذت انحسس بيدى الجدار المجاور للباب ولما لم أجد احدا وضعت شنطتى على الارض وجلست فوقها ومددت رجلى فى حذر ــ خوفا من ان تصتطدم بأحد ثم اسندت رأسى على الحائط واحسست ببعض الارتياح ٠٠ وبدأت التقط انفاسى ٠

كانت الساعات الخمس الماضية بكل احداثها وتوترانهـا تساوى حقبة زمنية كاملة عشتها باعصابى وبذهني وبمرضى لحظة بلحظة ٠٠ وأخذت تمر فى خيالى المنهك بسرعة وبتداخل غريب كأنما هناك أكثر من شريط سيمائى يعرض داخـــل رأسى فى وقت واحد ٠٠ الوجوه الغريبة التى تطل عـــلى سريرى ، صرخة اختى ، بكاء سامح الصغير ، وصوت عجلات الليموزين وهى تجرى على الكورنيش ٠٠ نظارة الدكتور لويس عوض على سلم مبنى المباحث ٠٠ القيد الحديدى ٠٠٠ بينما فى القرية ، شجرة التوت امامه ، وجه أخى الاكبر الذى مات منذ سنين ٠٠ أبى يرتدى بدلته وهو يتمم بايات القرآن ٠٠ أمى وهى تصر على أن اشرب الشاى باللبن فى الصـــباح ٠٠ خالى وهو يتوعدنى ان لم اكف عن شقاوتى الزائدة ، عم أحمد عجوز القرية وهو يحكى لنا قصص العفاريت والغيلان على المصطبة ٠

ورحت فى عـالم غـريب ٠٠٠ خليط من الحاضر والمـاضى لاهو باليقظة الكاملة ولا هو بالنوم الكامل كأنما نام نصفى وبقى نصف آخر يعى‌اته فى زنزانة مغلقة وسمعت صـــوتا انثويا يهمس قريبا منى ٠

ــ دا نام كتير قـوى ٠٠ الســـاعة بقت اتناشر ٠٠٠ ايه حكايته ؟؟

وقال صوت انثوى آخر :

ــ تلاقيه كان سكران طينه خدوه محضر تشرد ٠

ــ لا ياشيخه دامعاه شنطه ولابس بدله وباين عليـــه ابن ناس ٠

ــ صلى على أبو فاطمة ٠٠ هو فيه ابن ناس يترمى هنا !!

وفتحت عيناى ٠

كانت تفاصيل الزنزانة واضحة تماما ٠٠ وعلى مقربة مني فتاتان تجلسان باسترخاء حاولت احداهما ان تبتسم حين نظرت اليهما ، وهناك في الطرف الاخر وعلى مقربة مني أيضا اخرى متدثره في معطف يضع رأسها بين يدها ومستنده على شنطة ملابس كبيرة ويبدو انها غائبة عن المكان والزمان ٠٠ ثم جدران عالية صماء تكشف بقع الشمس التي تسربت خلال النافذة الضيقة من انها مصابة برطوبة مزمنة اسقطت اغلب الطلاء ٠

وأشعلت سيجارة ٠

وقالت احدى الفتاتين : اللي يشرب لوحده يشرق ٠

وقدمت لهما علبة السجائر وتناولت اصغرهن سيجارتين بلهفة شديدة وواشعلتهما على الفور ، ثم اعطت واحدة ازميلاتها وهي تخرج نفسا طويلا مصحوبا بزفرة حارة ٠

ـ ياه أربعة وعشرين ساعة مشربتش سجاير ٠٠ أنت جيت لنا من السما ٠٠٠

هكذا ارسلتني السماء لهذه الفتاة المحرومة والحلوة ايضا ٠٠ أليست مهمة تستحق ٠٠٠

واستطردت الصغيرة :

ـ أنا نرمين راقصة في الباريزيانا ، وسونيا زميلتي ، أحنا معروفين ومشهورين قوى وتوقفت لحظة ثم قالت :

ـ والله أقولك ٠٠ أنا اسمي الحقيقي نوال ودي سعديه مسكنا الاداب واحنا بنرقص في الباريزيانا ٠٠٠ آي والله ٠

وعادت لتتوقف ثم تستطرد :

ـ بالحق بالحق احنا بنشتغل في الصالة رحنا مع واحد زبون في شقته كبست الاداب وسبوه هوه وخدونا أحنا مع انه هو اللي غرر بينا ، واخرجت ضحكة نصف ساخرة ونصف ماجنة ثم استطردت ٠٠ مش عارفه البلد دي ماشيه ازاي ٠٠ ماهو يابيقى فيه غلط بامفيش غلط ٠٠ طيب يسيبوا الراجل وياخدوا الست ليه ٠٠ وأخذت نفسا اخر اعتصرت فيه السيجارة ٠٠ ثم التفتت الي فجأة :

ـ قولي ٠٠ انت ايه ومين وعلشان ٠٠ سايبني ادش من الصبح وأحكي لك على كل حاجه وأنت ساكت كما ابو الهول ٠٠ متكونش مخبر ؟؟

وفرضت الابتسامة نفسها على وجهى ٠٠

كانت الفتاة علباوية فعلا ٠٠ وخفيفة الدم أيضا ، ولم يكن من الصعب ان يستشف الانسان من وجهها المريح وعيونها المتألقة انها من هذا النوع المحب للحياة ٠
وأشارت زميلتها التي تميل الى البدانة :
ـ الله دا بيعرف يضحك !!!

واتسعت ابتسامتي وتحولت الى ضحكة لها صوت
قالت التي هي أميل الى البدانة والكبر ٠٠
ـ هجام ٠٠ نشال ٠٠ ولاتهريب مخدرات ٠
قاطعتها خفيفة الدم متالقة العينين :
ـ لا دا لازم من طبقتنا ٠٠ برمجى ٠٠ بتاع صـــــلات ولا شقق ولا ٠٠
وكنت لابد ان ادخـــل بسرعـــه : لا معتقل ٠٠ معتقل سياسى ٠٠
وسكتت خفيفة الدم ، وبان عـلى وجهها عدم الفهم او عدم التصديق ، أو الاثنين معا ٠٠
وقالت الاكبر بدانة وقد وجدت فرصة لتتفوق بها عـلى زميلتها ولو مرة :
ـ سياسى ٠٠

آه شفتهم فى الحبسه اللى فاتت ٠٠ ربنا يكفيـــا الشر دا احنا تهمتنا اخف ٠
قالت الاخرى وقد اكتشفت شيئا جديدا :
ـ يعنى ايه ٠٠

ـ السياسيين دول بيروحوا وراء الشمس ٠٠ دول اللى بقى حطين راسهم براس الحكومه ٠٠ ربنا يديم علينا بوليس الاداب دا نعمه ٠٠

ثم بدأت تحكي لها ذكرياتها القديمـــة عن المســـجونين السياسيين فى القناطر وسجن مصر ، وفى صوت تعمدت أن تخفضـــه لكى لايصـــل الى مسامعى ٠٠ بينما كنت أنا أغرق مرة أخرى فى بحر من ذكريات الامس ٠

وانتبهت على المفتاح الغليظ وهـــو يدوى فى الباب ، ثم صوت الجاويش :

ـ ثريا حبشى ... المعتقلة اللى جات الفجر فين ..

وجاء صوت السيدة التى كانت تجلس فى الجانب الآخر من الزنزانة

ـ ايوه ياشاويش ... فيه ايه .

ـ جهزى حـاجتك .. البوكس وصـــل ... خمس دقائق ..

ـ على فين ..

ـ يمكن القناطر ... الله اعلم ..

ثم التفت ناحية المتاتين وقال :

ـ الظاهر انتو هتشرفونا الليلة كمان .. حتى السـجن مسألش عنكوا وأعلق الزنزانة .

قلت بصوت عال :

ـ مدام ثريا .. روحه المهندس فوزى حبشى .

ـ ايوه .. مين حضرتك ؟؟

ـ صحفى بجريدة المساء ..

ـ اهلا .. فوزى كلمنى عنك كثير .

وتقدمت ناحيتها اسلم عليها بحرارة واساعدها فى لملمة حاجياتها .. ووجئت بان وجهها يكتس بسـتار من الحزن الكيف وعيناها زائغتان بشكل غير عادى ، نكاد نحس فيها انها غائبة عن المكان تماما فتكلفت بعض المرح وانا اقول :

ـ حبسه ونفوب يامدام .. ملقوش فوزى حدوكى ..

ـ أبدا حدونى وخدوا فوزى ... ياريت على قد كدا ..

قلت ممزعجا :

ـ والاولاد ؟؟

ـ ماهو دا اللى مجننى .. سبتهم الاتنين عند الجيران ..

واحسست بأن شيئا من الماضى السحيق يتفجر فى عقلى كنت اعرف أن المهندس فوزى حبشى لديه طفلين بين عام واربعة أعوام ... وقد كنت اتصور وأنا اهرب من صرخات اختى

وبكاء سامح الصغير ان هـــذا شيء فظيع ۰۰۰ ودارت رأسي بسرعة وأنا اتصور المهندس فوزى وزوجته باحدويهما الفجر ويتركان الطفلين يبكيان ويصرخان بين يدى الجيران ۰

ان الانسان احيانا يحتاج لان يعطل عمله ومشـــاعره لكى لاتنطلق منه مشاعر الذنب ۰

ولما لم يكن هناك وقت ليضيع ۰۰ فأخذت استمد كل قدراتى لكى أخفف عن الأم الملتاعة وأؤكد لها ان الطفلين يلعبان الآن مع حديهما بعد ان اتصل بها الجيران ۰۰ والفريق يبحث دائما عن قشة ۰ ولقد وجدت لثريا القشة التى حاولت ان تتعلق بها وعدت اؤكد :

ـ طبعا الجيران اتصلوا بماميك وخدت الاولاد معاها ۰۰۰ شىء مؤكد ۰۰

وشددت على يديها وهى تخرج فى أثر الجاويش الذى جاء يأخذها ۰ وقالت وقد عادت بعض الشيء الى نفسها

ـ لمـــا تشوف فوزى سلم لى عليه ۰۰ قالوا لى فى المباحث انه رايح القلعة ۰

ـ شدى حيلك انتى وادلشتنى على الاولاد ۰۰ وسلامى لاميمة أبو النصر يمكن تلاقيها فى القناطر ۰

وخرجت واخذت اتصور اميمة أبو النصر منذ اســـبوعين وهى تحتج لان طاهر عبد الحكيم تخيل ان السيدات يمكـــن ان تعتقل فى مصر ۰

هل يمكن ان تكون أميمة قد اعتقلت ؟

ولم لا ۰۰ وقد اعتقلوا ثريا ۰۰ أم الطفلين ۰۰ فحينما نفقد التعامل بالعقل ۰۰ يختلط كل شيء ويضيع ۰

تعودت أن اغنى لنفسى طــول حياتى ولست أدرى لم اتوقف الآن .. فاحســـــاسى بالحــياة يزداد .

يوليوس فوتشيك ــ تقرير من المقصلة

كانت كل ذكرياتى عن القلعة مجرد معلومات تاريخية غير دقيقة مع زيارة واحدة بصحبة والدى منذ سنوات .

فلقـــد كـــان من عــــادته اذا جاء لزيارتنا فى القاهـرة انه يصـطحبنى معه فى جولاته .. وكان يرسم لنفسه برنامجـــا دقيقا يحرص على تنفيذه ، هو أن يصـلى يوما فى الحسـين ، فاذا لم يسافر يصلى اليوم الاخر فى السـيدة زينب ، فاذا حدث ولم يسافر وهذه مرات قليلة يصـلى اليوم الثالث فى الازهر .. أما اذا جاء عليه اليوم الرابع فقـــد كان يطلع الى القلعة فى جامع محمد على ... وفى أحد هذه المرات النادرة اخذنى معه .. وتناقشنا يومها حول محمد على وصلاح الدين ويوسف بن يعقوب باعتبار كل منهم ارتبط تاريخه بالقلعة .

ولكن القلعة التى ذهبت لها هذه المرة كانت تختلف تماما رغم ان الطريق واحد

فلم يكن هنـــاك ذلك العطـــر التاريخى الذى يملأ عليك الحواس وأنت تمضى على الطريق الصغير المتعرج الموصل الى القلعة .. لم يكن هناك حتى الاحساس بانك فى الطريق الى جزء غال من ارض الوطـــن ، بل كان يغمرنى الاحســـاس ان البوكس يلتقط البعض منا من الاقسام المختلفة ثم يصعد بنا الى معتقل القلعـــة ، انني اذهب الى المعتقل الذى بناه الانجليز كأحد مظاهر سطوتهم وتسلطهم على شعبنا .

كان المعتقل الذي وصلت اليه منذ أيام بعد ان قضيت يوما في قسم الموسكي قد بدأت تكتظ زنازينه وعنابره بمئات المعتقلين . فالزنازين التي تصطف على الجانبين والتي كان من المقرر ان تتسع لفرد واحد وضع فيها اربعة وخمسة كما حشر في العنبر السفلي الذي يشبه البدروم والعنبر العلوي أكثر من مائة في كل عنبر .

وبالرغم من كل شيء فقد كانت القلعة بعد ليلة الاعتقال وليلة القسم تمثل على الاقل بالنسبة لي نوعا من الانفراجة ، فهناك العشرات من الاصدقاء والمعارف الذين يقاسمونك المصير . وهناك الفرصة لان تجلس وتحكي وتسمع من رفاق يعانون مثلما تعاني ويحلمون مثلما تحلم .. ولقد حاولت قيادة المعتقل من البداية أن نفرض نظاما صارما في اغلاق الزنازين والعنابر . ولكن ذلك لم يكن ممكنا اذ انه وفي الايام الاولى كان هناك تقريبا ايراد كل بضع ساعات وربما كل ساعة .

ومازلت اذكر الزميل صلاح عبد الصبور وهو يقف في العنبر العلوي يراقب باب الادارة عندما يفد مجموعة جديدة من المعتقلين ليصيح :

- اورد يا شعب .. منين يا زملاء ؟

ثم يصيح .. المنصورة وصلت .. طنطا شرفت . النيل يقترب .. أسيوط على الخط . . اسكندرية صيفت . وهكذا .

مئات المعتقلين جاءوا من كل شبر تقريبا من أرض مصر الطيبة من أسوان وقرى النوبة الى الاسكندرية ومطروح والعريش .. عمال وطلبة وموظفين وكتاب وصحفيين ومحامون واطباء .. فلاحون ومدرسون واساتذة جامعات ومهندسون وعمال زراعيون ، فنانون وضباط سابقون ومرفيون .

كانت الغالبية العظمى منهم قد اعتقلت ليلة ٢٧ مارس الشهيرة . وبعضهم التقط من عمله او من الشارع . ثم يردون على القلعة بعد ان شرف بعضهم الاقسام ليوم أو يومين حسب الظروف والتساهيل .

وكان وراء كل واحد قصة ، بعضهم وخاصة من وفد من الاقاليم تعرض لالوان من التعذيب الذى يتقـــــه عاده بعض ضباط وعساكر الاقسام ، وبعضهم حول عمليه القبض عليه الى مظاهره واسعه اشترك فيها ابناء الشارع وابناء الحى أو القرية ، وكان من اطرف ماسمعته من صديقي محمد حمام انه رآني فى العربة السوداء فجر « يوم الوعد » على الكورنيش فلم يذهب الى منزله واستطاع ان يهرب لمدة اسابيع ثم التقطته بعد ذلك عربة سوداء أخرى من ميدان محطة مصر بعــــد ان احتطفوه عـــلى طريقة جيمس بوند ٠٠ عاش المعتقلون الايام الاولى فى تلك القصص والحواديت المثيرة كما بدأت تتشكل تلقائيا مجموعات السوابق أى الذين شرفوا المعتقلات فى فترة سابقة ليشرفوا على استلام الاكل من المتعهد وليقوموا بتوزيعه اذ كانت خبرتهم السابقه تؤكد ان المتعهدين الذين يوردون الغذاء ، وخاصة للمعتقلين ، يقومون بعملية نهب واسعة على حساب جماعة يعرفون انه لاحول لها ولاقوة ٠

كما بدأت تتشكل وخاصة فى العنبر البدروم ســـهرات ثقافية وترفيهية وسياسية ٠

وسيظل المعتقلون يذكرون ولاشك الدكتور محمد الخفيف (الذى توفى سنة ١٩٧٢ ، بهبوط مفاجأ فى القلب) ، بخفة دمه وسرعة بديهته وقفشاته ونكاته ، وقد شكل مجموعـــة من سعيد الخيال (القاضى) . والدكتور سعد بهجت (الصيدلى) ومحمود السعدنى (الصحفى) وعدد اخر من الزملاء كانت تبعث الدفء والضحك فى قلوب المعتقلين طوال الليل ٠

هذا وبينما كان الدكتور عبد الرازق حسن (مدير البنك الصناعى) ، والدكتور فوزي منصـــور (الاســـتاذ بكلية الحقوق) ، ومعهم احيانا الدكتور لويس عوض ولطفى الخولى يعقدون مايشبه المنتدى الثقافي والسياسي يحضره عدد كبير من المعتقلين ، بالاضافة الى انه كان يستدعى كل ليلة بين عشرة وعشرين من المعتقلين لتجرى التحقيق معهم فى مبنى المباحث العامـــة ٠

وكان كل واحد منهم يعود بقصة تسمع ٠٠ بعضهم رفض

ان يحقق معه فى مبنى المباحث العامة ، وقد كنت واحدا من هؤلاء الذين طلبوا من وكيل النيابة ان يجرى التحقيق معى فى سراى النيابة ٠

والبعض اكتفى بالاحتجاج ، ثم قال رأيه كاملا فيما يحدث وفيما وجهت اليه من اسئلة ٠

وكان من الواضح وخاصة بعد الايام الاولى أن معتقل القلعة مجرد محطة تجمع ، ففى الاسبوع السابق لوصول دفعة مارس كما تسمى كان المعتقلون السابقون الذين القى القبض عليهم فى يناير قد رحلوا الى سجن الواحات الخارجة ٠٠ كما أصبح ضربا من المستحيل ان يستوعب معتقل القلعة تلك المئات التى ملأت زنازينه وعنابره والتى يفد بعض منها كل يوم تقريبا ٠٠٠ لهذا كله لم نفاجأ حينما جاء قائد المعتقل ذات مساء ومعه الحجلات « سلاسل طويلة يربط فيها مابين عشرين الى ثلاثين معتقلا » ، وبدأ ينادى حوال مائتى اسم كنت واحدا منهم ٠ وتجمعنا فى الممر الطويل بين الزنازين والزملاء الباقون يتطلعون الينا من فتحات العنابر وفى عيونهم كما فى عيوننا نفس التساؤل ٠٠ الى أين ؟

كانت الايام العشرة السابقة فى معتقل القلعة بما فيها من تجمع ولقاء واحداث قد شغلت الكثيرين منا عن حقيقة ما يدور وما يمكن ان يأتى ، بل ربما فى غمره الالتقاء مع الاصدقاء والرفاق نسى الكثيرون انهم بدخولهم القلعه قد خطوا خطوة اساسية نحو مستقبل مجهول ٠

وحينما أوغل ليل الشتاء وانتصف ونحن جلوس فى صفوف متراصة فى الممر بدأ صوت الحجلات برنينها المزعج يقطع الصمت الذى كان قد اطبق على الجميع ، والكل يتساءل الى ٠٠ الى اين ؟

واجتاحنى احساس عنيف بأنى مقبل على اخطر رحلة فى حياتى ٠

وجاء صوت رخيم ورصين وممتلىء من داخل الزنازين المظلمة أشبه بصوت بول رويسون المغنى الزنجى الامريكى ٠

كان صوت محمد حمام ٠

زعق الوابور على السفر .. أنا قلت رايحين فين .. رايحين تغيبوا سنه .. وللا نغيبوا اتنين ..

وبدأ الطابور الطويل يخرج من باب معتقل القلعة ليتلقفنا مجموعة أخرى من الضباط والعساكر . يحشرون كل مجموعة منا يربطها جنزير واحد في عربة من عربات السجون المغلقة وسط جو من الاوامر والصرخات والتي يفتعلها الضباط والعساكر .. ووقف قائد الترحيلة يلقى بأوامره الاخيرة بصوت عال :

ــ كله يسمع ... احنا رايحين معتقل الفيوم ... مش عاوزين صوت ولا ضجة .. أى محاولة للخروج على النظام هتقمع فورا ... عندى أوامر مشددة بضرب النار فى المليان .... خليكو عاقلين والترحيلة تمر على خير .

الترحيلة .... الفلاحون فى قريتنا يتجمعون فى ديسمبر س كل عام بجوار الترعة ينتظرون عربات المقاول التى تاتى دائما فى الفجر لتنقلهم الى بلاد الغربة لمدة شهرين وثلاثة ، يعملون فيها من الشمس للشمس فى ظل افسى انواع السخرة نظير قروش قليلة .. بعضهم كان يعود وبعضهم كان لايعود .. ويدفن هناك فى أرض الغربة وتظل ذكريات ترحيلة الشتوية بالنسبة لنا أطفال القرية ذكريات حزينة اليمة فيهـا الوداع والدموع والمجهول ... وهذه ترحيلة أخرى .. من نوع آخر وان كانت لاتختلف ، فطالما استمرت ترحيلة الشتوية للفلاحين فى قريتنا ستستمر ايضا ترحيلات الغربة لابنائهم ولن يحسون بفيض الالم والمعاناة الذى يعانيه فلاح مصر .

وزمجرت مونورات لوريات الترحيلة يتصدرها وتحفزها من الخلف بعض عربات السادة « المقاولون » .

وأحسست بلفحة من الهواء البارد النقى خلف أذنى واستدرت أودع القاهرة من فتحة كبوت العربة .
كانت القاهرة نائمة ساكنة، الشوارع خالية تغمرها الاضواء فى صمت وبائع متجول يجمع بقايا الخضر ويحملها على عربة كارو صغيرة ويرفع رأسه قليلا يتأمل هذ الطابور الطويل من

بسرة نصف نائمة .. وعند كوبرى عباس جماعة
اب تتسابق ربما بحثا عن الدفء ، وفى ميدان الجيزة
ين لم يذهبوا بعد الى بيوتهم واخرون ـ ربما بكروا فى
ن منازلهم .

ـت بعض الاصوات من داخل احدى العربات تغنى
خافت :

لادى .. بـلادى .. بـلادى .. لك حبى وفـؤادى
ـوت الخافت يعلو شيئا فشيئا رغم صرخات واوامر
مصر يا ام البلاد .. انت غايتى والمراد .

ـت الاغنية كل عربات الترحيلة ..... وانطلقت
قوية عالية .. تهزم برد الشتاء وتبدد صمت الليل
. وزادت العربات من سرعتها تسـلك طريق الفيوم
ى هربا بالترحيلة السرية .

- ٦ -

لنضحك في خفة لان الحرارة
لفحتنا ، لان البرد قرصنا لان
الجوع اصابنا لان العطش
يستبد بنا لنضحك حتى يكون
حديثنا سخيا سخاء القيل

بول ايلوار

ابريل — سبتمبر ١٩٥٩

واحد تمام ···

اثنين تمام ···

ثلاثة ·· اربعة ·· خمسة ·· ١٥ تمام ، اسطوانة مكررة نسمعها كل نصف ساعة في هذا المعتقل الغريب الذي بني اصلا ليكون معتقلا لأسرى الحرب في الحرب العالمية الثانية ·· ثم تحول الى معتقل لتجار المخدرات ·· وانتهى به المطاف ليضم اكثر من اربعمائة معتقل سياسي من الديمقراطيين والاشتراكيين والشيوعيين ·

ولست ادرى بالضبط من الذى بنى هذا المعتقل ، ولكن المؤكد ان مخططه كان قد زار او رأى على الاقل معتقلات أوشفيتز وبوخنوالد التى اقامها النازيون فى بولندا والمانيا مع اختلاف بسيط فى الحجم وعدم وجود غرف الغاز الشهيرة .

وتلك العنابر الممتدة بالعرض على الجانبين اربعة فى الجهة اليمنى ومثلهم فى الجهة اليسرى يفصلهم ترعة من الاسلاك الشائكة وتحيط به من كل ناحية سوران من الاسلاك الشائكة بينهما منطقة محرمة هى الى حد كبير شبيهة بالصورة التى رأيتها لمعتقلات النازيين فى احدى الكتب التى تروى بالصورة وبالحدث ماكان يجرى فى تلك المعتقلات ·

كان الجو الذى ووجهنا به من اللحظ الاولى فى معتقل العزب بالفيوم يختلف عن الجو الذى الفناه طيلة العشرة ايام الماضية فى القلعه ٠

توضع فى كل عنبر أربعون معتقلا فى البداية ثم نضخم بعد دروح دفعات جديدة من القلعة فى الايام التالية فاصبح فى كل عنبر بين ستين وسبعين معتقلا ٠

وكانت قوائم الممنوعات والمحظورات كثيرة ٠

ابتداء من الورقة والقلم التى تعد جرما كبيرا الى حرية التنقل داخل العنبر الواحد أو كما قالها الضابط البدين حمدى :

ــ كل واحد على سريره ٠

اى ان عليك داخل العنبر الواحد ان تجلس وتنام وتتحرك بحرية فى مساحه السرير فقط ٠ بل لقد وصل الامر بهـــذا الضابط المغرور الذى كان يتمختر فى ممرات المعتقل حاملا فى يده كرباجا ان يعتبر ان مجرد الهمس بين زميلين نائما على سريرين متجاورين مخالفة عقوبتها الجلد ٠

كان نصيبى فى عنبر (٢) وقد شهد ذلك موقعى حوى الحلقة التى ربطت فيها فى « الترحيله » ، ولقد كان عنبرا يعتبر تكوينه يحوى فى الوطن الكبير ٠

فالغالبيه العظمى من العمال من شبرا الخيمة وحلوان وكفر الدوار والاسكندريه من بينهم محمـــــود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار وعبد الغفار سلام وعبد الجواد القطان رئيس نقابة عمال النسيج ، ثم بعض الفلاحين من الشرقية والدقهلية والبحيرة والفيوم ثم مجموعة من المثقفين بينهم الدكتور فائق فريد عضو مجلس الامه عن شبرا وجزيرة بدران ٠ وعلى الشلقانى الكاتب الصحفى ، وجمال كامل الفنان التشكيلى وعادل ثابت العالم المعروف وعبد السلام مبارك الصحفى فى المساء والدكتور جميل حقى الصيدلى ، ثم عدد آخر من طلبة الجامعات ٠

ومضت الايام الاولى وقد اخذنا بالمفاجأة والجو الكئيب يسود المعتقل ٠ فكل عنبر يخرج « الفسحة » لمدة ثلث ساعة فى اليوم وعلينا ان نفرغ فى هذه الدقائق من قضاء الحاجة والاغتسال والمشى فى الحوش الضيق الذى يقع خلف العنابر ليصبح كل مرة أخرى ولمدة ٢٣ ساعة و ٤٠ دقيقـــــة الى العنبر ليصبح كل على سريره ، كل ذلك وسط جو من الهستيريا والذعر تشيعه

قائد المعتقل وضباطه ومعهم على وجه خاص الجاويش محمد غطاس أو حضرة الصول كما يناديه العسكر مصحوبا بنزوات متلاحقة من جانب ادارة المعتقل من شتائم مقذعة الى الاعتداء بالايدى على البعض .

ولابد وان الجميع قد احسوا بما احسست به حينما فتح عنبرنا فجأة في الايام الاولى وصوت غطاس ينبح بصوت عال « انتباه » ليدخل قائد المعتقل ووراءه الضابط حمدى وكرباجه يلعب من الخلف كذيل الكلب .

كان الشعور بالسخط خلال تلك الايام قد استبد بى وفى ذلك اليوم بالذات وخاصة وقد حدثت مشادة بينى وبين جاويش الفسحة حينما كنت امسح وجهى بالفوطة واصر على انى اعطى اشارات لزملائى فى العنابر الاخرى .

وتدخل الزملاء منعا لتدهور الموقف وسكت الجاويش بعد ان حصل على علبة سجائر وينجز ، ويبدو ان علبة السجاير لم تؤخر الصدام سوى ساعة بعد ان انتهت كل العنابر من طوابيرها (٠) وقفت امام سريرى مثلما طلب منا واخذ طابور العسكر يتمخطر فى هدوء بيننا داخل العنبر القائد فى المقدمة ووراءه الضابط حمدى ثم الجاويش غطاس ثم جاويش الفسحة .

كان القائد فيما هو واضح من رتبته وسنه الذى جاوز الخمسين أنه ترقى من تحت السلاح أى انه بدأ حياته « نفرا عاديا » وكان وجهه الجامد وعينيه الغائرتين يعكسان جمودا وغباءا شديدين .

وتوقف الركب أمام أحد الزملاء وساله القائد عن اسمه ومهنته فلما عرف انه عامل ازاحه بيده فى عنف موقعا اياه على السرير وفرقع حمدى بالسوط يلهبه على ظهره مرتين فى حين انطلق غطاس ينبح بسباب قذر .

وتملكنى شعور بالغيظ والحنق بينما كان القائد يقترب منى ثم توقف أمامى مباشرة بعد ان صاح جاويش الفسحة :

— هو دا يافندم ..

وابتسم القائد فى غباء وأخذ يتأملنى بنظرات بلهاء وهو يعبث بعصاه الصغيرة فى شعرى المنكوش ، بينما حمدى يفرد كرباجه .

ـ بتشتغل ايه :
ـ صحفي في جريدة المساء ..
ـ يعني جرنالجي .. مش كده ؟
ـ حاجه زي كده ..
ـ علشان كده كنت تبدي اشارات وتكتب على الهواء ..
ـ اكتب على الهواء .. !!
ـ طبعا أنا عارفكم كويس .. انتم شياطين .. تعملوا أي حاجـــة ..
ـ أنا كنت بامسح وجهي بالفوطة .. اللي بتقوله سيادتك دي أوهـــام ..
صرخ الضابط حمدي : أوهام يابن الـ ..
وكاد يهوي بسوطه ، ولكن يد القائد اسرعت وامسكته .
ـ بلاش دلوقتي ياحمدي .. هو هيحرم يعمل كده تاني .. مش كده .. ؟؟
وعلى قدر صرخة حمدي ، بل وأعلى من صرختة قلت :
ـ انا لم أفعل شيئا .. ثم ان اللي [illegible] .. [illegible] .. هكذا خرجت الكلمات دون أن أفكر فيها .
وسادت لحظات صمت طويلة لم يستطع حمدي [illegible] او يقوم بأي مبادرة بينما بدأت عيون العنبر [illegible] ملحوظ .. ورفع القائد يده مهددا .. وكانت تلك من لحظاته النادرة ، ثم قال موجها كلامه لكل العنبر .
ـ مش عاوز هيصه .. الاوامر لازم تمشي ، واللي هيخرج من النظام هنعرف نأدبه كويس . ثم انسحب ووراءه زبانيته .. واغلق الباب .
وصاح عبد الغفار سلام أحد الزملاء النقابيين في صوت [illegible] ان يكون مسموعا وخافتا في نفس الوقت :
فرصة .. كسحنا .. هو ده الشغل .
وشملت العنبر ضجة مرحة .. وانطلقت بعض [illegible] [illegible] كثيرون [illegible] على [illegible] زجل [illegible] عنبر [illegible] واخر على عنبر [illegible] وقد كنا بين الاثنين وأخذنا [illegible]

لهما عبر النوافد الحديدية ماجرى ، ولم يدخل العسكرى الواقف بين العنبرين كعادته فى مثل تلك الاحوال ٠

اسبوع كامل مضى ونحن نتلقى كل يوم ضربات مفاجئة والمعاملة تسوء وتمضى بوتيرة اسرع وكنا فى تلك الاثناء اشبه بمن دخل الحلبة فى الجولة الاولى وفوجىء بخصمه يكيل له الضربات على ان يكون مستعدا . والاتصالات ممنوعة ، بل ومحرمة بين عنبر وآخر وحتى فى داخل العنبر الواحد كانت عيون العساكر مسلطة علينا تحصى كل حركة ، حتى ان حمدى أبو كرباج أخرج زميلا خارج العنبر وانهال عليه باللكمات لانه تحرك من سريره وكان ماحدث فى عنبرنا فى ذلك اليوم أول لكمة توجهها الى الخصم لنثبت وجودنا على الحلبة ٠

والواقع ان العثرة التى قضيناها فى معتقل العزب فى الفيوم كانت كلها مباراة ملاكمة طويلة ، بيننا وبين الادارة ٠٠٠ اسبوع واحد فقط كانت اللكمات من طرف واحد ٠٠ ثم ظهرت بعد ذلك بدية كاملة من جانبنا ٠

الادارة بكل هيلمانها وسلطها وقسوتها توجه لنا لكمة هذا اليوم ونحن بعقولنا وبحبنا للحياة واصرارنا للدفاع عن القيم الجميلة حتى داخل الاسوار نوجه لها لكمة فى اليوم التالى ٠

هكذا سارت الامور طوال قرابة ستة شهور ٠٠

من ناحيتنا نجحنا فى تكسير جو الارهاب الكثيف المحيط بنا وامكن تنظيم شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها ٠ ومايجرى فى عنبر واحد أصبح يعرفه سكان عنبر ٨ فى نفس الليلة ، وبدأنا نتحرك ونفكر بعقل الجماعة ففرضنا حرية الحركة داخل العنابر كأمر واقع ، بل وبدانا ننظم الجلسات والندوات الثقافية والترفيهية ٠٠ هذا يحكى بعضا من القصص العالمية لهمنجواى وشولوخوف وايليا اهرنبرج وجميس جويس وجوركى وطه حسين ونجيب محفوظ ٠

وذاك يعرض مسرحيات لتوفيق الحكيم وشكسبير واسبورن وتشيكوف وسارتر واونيل وتنسى وليامز وبريخت ونعمان

عاشور والريحاني وآخر يعرض بعضا من الافلام .. ومجموعة نقوم بعرض كتب وافكار لسارتر وهيجل وماركس وفولتير دروسو ومحمد عبده والافغاني . وآخرون يتغنون بألحان سيد درويش وبول ردسون وعبد الوهاب وعبده الحامولي ونرانك سينانرا .

ورغم كل الحظر والاوامر تمكنا حتى من استحضار بعض الصحف والمجلات (•) على ان كل هذا كان يحدث خلال معارك متصلة . فالادارة لم تسكت عنا يوما واحدا ، ولم تسلم لنا بأى حق ... كانت تتغافل يوما أو يومين ثم تنزل بكل ثقلها فى اليوم الثالث لتجمع مندوبى المنابر مثلا لتقوم بجلدهم أمام مبنى الادارة ولتحاول ان تشيع جوا من الارهاب .... وفى مثل ذلك اليوم يصول ويجول غطاس ولايكف لسانه وذراعه عن العمل .

ونعود لنمسك بالمبادرة فى اليوم التالى فنمتنع عن تسلم الطعام أو نتباطأ فى الدخول الى العنبر بعد انتهاء مدة طابور الفسحة أو نرسل مندوبين اخرين لقائد المعتقل لينذره بتحمل المسئولية ، وبان يوما ما سيأتى ويدفع ثمن كل هذا .. فيعود ليعتذر وليقسم بشرفه ان شيئا من هذا لن يتكرر .. ولكن نسمة سرعان مايضيع بعد بضعة أيام . ولم يكن من الممكن أن نستمر لعبة القط والفأر بيننا وبين قيادة المعتقل ... جاء يوم كان لابد وان تحدث المعركة الفاصلة .

قبل ذلك بعدة ايام كان أحد الضباط قد عثر على بعض الاوراق مع أحد الزملاء . والورقة والقلم كانت بالنسبة لنا كبيرة الكبائر . فاستدعى المهندس فوزى حبشى الى الادارة وقامت مجموعة من العساكر ومعهم الضابط بضربه الزميل بالشوم ثم جلده على العروسة ولا ادرى لماذا سمى هذه الالة الرهيبة بذلك الاسم ، اللهم الا اذا كان ذلك لان المضروب يربط على الصليب فى حالة احتضان .

وبعد ذلك بيومين أخذت جماعة من الزملاء المرضى الذين كان من المفروض ان يذهبوا بهم الى مستشفى الفيوم القريب للكشف فضربوا أمام الادارة بالكرباج وجريد النخل .

وكان لابد ازاء هذا التصاعد في عدوان الادارة من التفكير في خطوة جديدة .. اكثر فاعليه واكثر خطورة .

وفي هذه الليلة دارت الاتصـــالات بين جميع العنابر ... وكان القرار .. وفى اليوم التالى رفضنا استلام الاكل .. وحين جاء قائد المعتقل ليرهب وليرغب قابلناه بهجوم شديد ، وقال له زميل عامل :

انت لست أهلا للحديث معك ... اننا سياسيون ولسنـا تجار مخدرات ، لذلك فنحن نريد مسئولين من القاهرة للتحدث اليهم ... وكان من الواضح انه قد اسقط في يد القائد الذى حاول ولمدة يوم كامل ان يحل المشكلة حتى لايظهر على الاقل أمام المسئولين انه عاجز عن قيادة المعتقل ..

وازاء اصرار الخمسمائة معتقل استنجد القائد فى اليوم التالى بوكيل المحافظة الذى جـــاء الى المعتقل بفرقة كاملـــة احاطت بالعنابر من كل ناحية .. ولمدة ساعة ظلت تمارس علينـــــا عمليات ارهاب نفسي محكم .. ضجة واصوات عالية واوامـر مشددة هنا . وعساكر تهرول هناك واصوات البنادق وتكـة الدبشك .. وبعض الطلقات المدوية فى الهواء .

ووكيل المحافظة وقائد المعتقل يتعمدان ان يصدرا أوامــــر تكون مسموعة لدينا .. اضربوهم بلا رحمة .. اللى يرفع رأسه اضربه فى المليان ... دول خونه .

ساعة كاملة ونحن قابعون فى عنابرنا المغلقة نوافذهاتسمع ونرصد كل حركةوكل صوت وتتقابل عيوننا فى حيرة ودهشة احيانا ، ولكن فى ثقة فى اغلب الاحيان .. كما قد اتخـــذنا قرارنا بالمواجهة الى اخر مدى .

وبدأ الماتش ..

اخرجوا عنبر واحد الى الحوش .. وأمام كـل معتقل وقف جندى شاهرا بندقيته ووضـــعت أوانى الاكل بين المعتقلين والجنود .

وصاح وكيل المحافظة الذى جاء ليجرب حظه معنا :

ـ عندى أوامر بضرب النار فى المليان .

وبحركة مسرحية قال : عسكرى استعد ٠
واخذ العساكر فعلا وضعهم ووضعوا اليد على الزناد ٠
وبحركة مسرحية أخرى قال :

ـ معتقلين ٠٠ كل واحد يتقدم خطوه ٠٠ ويأخذ اكله ٠
ولم يتقدم أحد ٠٠
وأعاد وكيل المحافظة أمره السابق بصراخ حاد :
ولكن أحدا لم يتقدم ٠٠
ـ دخلوهم العنبر ٠٠
وجاء الدور على عنبرنا ٠

ودخل الزملاءعنبر واحد وعلىوجوههم ابتسامة النصر والثقة
وتكررت نفس المسرحية ٠٠ وتكرر نفس الموقف ٠
وفى ضيق شديد صاح قائد المعتقل ٠٠
ـ اضرب ياعسكرى ٠
ولكن العساكر لم يضربوا وتطلعوا الى وكيل المحافظة ، ولقد كانوا كلهم من قوة المحافظة وليس من قوة المعتقل ٠

ولكن وكيل المحافظة أشار بان يخفضوا بنادقهم ٠٠ ثم اشار الى الزميل محمود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار قائلا :
ـ انت تعالى هنا ٠٠ قرب٠٠ مش عاوز تأخذ الاكل ليه ؟؟
وبدأ محمود يحكى فى ثبات عن التعسف الذى نلاقيه داخل المعتقل من القائد وضباطه والجلد المستمر الذى وصل الى حد جلد المرضى وسوء التغذية الذى نتعرض له ومنعنا من طوابير الشمس ومن الورقة والقلم والكتاب والصحيفة والراديو ٠

وتقدم الدكتور فايق فريد وتقدمت معه لنساعد محمود على شرح مشاكلنا ٠ كان وكيل المحافظة من ذلك النوع من الموظفين الذين يخلصون لمهنتهم ، ولا تشغلهم السياسة من قريب أو بعيد وبالتالى لم تكن لديه مصلحة خاصة فى تعقيد الامور ٠

كان موظفا يريد ان يقوم بمهمته بنجاح ٠٠ وكانت المهمة الملقاة على عاتقه مثلما أوضح هو ان نوقف التمرد ونأخذ الغذاء ٠

واستطعنا ان نشرح قضيتنا جيدا فنحن نعرف ان وكيل المحافظة ليس مسئولا عن اعتقالنا لكي نطالبه بالافراج عنـــا ، وركزنا مطلبنا في ان نعامل معاملة انسانية ، وان تقف جميع اساليب التعذيب من ضرب وجلد وأهانات ... وان تتاح الفرصـــة لان نكتب خطابات لذوينا ونتسلم خطاباتهم وان تفتح العنابر فترة أطول ويسمح لنا بقراءة الصحف والاستماع الى الراديو واستخدام المكتبة .

كما اضاف الدكتور فايق فريد موضوع التغذية .. وطالب زيادة مخصصاتنا في الغذاء حيث ان غذاء المعتقل كان يكلف ٦ مليما وهو مبلغ ضئيل لايمكن ان يفي باحتياجات طفل .. كما شكك الدكتور فايق في أمانة ادارة المعتقل والمتعهد .. فقطعة من الجبن القريش ومقادير ضئيلة من الفول وثلاثة ارغفة لايمكن ان تقيم أود أي انسان والا اذا كان المطلوب قتلنا بالجوع البطيء .

كان وكيل المحافظة يسمع الى شكوانا ووجهه يموج بمشاعر كثيرة متضـــاربة فالمطالب التى نضـــعها أمامه يتمتع بها أى مسجون عادي فى السجون سواء كان لصـــا أو قاتلا أو تاجر مخدرات ، وكان بين الحين والاخر ينظر الى قائد المعتقل ومعاونيه يريدمن أحدهم ان يكذب الوقائع التى نقدمها .

بينما كان قائد المعتقل والضابط حمدى ينفثان الغيظ والشرر من عيونهما فى صمت .

اما غطاس فلقد وقف وهو يتوعدنا بحركات من يديه ووجهه .. وحينما اثرنا قضية الغذاء وتواطؤ المتعهد مع الادارة تسلل غطاس متجها نحو مبنى الادارة .

وكسبنا المباراة .. أو على الاقل هـــكذا بدت الامور من السطح ... فنقل الضابط حمدى والجاويش غطاس من المعتقل، واوقف الضرب والجلد .

وجاء متعهد آخر كما سمح لنا باستلام خطـــابات ، بل وطرود اغذية وادوية من ذوينا ، أما المطالب الاخرى فقد حصلنا على جزء كبير منها بالممارسة .

ويبدو انه فى نفس اليوم الذى حققنا فيه انتصارنا فى محتفل العزب بالفيوم وانهاء سياسة التعذيب والتجويع ٠٠ كان هناك قرار اخر فى القاهرة قد اتخذ بعد ان ثبت ان تجربة الفيوم لم تنجح ٠٠ ففى الاسبوع الاول من شهر يونيو أخذوا اربعين زميلا ورحلوهم الى سجن الواحات الخارجة ٠

تسلمت أول خطاب من والدى بعد اربعة شهور وبالرغم من انني قرأت الخطاب فور تسلمه مرة وثلاث الا انني عدت اليه فى المساء اقرأه على مهل تحت اضواء العنبر الشاحبة ٠

كان الخطاب مليئا بعبارات موحية ففيه يقول والدى :
« لقد امسكت بالقلم وقبضت عليه لكى يكتب ما أمليه عليه ولكنه رفض فى اصرار كأنما يقول لى كيف أكتب وأنت تمسك بخناقى » ٠
وفى فقرة اخرى يقول الخطاب ٠

«بالرغم من انك ابنى الاصغر الا انك كنت دائما حكيما عاقلا تحب الخير للناس قبل ان تحبه لنفسك » ، ثم يضيف « ليس عندى سوى ماقاله رسول الله (والله ما اقلت الغبراء ولا اظلت الخضراء من رجل اصدق من أبى ذر) ٠٠ » ٠

واحسست بمشاعر الطفل الصغير ازاء والده وملأ وجهه الحبيب دمعة ترقرقت فى عينى واجتاحنى احساس غريب فى تلك الليلة اننا نلتقى فعلا ، وانه يشد على يدى ويحدثنى الى لى مرة اخرى عن عمر بن الخطاب وعلى بن ابى طالب وعمر بن عبد العزيز وابو ذر الغفارى ، ثم ضحكاته العالية والصافية وهو يقول : «هل تعرف ان اباذر كان له أخ اسمه انيس مثلك مرة اخرى أتصور اباذر الغفارى كما تصورته دائما بوجهه الاسمر وعينيه اللامعتين بالحب ومعاوية ابن ابى سفيان وقد اصبح خليفة للمسلمين بعد ان اغتال تعاليم الاسلام وهو يصرخ :
ـ ياأبى ذر لقد اشتكى الاغنياء منك وقالوا انك تؤلب عليهم الفقراء ٠
ويقول ابو ذر :

ـ انى انهاهم عن الكنز لقوله تعالى (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) .

ـ انها نزلت في أهل الكتاب ياأبا ذر .

ـ بل نزلت فينا وفيهم .

ـ انى آمير للمؤمنين آمرك ان تكف .

ـ والله لاستمر على دعوة الناس ولابشرن الكانزين بعذاب النار ..

ـ خير لك ان تنتهى عما أنت فيه .

فيقول ابو ذر فى ثقة المؤمن بالحياة والناس والخير :

والله لا انتهى حتى توزع الاموال على النــاس كافة

ويرخ معاوية مهددا :

أبا ذر .. هذا فراق بينى وبينك .. جاذروالا .

يردد ابا ذر بصوته اعلا :

ـ والله لا انتهى حتى توزع الاموال عــلى الناس كافة ..

والله لاانتهى حتى توزع الاموال على الناس كافــة .. ويخيم [illegible] والهدوء والليل على المعتقل . فلقد كانت ليلة استلام [illegible]ات،وعاش كل منا حياةخارج الاسوار من خلال خطاب أبيه [illegible] او زوجة أو حبيبة أو ابن لاول مرة منذ شهور .. كنت [illegible] لاتأمل الزملاء وقد رقدوا فى أوضاع مختلفة بعضهم [illegible] على حافة السرير مغمضا عينيه والبعض الاخر جلس [illegible] ساهما يعبث بشــــعره ، وارتدى عادل ثابت بيجاما جديدة [illegible] شــــعره وجلس حالما وفى يده خطاب زوجته .. و[illegible] رقت عينا الدكتور جميل حقى بالدموع وهو يمســـك [illegible] امه اما عبد الســـــــلام مبارك فقد اخذ يجوب الممر الفاصل بين الاسرة واضعا يده خلف ظهره بعد ان تســـلم خطابا من زوجته المعتقلة فى القناطر ..

وادركت ان الجميع مثلى يعيشون فى جزر الاحلام الخاصــة التى بدأت تحضر فى احلامهم بعد ان تسلموا الخطابات .

وفى هدوء الليل انساب نفس الصــــوت الثوى الرصين نبرته التى تحمل الحزن والالم الخصب :

يا لل انتى بينى وبينك سور .

بكره العيون هتشوف النور ٠٠
بكره يا روحى الهنا
هيفيض على الدنيا
وقبل متفوت سنه
هنعيش فى حريه

كان الصوت قادما من احد العنابر التى عاشت كلها ليلة خارج الاسوار ٠٠ ويبدوا ان العسكر قد ادركو هذا فكفوا ليلتها عن نداءاتهم بالتمام ٠

كان لليلة سحر وطعم خاص ،ولاول مرة افكر فى الفيوم الاخرى تلك الواحة التى انتزعها اجدادنا من بين الصحراء وزرعوا فيها الحياة والدفء ٠ ونسيت المعتقل والاسوار واخذت اجوب واحه بلادى الكبير وما احمله لها من ذكريات ٠٠ عين السلين وكوم اوشيم والسواقى السبع التى اختارها المغنى الشعبى العظيم والمجهول ليبثها شكواه وآلامه فهى بكل مائها تنعى وناره لاتنطفىء ٠٠ ويا لها من نار عظيمة خالدة تلك التى لا تنطفىء ابدا بل تظل مشتعلة تبعث الدفء والنور فى القلوب حتى ولو كانت داخل اسوار شائكة وامسكت بالقلم اكتب خطابا لوالدى ٠٠
وكتبت كلمات ناظم حكمت :
ابى ٠٠

أن أجمل الايام هى تلك التى لم نعيشها بعد وأجمل الاحلام هى تلك التى لم نحققها بعد ولو كنت أعرف ما سيأتى لكتبت له ٠
واقسى الآلام هى تلك التى لم نعانيها بعد ٠

- ٧ -

قفوا ساكتين . كغابة من
الناس كثيفة خرساء بأذرع
مكتوفة ونظرات قوية كأنها
السلاح فى حرب لم تنلها
هزيمة

(شيل - قصائد المقاومة)

سبتمبر ١٩٥٩ .

الترحيله مره اخرى ...

والقمر هو نفس القمر الهادىء الساكن الذى يجوب سماء مصر الصافية يغرق الوادى فى بحر من النور الصامت تتضاءل الى جانبها تلك اللمبات الكهربائية الشاحبة التى تتناثر على رصيف محطة المواصلة .. جنوب سوهاج .. ومادام هناك قمر ومادامت الرياح الخفيفة المنعشة تحمل الى الانف عطر المزارع والارض الطيبة المحيطة والممتده على مراى البصر تتلاشى الحجلة وبتضاءل القيد الذى يمسك بمعصم اليد ويهون كل شىء ..

هكذا رقدنا على رصيف محطة المواصلة بعد رحلة دامت خمسة عشر ساعة من الفيوم الى محطة بنى سويف بالعربات ثم من بنى سويف الى المواصلة فى عربه مغلقة فى اخر القطار مخصصة لنقل الحيوانات - مرورا بالمنيا واسيوط وقنا رسوهاج ..

كان من الواضح فى الايام الاخيره لنا فى معتقل الغربه بالفيوم انهم بصدد تصفية المعتقل بعد ان فشلوا فى تحويله الى مكان للارهاب والتعذيب .. وان كانوا قد احتفظوا به يتحول بعد ذلك الى معتقل (تصفيه) .. اى لمن يرغبون انه

يخرجوا بالثمن الذى يفرض عليهم ‥ وكنا نحن الدفعة الثانية التى ترحل الى الواحات بعد دفعة يونيو ‥ وقد اختاروا فى هذه المرة أربعين ممن تصوروا انهم قيادة المعتقل وضمت الدفعة مندوبى العابر ومجموعة من الشخصيات والكتاب والفنانين المعروفين من بينهم الدكتور فايق فريد والدكتور حسين كمال الدين وعلى الشلقانى والدكتور فوزى منصور واديب ديمترى وفيليب جلاب وشوقى عبد الحكيم وابراهيم عامر ومحمود عطا الله ومحمد صدقى وفخرى لبيب وفتحى خليل ولطف الله سليمان وفاروق ثابت ومحسن الخياط وعبد الله كامل ومحمود السعدنى واسعد حليم ٠

والمواصلة بلدة صغيرة فى اعماق الصعيد تقع بعد سوهاج بعشرات الكيلو مترات حيث يضيق الوادى بشكل محسوس فلا تمتد الخضرة على الجانبين لاكثر من بضع كيلو مترات ثم تبدأ هضبات الصحراء الشرقية من ناحية والبحر اللامتناهى من رمال الصحراء الغربية من ناحية اخرى (٠) ودخلت القرية التاريخ المصرى من اوسع الابواب ٠ فطوال الخمسين عاما الماضية كان المواطنون المتمردون الفارون من وجهة نظر السلطة يأتون الى هذه القرية بقطار الصعيد لينتظروا قطارا اخر من نوع قطار الدلتا الصغير لينقلهم الى اعماق الصحراء ‥ الى الواحات الخارجة والداخلة ‥ على بعد اكثر من مائتى كيلو مترا ٠

ولقد عرف هذا الطريق كل من احب مصر وخرج معارضا للسلطة دفاعا عن عقائده ٠ منذ حكم الرومان حين هرب المسيحيون الاوائل بدينهم الى الواحات بعيدا عن طغيان دقلديانوس ثم كانت المنفى الرسمى لسلطة الرأى والانجليز وقد قبل ان انصار سعد زغلول نفوا هناك الفترة ‥ وفى ايام اسماعيل صدقى ومحمود محمود نفى اليها اعداد كبيرة من الشباب والموظفين وكان النفى ياخذ شكل تاشيرة بالنقل الى الواحات ، وربما كانت المرة الاولى التى ذهب اليها معتقلون بشكل رسمى فى عام ١٩٤٧ حين نفى الى هنا عدد من ضباط وصولات سلاح الطيران منهم سيد سليمان رفاعى

وفؤاد حبشي ويوسف مصطفى الذين اتهموا بالشيوعية ٠٠ ومنذ هذا التاريخ طابت الفكره للمسئولين لكى يلقوا فى غياهب صحراء الواحات بخصومهم السياسيين بعد ان كانت جبل الطور هى المكان المختار لهذا الهدف ٠

كان الافق الشرقى الغارق فى أعماق الصحراء قد بدا يحترق مبشرا بظهور الشمس الوليدة وقد نام بعضنا سندا راسه على ظهر اقرب زميل له فى الحجله بينما كنت احس بيقظه شديد ربما لانى سرقت بعض الساعات نمت فيها فى القطار وربما للاحساس الذى اجتاحنى وجعلنى التهم بنهم شديد كل أراه حولى فى تلك البقعة النائية من صعيد مصر التى لم تطاها قدمى من فبل(٠)كانت القطارات السريعة المتجهة الى اسوان والاقصر والعائده منها تتوقف قليلا عند المحطة واستغرق مع الركاب وانفعالاتهم حين تصطدم انظارهم بالترحيلة ٠٠ البعض يتهامس ويشير الينا والبعض الآخر يكتفى بالنظرة الجامدة ٠ وطفلة صغيرة ترمى الى بكعكة فى يدها ٠٠ تماما مثلما كنت افعل مع الاسود أو القرود فى حديقة الحيوانات ٠ وقال احمد شوقى عبد الحكيم زميلى فى الحجلة وهو يلاحق بنظراته قطارا كان يغادر المحطة والضربات المتلاحقه للعجل ترن على القضيب ٠

- ياه ٠٠ تعرف كان ممكن كلهم يموتوا تحت العجل ٠
- مين ٠
- دفعة يونيو ٠

واخذنا نتخيل الصوره كما سمعناها على ارض المعركة كانت الدفعة التى سبقتنا فى يونيو الماضى قد تعرضت لمأساة كادت ان تتحول لتراجيديا جماعيه ٠٠ فحين وصلوا محطة المواصلة وبدأت اجراءات الزالهم من العربة بدأ القطار يتحرك (٠)كانت هناك مجموعة كبيره مازالت داخل العربة فى حين كان هناك بعض الزملاء قد نزلوا على الرصيف ويربطالجميع سلسلة واحده ٠

وزادت سرعة القطار والذين فى داخل العربة يتشبثون

بمواقعهم فى حين كان الزملاء الاخرون يجر جرهم القطار على الرصيف ثم على الفلنكات .. واخذت اتصور عبد الستار الطويلة والدكتور رزق عبد المسيح وعزب شطا وغيرهم والقطار بسحبهم وهم يصطدمون بالزلط وخشب الفلنكات وبين لحظة واخرى يتوقعون ان تشدهم عجلات القطار لتطحنهم جميعا ومعهم الزملاء الذين كانوا داخل العربة .

لحظات قاسية سواء كانت دقيقتين حسب الرواية التى وصلتنا او خمس دقائق حسب الرواية الاخرى .

ولقد قال لى عبد لستار الطويلة بعد ذلك وقد كان اقرب المجموعة الى العجله ..

كانت راس تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلةالقطار كان مصيرى ومصير الاربعين الاخرين الذى يرتبطون بالسلسلة الواحدهيتوقف على مدىقدرتى فى الابتعاد عن عجلة الموت.. كنت قد سمعت ورايت فى الافلام عن انواع التعذيب فى القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح الى ذيل حصان جامح أو عربة تجرها مجموعة من الخيول .. ولكن فى هذه المرة كل قطارا جامحا .. صورة كلما تخيلتها حتى هذه اللحظة اغمضت عيناى ورعده شاملة تجتاح كل جسدى ..

ولقد تدخلت الصدفة تماما مثلما يحدث فى الافلام المصرية لكى لانمضى المأساه الى النهاية فقد تنبه خفير فى المزارع المجاورة لما يحدث واطلق عدة اعيرة نارية مرت جوار السائق جعلته ينظر الى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار ..

واخيرا جاء القطار الصغير ...

وملأنا عربيتين بينما ربض الحراس فى العربة الخلفية وتحركنا صوب الشرق .. كانت الشمس قد بدأت تنخفض عنها كل اثار المخدر والغلالات الحمراء وغمرت المكان باشعتها الدافئه ثم الساخنه .. بينما كان القطار هو الاخر وبعد بضعة كيلو مترات قدخلف وراءه الوادىالاخضر ويدخل وسط كثبان ممتدة من الرمال وبعد اقل من نصف ساعة كنا قد

غرقنا تماما فى بحر من الرمال ، والهضاب والقطار بمن فيه هو المظهر الوحيد للحياة والحركة ٠

كانت كل خبرتى السابقه بالصحراء هى طريق القاهـــرة الاسكندرية الصحراوى وطريق القاهرة الفيـــوم ، ثم بعض المعلومات الجغرافية ٠٠ وبعض الصـــور ، ولكن ذلك كله شيء والاحساس بالصحراء الذى احتاجنى ونحن نوغل ســـاعات طوال في اعماق الرمال شيء اخر ، ان القضية ليست مجرد امتداد اللون الاصفر الداكن على مدى البصر والاحســـــاس بالوحشه والخوف ٠٠

انها احساس اخر تماما ربما توصل اليه بعد دراســـات مطوله اساتذه التعذيب ٠٠ الاحساس بانك تفارق الحيــــاه فعلا ٠٠ وفى كلمة انه الاحساس بالعدم ٠
وقد شغلنى فى الساعات الاولى الرؤياء الجديد ، فأخـــذت اتطلع من نافذه القطار واسرح بخيـــالى فى تلك التكوينات الغريبة للرمال الصخور الداكنه ٠٠ وبينما كانت الشـــمس تستبد اكثر واكثر بذلك الخـــلاء الموحش بدأت اتخيل على مرمى البصر اشباح غزلان تجرى أوذئاب نفر مذعورة من صوت القطار ٠٠ ولعلى كنت اتشبث بوهم انه لابد وان تكون هنـــاك حياه ٠٠ ولكن ساعات اخري بعد ذلك اخرست حتى اوهامى واجتاحنى ذلك الاحساس القاتل ٠٠ وهو فقدان الاحساس بالحياة ٠٠ وبدأت استعيد كل الصور التى كنت اقرأها عـــن الصـــحراء كمجـــرد تعبير وتركيبات لغـــوية ٠٠ ت ٠ س البيوت شاعر اليأس والارض الخراب .وهو يختار الصحراء نموذجا للافلاس والموت العدم (تعالى لترى الموت في قبضه من الرمال) ٠٠ ولا ادرى لماذا اجريت فى ذهنى مقارنة غريبة ٠٠ كنت اتصور نفسي فيها وحيدا اصارع امواج بحر مترامى ولاشيء سوى مياه زرقاء ممتده ٠

ومره اتصور نفسي فى غابة كثيفة مليئه بالوحوش العظيمه والوحوش الحقيرة أقفز بين الاشجار هربا ممن يعتبرلى قوته وبحثا عمن اعتبره قوتى ٠

ثم اعيد نظره اخرى للرمال الممتده فأوقن ان حياة البحر رغم امواجه المتلاطمه وحياة الادغال رغم المخاطر المتعدده اقل قسوة بكثير من أن يتوه الانسان فى الصحراء ٠٠ على الاقل

هناك حركة وحياة يمكن ان تستمد منها بعض الامل ، ولكن الرمال جرداء قاحله تهرب منها كل مظاهر الحياه ٠

سبع ساعات والقطار اللاهث يدب على قضبانه الضيقه بلا انقطاع ٠٠ وزحفت صفره الرمال على وجوه الرفاق وكفت السنتهم عن الحركة وكانت عيونهم تقول كل شيء ٠٠

كانت علامات الطريق المثبت فوقها ارقام الكيلو مترات تجرى فى اتجاه مضاد ومساو لسرعة القطار ، كل علامة تقفز تطوى معها صفحات كتاب الحياة فيما قبل سبتمبر سنة ١٩٥٩ ٠

مائتي كيلو متر مائتين وعشرين و مائتين وثلاثين ،مائتين وخمسين ثم على مرمى البصر سورا ابيض غريبا ولامعا وسطا الاصفرار الداكن المحيط ويعلو السور كلما اقتربنا منه وتتضح ملامح المبانى الداخليه ويشير أحمد طه : ـ أخيرا وصلنا ٠٠ هذا هو سجن المجاريق ٠

كان أحمد طه الوحيد بيننا الذى يعرف المكان قد غادر هذا المكان منذ ثلاثة شهور فقط بعد ان انهى فترة العقوبة التي اصدرتها ضده محكمة عسكرية ١٩٥٤ حيث كان من ابرز القادة العماليين الذين سعوا الى تنظيم وتكوين اتحاد عمال قومى يكون معبرا عن الطبقة العاملة المصرية ولقد كان احمد طه يستلهم فى ذلك تراث اخيه عبد القاد طه الضابط الاسمر الذى اغتاله الملك فاروق في اوائل الخمسينيات بعد ان بدأ مثله مثل كثيرين من الضباط الشبان يكشفون فضائح النظام الملكى والمأساة التي عاشها الضباط والجنود فى حرب فلسطين نتيجة خيانة النظام والاتجار بالاسلحة الفاسدة :
كان احمد مثل اخيه شرسا عنيدا فى الدفاع عن الطبقه العاملة المصرية وكان وهو موظف صغير فى شركة ماركونى

يكون اللجـــــان النقابية ويذهب الى النمسا ممثلا للعمـــال المصريين فى المؤتمر العالمى للنقابات العماليه ..
وحينما القى القبض عليه سنة ١٩٥٤ دافع عن العمال المصريين وعن حقهم فى تنظيم انفسهم بعيدا عن تدخل السلطات وهاجم ذوى الياقات البيضاء من النقابيين الصفر الذين باعوا مصلحة الطبقة العـاملة مقـابل بعض الميزات الخاصة الصـغيرة التى اغدقها عليهم البوليس السياسى .
وبالرغم من أنه كان قد اتم السـنوات التى حكم عليـه بها وافرج عنه فى يناير ١٩٥٩ الا ان ذلك لم يمنعهم مـن اعتقاله فى ٢٨ مارس هو وزوجته فقد كانوا يعرفون انه ليس من النوع الذى يسلم السلاح .

★★★

واقتربنا من بوابة السجن الغريب الموحش وسط صفين من العساكر يقفون فى حالة استعداد بينما كل منا يحمـل حاجياته وشنطه وأقدامنا تغوص فى الرمل الذى لم نتعود عليه ..

كانت الشمس الشـديدة طوال النهار قد بدأت تشـحب وتصفر اشعتها وهى تكاد تغرق من خلفنا وسط الرمال ..
ونحن ندخل كالاشباح الأسطوريه الزنازين التى اعدت لنا بالابراش والبطاطين .
وجلست على البرش متعبا مرهقا بعد رحلة دامت اكثر من ٢٤ ساعة واحساس بالوحشة يملوء اعماقى بينما كان زميلى محسن الخياط على البرش المجاور مسند رأســـه على جدار الزنزانة يتمتم فى صوت نصف مسموع كلمات بول ايلوار الشاعر الفرنسى الذى أعدته النازيون .

على الغابه ، على الصحراء
على صدى طفولتى
على كل الصفحات البيضاء
حجارة كانت أو دما
ورقة أورمادا

اكتب اسمك .
على بركة الشمس الاسنه
على بحيرة القمر المتألق
على كل لهفة فجر
على الجبال الرعناء
على مزلاج بابى
على جباة رفاقى
على ملاجىء الخربه
على جدران صخرى
وحتى فوق الصمت
اكتب اسمك .
على عتاب بلا رغبه
على عزله عاريه
على مخاطرة خفيه
على امل بلا ذكرى
على خطوات الموت
اكتب اسمك .
وبقوه الكلمة .. ابدأ حياتى ثانيه
لقد ولدت لاعرفك ... ولاحبك
ولاسميك .. أيتها الحـرية .

- ٨ -

ومن بين القضبان ٠٠ وفى
عتمة الليل وبالرغم من الجدران
الثقيلة الجاثمه على صدرى ٠
فأن قلبى ينبض مع ابعد
نجم فى السماء ٠

(ناظم حكمت)

اكتوبر ١٩٥٩

المحاريق ٠٠٠

ياله من اسم يعبر تماما عن تلك البقعه الجرداء الموحشة ٠٠٠ وأى محاريق اكثر من أن تقبع فى زنزانة خلفها حراس ثم اكثر من مائتى كيلو متر من محيط اصفر يفصلك عن ماء النيل وخضرة واديه ٠٠٠

وبغض النظر عن بعض الحكايات التى ترجع الى وقائع تاريخية او الى روايات اسطورية فأن المكان كان « محرقة » بحق ٠٠٠ يقولون ان الاسم يرجع الى العصر الميلادى الاول حينما كان يتعرض المسيحيون الاوائل لعسف واضطهاد الحكام الرومانيين ٠٠ وأن جماعة من هؤلاء قد هربوابمبادئهم الى تلك البقعة والقى القبض عليهم فاجرقوا فى أحد الاخاديد ٠٠ ومازالت هناك بالفعل ، وعلى بعد بضعة كيلو مترات من السجن بعض المقابر والشواهد التى يزورها المسيحيون من حين لآخر ٠٠

والبعض يقولون انالتسمية تعود الى شدةوقسوة الشمس واشعتها فى تلك المنطقة حتى انها تحول كل شىء الىلونداكن أو فاحم ، وبالفعل فأن كل شىء هناك فى حالة شبه أحتراق ٠٠ الرمال ليست صفراء بذلك اللون الكهرمانى المعروف بل

يشوبها رمادية خفيفة وبعض اشجار النخيل والزيتون والخروع المتفرقة هنا وهناك سوداء اللون ضعيفة البنية كالحة ..

حتى الانسان .. وقد رأينا بعضهم ونحن فى طريقنا الى السجن ، من النوع القزمى النحيف الذى يخالط شحوب وجهه سمرة داكنه ، وتحس لدى رؤياهم بأنك امام نماذج متحفية وتاريخية انعزلت عن التطور البشرى ووقفت كجنس منفرد تحيطه الصحراء الشرسة من كل ناحية تفرض عليه الانعزال والضمور ..

ولقد فسر بعض زملائنا الاطباء هذه الظاهرة بأنه نتيجة للنقص فى مركبات الكالسيوم والفوسفور المفقودة فى ذلك المكان بالاضافة الى انعدام الاختلاط والتجانس ..

ولقد اكد لنا هذه الحقيقة رؤيتنا فى اليوم التالى لوصولنا لزملاء لنا كانوايقضون فترة سجنهم فى ذلك المكان بعضهم مضى عليه اكثر من خمس سنوات .. كان معظمهم من الاسماء التى سمعت عنها كثيرا عندما كنت طالبا فى الجامعة ثم اسمع بين الحين واخر أنه قد القى القبض على البعض وانه صدرت بحقهم احكام بالسجن تتراوح بين ٣ سنوات وعشرة سنوات ..

كانت البدل الزرقاء التى يلبسونها ووجوههم الشاحبة وعيونهم الغائرة قد اوحت لى من اللحظة الاولى لرؤياهم اننى امام اشباح هاملتية تعيش فى تلك الصحراء لتعذب ضمير مصر كلها .

كان منهم صلاح حافظ الكاتب الشاب فى روز اليوسف والذى طالما كنت أحس برنة الفرحة والتفاؤل وانا اقرأ كتاباته .

وكان منهم مصطفى طيبة ومجدى فهمى العاملان اللذان القى القبض عليهما قبل سنة ١٩٥٢ ، ومحمد شطا احد قادة

العمال في شبرا الخمية ، وحمدي عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم الطلاب في الجامعة المصرية في اوائل الخمسينات والذين حوكموا لانهم عملوا على تنظيم الفلاحين وتوعينهم ضد الاقطاع وجبروته .

وزكي مراد ومحمد خليل قاس المثقفان النوبيان اللذان حاولا ايقاظ ابناء جلدتهم من سبات الجهل والتخلف المفروض عليهم .

وداودد عزيز ووليام الملك ، اثنان من اشهر واصدق الفنانين التشكيليين اللذان كانا يمثلان مدرسة جديدة في الفن منه سلاحا قويا في يد المضطهدين من اجل اعلاء كلمتهم .

اكثر من مائة سجين عاشوا في تلك البقعة سنوات واعتادوا عليها وكانت رؤيتهم لنا والتقائنا بهم اشبه بروافد تتجمع بعضهما جديد وبعضها قديم لتكون كلها مسارا لنهر واحد لديه من الشباب وقوة الاندفاع ما يجعله يحلم بأنه سيمرق يوما من هذه الصحراء دون ان تجف مياهه لتلتقى بالنيل العظيم .

هكذا كان شعورى فى الايام التالية وبعد الالتقاء بالزملاء المسجونين أو بهؤلاء الجدد الذين رحلوا قبلنا من الفيوم او من القلعة .

كان هناك ثلاثة عنابر كبيرة يضم كل عنبر عشرين غرفة .

وفى عنبر واحد وضعنا ووضع معنا كل المعتقلين سواء الدفعه التى سبقتنا فى يونيو أم هؤلاء الذين رحلوا من القلعة فى مارس .. اما عنبر اثنين فقد اقام فيه المسجونون الشيوعيون ، وفى عنبر ثلاثة كان هناك المسجونون من الاخوان المسلمين الذين صدرت ضدهم احكام سنة ١٩٥٤ فى اعقاب محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر اثناء خطابه فى ميدان المنشية بالاسكندرية .

لقد استطاع الرفاق حقا أن يخلقوا حياه خاصة ومزدهرة فى تلك البقعة سرعان ما بدأت تستوعبنى وتخفف كثيرا من احاسيس الوحشة التى انتابتنى فى اليوم الاول ٠

كانوا فى حاجة لنا مثلما نحن فى حاجة لهم ٠.

ولم يكن غريبا وفى الايام الاول ان ترى احد المعتقلين الجدد مصطحبا احد المسجونين القدامى ٠٠ الاول يحكى عن الحياة الاخرى التى تركها منذ شهور تنبض وتقفز فى الشوارع والمنازل بذكرى شبه خضراء لم تجف بعد ، والثانى يعطيه بعض الخبرات عن عالم السجن الذى عاشه لثلاث او خمس او سبع سنوات ٠

ولقد ادهشنى ونا اقف امام بعض اللوحات التى رسمها داود عزيز أو وليام الملك ان أجد نبض الحياة قويا فى الخطوط ، فى الفكرة وفى الالوان ٠ وبقدما ادهشتنى تلك القدرة على الخلق والابتكار التى تشع من خلف نظارة صلاح حافظ بعد اكثر من خمس سنوات فى ذلك المكان ٠

بقدر ما احسست بالخجل من ذلك الضعف والاحساس بالضياع الذى اجتاحنى ونحن فى الطريق يوم وصولنا ٠

وأحسست بأن هناك فرقا كبيرا بين ان تحب الحياة وتدافع عنها فى داخلك وبين أن تسمح لليأس والضياع بأن يجريان فى دمك ٠٠ ان الدفاع عن الحياة قناعة واحساس داخلى وليس مجرد أشكال مظهرية ٠٠ فهناك الكثيرون ولا شك الذين يعيشون فى ربوع الوادى بلا قيود ومنافى أو سجون لايحبون الحياة ولا يدافعون عنها بل ويعملون على تشويهها بينما تلمس من اللحظة الاولى فى عيون الرفاق والذى قضى بعضهم اكثر من خمس سنوات بين الاسوار رنة امل موحية مازالت تنظر الى ما بعد الحاجز الاصفر بطموحات متجددة ٠

كان كل يوم يمر يزداد الانسان فيه تكيفا مع العالم الجديد ٠ عالم السجن المنعزل والذى لم يكن فى حاجة بالقطع لهذا السور الابيض القائم ٠

وانتهت حكايات اللقاء ٠٠ حكايات كلها قديمة واكثرها

حداثة يرجع تاريخه الى ابريل الماضى .. وحكايات موغلة فى القدم .

وبدأت ، مثلما بدأ الزملاء الجدد ، يبحثون عن وجودهم فى عالمنا الجديد .. البعض من الفنانين وهواة الفن التشكيلى والنحت راحوا يمارسون هوايتهم .. واخرون مثلى بدءوا يضعون مشروعات قصص او دراسات .. واغرق البعض انفسهم فى قراءة الكتب الموجودة ولم تكن قليلة وبعضها جيد .. وتولى بعض الزملاء تنظيم حياتنا العامة فى حدود الامكانيات المتاحة .. اى ان يتولواهم استلام كل ما يرد الينا من طرود ونقود يرسلها اهالى البعض ثم يقومون بتوزيع الاحتياجات على المعتقلين والمسجونين بالمساواة ، بغض النظر من ان الكتيرين وخاصة العمال والفلاحين لم يكن يصلهم شىء .

وفى المساء وحينما تغلق الزنازين وكانت الزنزانة تضم بين ١٢ الى ١٥ شخصا يبدأ توزيع المهام التى يكون عمدة الزنزانة قد حددها .

فهذا يعيد طهى الاكل الذى يوزعه السجن والذى لم يكن يختلف كثيرا عن الاكل فى معتقل الفيوم ، قطعة الجبن وبعض العسل الاسود واروانة عدس او فول وفى بعض الايام اروانة تورلى ــ وكنا نسميها الحشائش الغريبة وبها قطعه صغيرة من اللحم .. وبعد انتهاء العشاء يقوم اخر بصنع الشاى .. هذا بينما يكون هناك زميل قد جهز نفسه ليروى لنا قصة عالمية او مسرحية او يحكى بعض خبراته الخاصة ، وفى بعض الليالى تدور مناقشات سياسية حول الظروف التى تمر بها البلاد والمنطقة العربية .. بينما يشترك كل اثنين او ثلاثة فى تدخين سجارة « ونجز » ..

وفى الصباح كنت اقوم بزيارة لبعض الزملاء المسجونين فى عنبر (٢) اذ كنت مشوقا لان اتعرف على تجربتهم الطويلة فى السجون .. وايضا للتعرف على تقديراتهم السياسية لما يجرى من احداث .

على ان عنبر (٣) حيث الاخوان المسلمون كان يشدني هو الاخر وكثيرا ماكنت اتوقف طويلا في الفناء الذى يفصل عنبر اثنين عن عنبر ثلاثة لأتأمل بعض هؤلاء الذين كانوا يتميزون أما باللحية التى اطلقها غالبيتهم او بالاجسام الممتلئة .

لقد كنت دائما اختلف مع الاخوان المسلمين حتى قبل ان اكون ماركسيا .. فقد كان هجومهم على حزب الوفد وتعاونهم مع الملك احيانا والغموض الشديد الذى كان يكتنف شعاراتهم الوطنية والاجتماعية يبعدني عنهم فكريا .. كما ان تجربتي معهم في الجامعة بعد ذلك وعدم قدرتهم على اجراء حوار او نقاش واللجوء الى العنف دائما قد ضاعف من اعتراضي على منهجهم .

واليوم يجمعنا سور واحد وتحيط بنا صحراء واحدة وتحكمنا وتتحكم فينا ادارة واحدة ..

ولقد كنت اسأل الزملاء الذين عايشوهم لسنوات في هذا المكان عن علاقتهم بالاخوان وعرفت انها ظلت علاقات جوار طيبة فقط . اذ كان الأخوان وقيادتهم يرفضون اجراء اى حوار مشترك .. بل انهم كانوا يعتبرون وجود الشيوعيين في السجن امر طارىء لان عبد الناصر من وجهة نظرهم اخطر شيوعي في المنطقة .

وعبثا حاولت ان أناى بنفسي عن المشاكل .. كنت لا اتصور ان هناك من يضمني معهم سجن واحد ثم لا اعرفهم حتى ولو كانت آراءونا متباينة .

وذات صباح رأيته .

زميلي « عاشور » كان طالبا معي في الآداب والقى القبض عليه في ١٩٥٤ وحكم عليه لعشر سنوات لانتمائه الى التنظيم السرى للاخون .

وبرغم اللحية وامتلاء الجسم وتغير بعض تضاريس وجهه الا انني ناديته ، والتفت الى بحذر واقتربت منه ولما لم يستطع ان يتعرف على قدمت نفسي له ..

وسرعان ما القى بالقناع الجامد الذى يضـــــعه على وجهه وتعانقنا طويلا .

كانت تجمعنا ذكريات كثيرة ايام الجامعة .. كنا على طرفى نقيض فى قسم انجليزى ولكننا كنا فى نفس الوقت اكثر الطلبة حوارا ومناقشة وحركة .

كان هو مثلا يصدر مجلة « انهدى » وكنت اصدر مجلة اسميها « الفجر » .. بل وكثيرا ما كنا نلتقى فى الكافيتيريا لنجرى حـوارا مفتوحا وسط الطلبة حول الافكار والنظريات المختلفة ومستقبل مصر .

كان هويرى ذلـك المســتقبل فى خـــلافة اسلامية تستمد اسسها وقواعدها من الشريعة الاسلامية .

وكنت ارى هذا المستقبل في اشتراكية حقيقية تعطى لكل حسب عمله وجهوه دونما استغلال او تمايز طبقي .

وكان هناك امر جديد بيننا .

كنت اناقشه فى الاسلام الحقيقى لاصل به الى ان مبادئه الاصيلة تتفق مع الاشتراكية التى ادعو اليها .

وكان هو يناقش فى الاشتراكية لاقناعى بانها تاتى مـــع النظام الاسلامى الذى يدعو اليه .

كنت اقول له انت اشتراكى ترفع لواء الاخوان .

وكان يقول لى وانت مسلم ترفع لواء الشيوعين .

لم يكون لديه الجمود التقليدى الذى تميز به الاخوان فى تلك الفترة بل انه لم يكن يحب العنف الذى يلجأ اليه الاخوان فى الجامعة حينما كانوا يستخدمون الكرابيج والسكاكين فى اقناع معارضيهم .. بل كان يدينه وبشدة .

ولقد كنا اصدقاء حقا رغم اختلاف وجهة نظرنا ولكن لم اشك لحظة فى ان عاشور واحد من ابناء مصر المخلصين .

ولقد عشنا يوما كاملا ، وقد جلسنا خلف مطبخ الســـجن نجتر ذكرياتنا المشتركة بل ونضحك حتى تدمع اعيننا .

وعندما حان وقت التمام طلبت منه ان اراه فى الغـد .

ولكن وجهه اكتسى حيرة مفاجئة ثم قال :

ـ افضل ان اراك مرة واحده فى الاسبوع ٠٠ وهنا بعيدا عن العيون ٠

ـ أى عيون ٠٠ !!

ـ عيون الاخوان ، انهم لايرتاحون لمثل هذه اللقاءات ٠ لماذا ؟

وابتسم فى مرارة

ـ انت تعرفهم ٠٠ ولست اريد مشاكل معهم ؟ انهماخوان على اية حال ٠

لهذه الدرجة يجمعنا سجن واحد ومحنة مشتركة وتخافون من المناقشة والجدل ، اننا هنا جميعا لاننا لم نتعلم بعد كيف نناقش الفكرة بالفكرة ٠٠ ألم يفهموا الدرس بعد ٠

وسلم عاشور على اتفاق بأن نلتقى كل يوم سبت فى هذا المكان ٠

وكان يوم السبت ٧ نوفمبر ، وكان موعد لقائى الثانى مع عاشور وجاء متأخرا بعض الوقت وهـــو يتلفت خلفه كثيرا وضحكت

ـ كأنك تقوم بمهمة سرية

ـ ان هناك عقولا متحجرة كما تعرف ٠

ومرة اخرى غرقنا فى ذكريات الكلية ٠٠ واخذنا نستعيد بعض اشـــعار شكسبير وشيلى ولورد بايرون و ت ٠ س ٠ اليوت ٠

واخذ يتلوجزءا من قصيدااليوت « الارض الخراب »بصوت مرتعش ٠

سيدة الصمت ٠
حزينة ساكنة ٠٠ ومنهكه
الوردة الوحيدة فى الحديقة
تنتهى بالآلام ٠
تنتهى بلانهاية ٠

في رحلة بلا آفاق ٠
وتحت شجر « العرعر » الخروع
تتناثر العظام ٠
وفي يوم بارد تباركه الرمال
تتحد العظام في الصحراء ٠
هذه هي الارض التي نقتسمها ٠
ليس المهم ان نقسم او نوحد
ولكن هذه الارض هي التي ورثناها

لقد كان عاشور مغرما باليوت وباشعاره الحزينة واليائسة وقد كنت دائما اسخر منه ومن اليوث ٠

ولكني استمعت اليه هذه المرة وقد كان يجيد القاء الشعر ، ووجداني كله يهتز ، ليس لما يقوله اليوت ولـــكن للطريقة التي يقول بها عاشور ٠

وقبل ان اتركه هذه المرة ٠٠ قال

ـ على فكرة ٠٠ بعض الاخوان كانوا في الادارة النهاردة وسمعوا كلام واستعدادات عن حاجة بكرة تخصكوا ٠

ـ حاجة زى ايه ٠

ـ محدش عارف بالضبط ٠٠ يمكن ترحيلة ٠٠ يمكـــن دفعة جديدة او يمكن حد مسئول هيزور السجن ٠

قلت له ضاحكاً ٠

ـ يا سيدى ٠٠ على اية حال ٠٠ غدا يوم آخر ٠

وكان بالفعل يوما آخر

- ٩ -

اشم شـيئا يحترق
ارجو الا يكون عقلى
(جندى امريكى فى فيتنام)

٨ نوفمبر ١٩٥٩

اجرى .. اجرى .. اجرى .
الكرابيج والعصى الغليظة لاتترك فرصة للتفكير .
اركع .. اركع .. اركع .

وضربات الشوم ودبشك البندقية لا تكف عن العمل فى جسدك .. ونار هائلة مشتعلة تكاد تشم منها رائحة اجساد بشرية تشوى .. وبعض رؤساء قبائل « اكلة لحوم البشر» تجلس فى انتشاء وهى تتفرج على الفريسة .

ـ اسمك ايه ياوله

وسواء اجبت ام لم تجب لابد وأن تنهمر عليك الضربات من كل مكان وبكل وسيلة بما فيها ركلات الاحذية « الميرى»

ـ بتشتغل ايه يابن الـ .

والشوم والدبشك والاحذية لا تكف عن العمل .

ـ عامل سياسى يابن الـ .

ـ قول انا مرة .. قول انا كلب .. قول انا حمار .

ورغم المفاجاة المذهلة ، ورغم التخطيط المحكم الذى ينقلك فجأة الى عالم يضيع فيه العقل فان واحدا من المائتى معتقل لم يشذ عن احد ثلاثة فى اجاباته :

ـ انا مصرى
ـ انا اشتراكى مصرى
ـ انا احسن منكوا .

لم يكن أكثرنا تشاؤما يتصور ان ذلك يمكن ان يحدث ..
وحين طلب منا فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ان يحزم كل منا امتعته فى انتظار الاوامر ، دارت كل التصورات والتوقعات حول ترحيلة جديدة .
ولكن اغلاق الزنازين والاوامر المشددة بعدم الكلام ثم ذلك الشحوب القلق الذى يعلو وجه ضباط السجن وعساكره وحتى قائده كان يوحى بأشياء مبهمة صعبة التفسير .

كان كل ما استطعنا ان نعرفه ان اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون ومعه فرقته الشهيرة بفرقة همت قد وصلت مساء امس الى الواحات .. وكان ذوى الخبرة فى السجون المصرية يعرفون همت بأنه ناعم الصوت رقيق الجسد أخمر الوجنات تركى الملامح والجذور ثم شديد القسوة فى معاملته للرجال وكأن بينه وبينهم ثأر ، ولديه ولع مجنون بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة ثم الاصرار على ان يقول واحد منهم « بأنه امرأة » .

وبغض النظر عن الحكايات التى تروى عنه وبانتمائه الى الجنس الثالث الذى هو ليس بين الرجال او بين النساء ، فلقد اكدت لى تجربتى مع هذا الضابط الدموى نظرية كنت قد قرأت عنها بخصوص « التفسير السيكولوجى للشخصية النازيه » استخلصها المؤلف من دراسات واقعية على عدد من من مجرمى الحرب النازيين والفاشيين بل وامتد فى دراسته الى الشخصيات التاريخية التى عرفت بقسوتها واستمتاعها بالتعذيب والقتل .

وتقول النظرية ببساطة ان مثل هؤلاء من الرجال او النساء غالبا مايعانون من شذوذ جنسى مما يؤدى بهم الى كراهية عميقة لانفسهم وللناس والحياة حولهم ويعيشون دائما فى « حالة انتقام » .

وبدأت اغرب تمثيلية شهدتها فى حياتى بل وكان لى دور فيها .
ينادى احد العساكر ستة اسماء ويخرج الزملاء حاملين

معهم كل أمتعتهم وتمر بعض الدقائق ثم فجأة نسمع هرولة وصرخات مكتومة وصهيل خيل وفرقعات سياط وكأننا نسمع موسيقى تصويرية لاحد افلام المعارك .

ثم ينادى على ستة اسماء اخرى .. وهكذا .

وحتى هذه اللحظة ، وبمرور اكثر من نصف ساعة على بدأ المشهد الاول الذى اخذ يتكرر كل عشرة دقائق كان كل ما استطعت أن اصل اليه بانفعالاتي المحتدمة مع الصرخات المكتومة وصرخات حوافر الخيل وفرقعات السياط أن شيئا ما رهيبا فى الخارج .. ما هو ؟ !

وجاء دورى ، ونودى اسمى مع خمسة اخرين .. كان من بينهم الصاغ الدكتورمحمود القويسني،والمهندس الجيولوجى فخرى لبيب ، والشاعرمحسن الخياط والطالب الجامعيوجيه سمعان وعامل النسيج محمد عبد الواحد .

خرجنا من الزنزانة ثم من العنبر فى صف واحد امامنا عسكرى وخلفنا عسكرى كل منهم شاهرا سلاحه .

وقبل ان نصل الى بوابة السجن التى كانت مفتوحة على مصراعيها وامامها صف من الخيالة ممسكين بسياطهم واخرين ممسكين بالعصى الغليظة .. السحب الجنديان بسرعة واحدهما يقول في الم واعتصار :

ـ شدوا حيلكوا .. ربنا معاكوا .

وانتقلنا فورا الى القرون الوسطى بخروجنا من البوابة .

اجرى .. اضرب .. كرابيج .. شوم .. الرأس .. العين .. الجسد يلتهب .. اجرى .. فرسان القرون الوسطى يركبون الخيل وفى يدهم السياط يضربون الفريسة وينهكونها .. وعلى الصفين طابور من كلاب الحراسة يمسك بالعصى تنهش .. وصرخات الغابة الوحشية تمتزج فيها ضحكة الضبع الجائع المجنون مع ضوضاء القردة وعواء الذئاب وولولات الصقور .

ثم وعند نهاية سور السجن قرب البوابة الخلفية .. جلست محكمة التفتيش .. رغم كل شىء .. رغم العصى والسياط التى تنهمر كالمطر .. ورغم الاوامر .. اركع ..

اقعد ٠٠ اخفض رأسك ٠٠ فلقد كنت مشـــوقا ان اراه ، امبراطور الجنس الثالث ٠

وريث كل ما هو سيء وحقير وحاقد على الناس والحياة ٠٠ الامبراطور التركي اسماعيل همت ٠

كان يجلس كجنرال يقود حربا خطيرة تحت مظلة اقيمت له والى يساره قائد السجن والى يمينه عدد اخر من ضباطه ٠

كان الدم يكاد ينفجر مـن خدوده الحمراء المكتنزة وهـــو يضحك بينما جســـده كله يهتز ونحن نخلع كـل ملابســنا لنقف عراه امامه بينما يقوم الحلاق باجتثاث كل شـــعر في أجسادنا بموس معه ابتداء من شعر الرأس حتى الحاجبين وشعر الصدر والعانة ٠٠ اما ملابسنا وشنطنا فقد القيت في نار هائلة مشتعلة ٠

وبدأ الجنرال النازي يمارس هوايته مع الرجال العرايا٠ واشار بعصاه الى الصاغ الدكتور محمود القوسيني الذي كان في اول الصف :

ـ اسمك ايه ياولد

ـ الصاغ دكتور محمود القويسني

ـ صاغ ايه ودكتور ايه يابن القحبة ٠٠! اسمك ايه ياولد

ـ صاغ دكتور محمود القويسني

ـ بتتحدى يابن الـ ٠٠ والله لحط العصاية دى فى ٠٠

ـ عيب يا اسماعيل يا همت !!

قالها الدكتور القويسني في ثقة ومرارة ٠٠ بينما العصي والسياط تنهمر على جسده العاري وهمت يصرخ ويشاركهم في الضرب ٠

كان الدكتور محمود القويسني ضابطا في سلاح الفرسان حتى ١٩٥٤ وكان اسماعيل همت ايامها قد فصل من الجيش « لمسائل اخلاقية » في بداية ثورة ١٩٥٢ ثم اعيد ضابطا في مصلحة السجون ٠٠ وكان الدكتور القويسني يعرفه جيـدا ويعرف نقاط ضعفه فلطالما وقف اسماعيل همت بين يـدي

محمود القويسنى ذليلا مستضعفا لايجرؤ على ان يرفع رأسه اليه مبتهلا بالتوسط لاعادته الى الخدمة ٠

وجاء الدور على الطالب وجيه سمعان ٠

ـ اسمك ايه يابن الـ

ـ وجيه سمعان ٠٠ طالب بأداب القاهرة ٠

ـ منين ياوله

ـ من جزيرة شندويل بسوهاج

وصرخ همت فى نباح كالكلبة

ـ يابن الـ ٠٠ نصرانى وصعيدى و ... سيوعى !!

هكذا ينظر التركى همت الى المصريين ٠٠ ونسى ان رئيس جمهورية مصر فى ذلك الوقت جاء من الصعيد ٠٠ ونسى ايضا التراث المصرى الاصيل الذى لايفرق بين المسيحى والمسلم فى وادينا الحبيب ٠

وجاء دورى ٠٠ وصمت تماما ، لم اجب على صراخه واسئلته ٠

احسست بالتقزز من كل ما يجرى ، نسيت العصى المنهمرة والكرابيج بل نسيت جسدى ونفسى تماما سوى شىء واحد ٠٠ لقد كان عقلى متيقظا وكان القرار ان الموت افضل من ان افقد انسانيتى ٠

ـ انت مش سامعنى يابن الـ ٠٠ اكلم ياوله ٠٠ هاموتك ٠

ووقفت صامتا ، وكففت حتى ان ارفع يداى لاتلقى الضربات او اتحرك هنا وهناك هربا من الشوم المنهمر ٠

ماذا يمكن ان يقول الانسان لهذا الكلب المسعور ٠

وتقدم المهندس الجيولوجى فخرى لبيب حيث يقبع همت وهو ويصرخ :

ـ انت فاش صغير ٠٠ انت قاتل ٠٠ ستدفع الثمن يوما ٠

وتراجع همت ومن هول المفاجأة ، ولكن سرعان ما عادت آلهة التعذيب والموت كلها تطبق على فخرى ٠٠ كل العساكر بما فى ايديهم من كرابيج وشوم تعمل على جسده العارى ٠ وسقط فخرى علـى الارض ، وتجرأ همت واقترب منـــه ؟

واخذ يضربه بحذائه •
وايقنت ان فخرى قد قتل •• ولكن ذلك لم يكن كافيا من وجهة نظر الفاشى التركى ، فأمر بأن يصلب فخرى على العروسة ، ووقف ثلاثة من الزبانية يتبادلون ضربه بالكرباج •• وهمت يصرخ •
ـ قول انا مرة •

وصوت فخرى لايكف محملا بكل الآلام ولكنه صادر من الاعماق
ـ انا احسن منك • انا اشتراكى مصرى •
كنت اتابع ضربات الكرباج على جسد فخرى الذى تفجر كله بالدم والكدمات ويجتاحني احساس بالعجز الشديد وبالاحتقار الشديد لكل شيء حتى نفسى •

اكثر من سبعين جلدة صمت بعدها صوت فخرى تماما وارتمى رأسه على كتفه ، كان هناك فيما يبدو اصرار على قتله ، فأنزلوه من على « الصليب » واخذ همت يقلب رأسه بحذائه ثم يقول بصوته الانثوى :

ـ لسه عايش ابن الثور •
وصرخ فينا قائد المعتقل •

ـ ياللا •• على العنبر ••• خدوه معاكم •
وحملنا فخرى بين ايدينا •

خمسة من العراه يحملون زميلا لهم يطرق الموت بجسده ، وخلفهم جوقة من الكورس العسكرى الذى لايكف عن الضرب حتى دخلنا العنبر •
ترى هل واجهت المرعيات هذا الموقف وهن يحملن المسيح من على صليبه بعد ان نزف حياته قطرة قطرة ••

ترى هل كان بلال على نفس الصورة بعد ان ظل ثلاثة ايام يضرب بالسياط وهو مصلوب فى بطحاء مكه الى ان حمله المؤمنون الاوائل •
ترى هل جاء نفر من رفاق سبارتاكوس بعد ايام ليخلصوا

المسامير التى دق بها جسده في شجرة على الطريق الرومانى المعروف بطريق الصلبان .

المسيح .. بلال .. سبارتاكوس .. كل هؤلاء الذين حلموا بالخير والعدالة والمساواة .. صور حفرت فى رأسى وانا صغير ولكننى لم اكن اطمع ان اراها واعيشها مثل ذلك اليوم .

عادوا كلهم الى ذهنى ونحن نحمل رفيقنا .. وحين دخلنا الى الزنزانة ظللت صامتا لم اكن مصدوما مثلما تصور رفاقى، بل لقد كنت فى تمام الوعى والادراك .. كنت ارى فخرى ممددا وسط الغرفة والزملاء حوله يتلمسونه ويريدون ان يبعثوا فيه الحياه من جديد .

وكنت ارى واسمع الدكتور القويسنى وهو يهز فخرى بصوت مبلل بالدموع :

ـ فخرى .. فخرى .. رد علينا .. ثم وهو يقول بصوت اكثر اطمئنانا .

ـ قلبه بينبض .. الكلاب . !!

وجيه سمعان وهو يمسك بظهره ويتألم فى صمت .

ومحمد عبد الواحد وقد وضع رأسه بين يديه واخذ ينتحب .

ومحسن الخياط وقد راح يردد :

ـ دامش معقول .. احنا فين .. احنا فى غابة .

وجاءت دفعة اخرى .. دخلوا الزنزانة .. اجساد عارية منهكة .. يختلط عليها الدم بأثار ضربات الشوم والكرابيج .. ويرتمون وهم يلعنون ويتأوهون .

وجاءت دفعة ثالثة .. اثنى عشر زميلا فى زنزانة ، عارون تماما وقد تغيرت ملامح وجوههم ، بلا شعر وبلا حواجب .

وتقدم منى محسن الخياط يتفرس فى وجهى وهو يقول:

ـ انت مين .

ـ انـا .

ـ مش معقول .. داشكك غـــريب خالص .. ياخبر ..
وضحك .

وتفرست انا فى وجهه ... وضحكت .. بل وامتــــدت ضحكاتنا .

وضحك كل من فى الزنزانة .. وبدأت الضـــحكات ترن فى الزنازين الأخرى .. وفى دقائق كان العنبر كله يضحك .

وجاء بعض العساكر يستطلعون الخبر ... وارتسمت على وجوههم الدهشة وهم يرونا نضحك .

وضرب الشاويش عبد العظيم ـ شاويش العنبر ـ كفا على كف وهو يقول :
عجيبة .

- ١٠ -

أتدرون من المفلس ؟ ..
قالوا : المفلس من لا درهم له ولا متاع ..
فقال عليه السلام : المفلس من امتى من ياتى يوم القيامه لصلاة وصيام وزكاه ، ياتى وقد تم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وضرب هذا وسفك دم هذا .

(حديث نبوى)

٩ نوفمبر ١٩٥٩

وحينما هام الملك لير فى مسرحية شكسبير الخالدة على وجهه وحيدا شريدا ومعه مهرجه المعروف كانت كل أحلام لير تدور حول انتصار قيم الحياة الشريفة ، وليس مجرد العرش .

أما المهرج فحين سأله لير عن امانيه قال :

ـ أمنيتى أن اجد حذاء .

ولقد كنت أضحك دائما مع كلمات المهرج الذى لم يشغله فى كل المأساة سوى أنه يريد حذاء يقى به قدمه العارية من غول البرد وغائلته .

وفى ذلك الصباح القارس ادركت أهمية الامنية التى عبر عنها الفيلسوف المهرج . انها أمنية الحفاة الجائعين .

كان اليوم التالى للحفلة الكبيرة التى أقامها الامبراطور التركى اسماعيل همت وانطلق صوت البروجى والشمس ما زالت فى رحم الافق المشرق تتجمع فى فناء سجن الواحات ونحن نجلس القرفصاء فى صفوف متراصة .

والرياح الخفيفة المثلجة تعصف باجسادنا المنهكة شبه العارية والتى لا يسترها سوى بعض الخرق الصفراء التى وزعوها علينا لتصبح زينا الرسمى الجديد .

وتحت القدم العارى لسعات الرمال التى تحولت كلها الى ذرات من البرد الموجع .

ينفذ من القدم الى النخاع فترتعش الدماء فى العروق ·
ولقد سمعت كثيرا عن الجو القارى فى الصحارى ، حيث البرودة برودة حقيقية وحيث الحرارة حرارة مستبدة ·· ولكني فى ذلك الصباح احسست كما لو كنت قد القيت عاريا وسط اكوام من الثلج ·
وأمام الصفوف جلس قائد المعتقل على كرسى وأمامه منضدة وفوقها كوب من الشاى الساخن يتصاعد منه البخار ·· وتلاحقه عيوني وشفتاى بشغف بالغ ·
كوب من الشاى الساخن ·· حذاء أو حتى بلغة ·· شيء لستر الجسم ·· بدلا من هذه الخرقه ·
كلها كانت أمانى عظيمة وخالدة فى ذلك الصباح ·
وجلسنا أكثر من نصف ساعة فى وضع القرفصاء وأوامر مشددة بأن ننكس رؤوسنا ، أى تنظر الى مابين قدميك ·
ثم نفخ البروجى ·· وجاء الجنرال التركى ·· طاووس منتفخ يحس انه ليس فى هذه الدنيا ، وربما فى السماء ، من هو أقوى منه ·
واخذ ينظر الينا فى تشف غريب ، وباحساس بالزهو والتفوق باحثا عن آثار « حفلته الكبرى » التى اقامها بالامس ·
وكان الجنرال فيما يبدو قد احس بأنه لم يستطع ان « يذبح » بالامس ماتصور انها فريسة سهلة له ، حقيقة كان هناك من كسرت ساقه أو ذراعه أو بعض ضلوعه فى « مهرجان الضرب والتعذيب » ·· ولكن الفريسة لم تخضع ولم تفقد احاسيسها الانسانية الدافئة كما تصور ·
ولعل آخر شيء سمعه قبل ان ينام فى تلك الليلة ، هى تلك الضحكات التى انطلقت من الغرف والعنابر التى كانت تسخر منه ، بل وتعمق لديه الاحساس بالحيوانية ·
طوال ليلة مس كان « العقل الجماعى » لنا يفكر ·· مثلما كان يفكر دائما ·· بل ان عقولنا فى تلك الليلة كانت متقدة ومتألقة ربما لاحساسها بأننا لم نعد نملك سواها فى مواجهة عاصفه عاتية من الظلمة والعسف ·· ووصلنا الى قرار ··
لابد من هزيمة الغرض الذى جاء من أجله همت ··
وكان الاتفاق بيننا ··

لا مانع من ان نحني رؤوسنا قليلا اذا كانت مجرد عاصفه طارئة ٠٠

اى نقاوم اية محاولة لانتهاك آدميتنا وفى اطار عدم اعطاء الفرصة لهمت بأن يجرى مذبحة ٠

كنا قد عرفنا بالامس اننا سنذهب فى الغد للعمل فى الجبل وكانت هناك ثلاثة احتمالات فكرنا فيها جيدا واستطعنا ان نضع خططا عاجلة ومتغيرة لمواجهتها ٠

اما ان يكون المطلوب من كل ماحدث هو ان يصلوا بنا الى نقطة الصفر ، أى تجريدنا من كل الحقوق التى يتمتع بها المسجونون لكى نكف عن الحديث فى السياسة والمطالبة الافراج ولحصر مطالبنا فى الحقوق التى سلبت منا ٠٠ أى باختصار ان نفقد شخصيتنا السياسية المفكرة لنتحول الى مجرد مسجونين ٠٠ ويتحول صراعنا الى ذاتية حيوانية من اجل البقاء ٠

واما ان يكون هناك مؤامرة عاجلة يدبرها الامبراطور همت بخروجنا للجبل لانتهاز أى فرصة للتخلص من أكبر عدد منا خارج الاسوار برصاص المدافع الرشاشة ٠٠ ويمكن اختلاق مبررات كثيرة ٠٠ ابسطها التمرد والهياج ٠٠ خاصة وان له سابقة فى ذلك ٠٠

صدرت الاوامر لنا بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن ٠

ومضينا فى أربع مجموعات متراصة تحرسنا المدافع الرشاشة من الجانبين وتنهال علينا الشتائم والاوامر وضربات الخيزران اللاسع ٠

وعند البوابة ٠٠٠ حدث شيء له دلالة :

فعندما بدأنا نخرج ٠٠ طلب الامبراطور همت من قائد المعتقل ان يوقع على كشف البوابة ، وصمت القائد لحظة ثم نادى على اليوزباشى عبد العال سلومة وكيل السجن وأمره بأن يوقع على الكشف ٠٠ وكانت المفاجأة ٠

قال اليوزباشى سلومة بصوت مسموع :

ــ متأسف يا افندم ٠٠٠ انها ليست مسئوليتى ٠٠ وأدركنا الموقف على الفور ٠

لابد وانه قد دار فى عقل المأمور واليوزباشى سلومة

احتمالات ان يمارس الامبراطور همت نزقه معنا ٠٠ وهم لا يريدون ان يتحملوا مسئولية ذلك ٠

ومرت لحظات طويلة قاسية مليئة بالانفعال الشديد والصامت ٠٠ ونحن وقوف على اعتاب البوابة نشهد الموقف وندرك ابعاده ٠

ولابد ان الامبراطور قد احس بهزيمة مخططه وانكشافه فى تلك اللحظات فعاد يصرخ ولكن بصوت مهزوم ٠٠

ـ خلصنا ياحضرة المأمور ٠٠ دول مسئوليتك ٠٠

ووقع المأمور على كشف البوابة ٠٠ ولكن بعد ان آكد مسئوليته ٠٠

وخرجنا الى الصحراء ٠٠ ترحيلة أخرى٠٠

المقاول همت ومعه قائد المعتقل « وفرقة الحفلات الشهيرة » فى عربات الجيب فى المقدمة ٠٠ ثم طوابير « العمال والفعلة » يحرسهم الخولية بمدافع سريعة الطلقات ٠٠ وفى الخلف فرقة السجن تحمل المدافع والبنادق ٠

ورغم نسمات البرد اللافحه وذرات الرمل والحصى والشوك التى كانت تنغرس فى قدمى العارية ٠٠ ورغم كل الاحتمالات التى كانت تدور فى الذهن فيترصدها بين لحظة واخرى ، الا ان امتداد الافق امامى بلا اسوار كان شيئا طيبا فى حد

ذاته ٠٠ ومع الخطوات السريعة المنتظمة التى أمرنا بأن نمشى بها وشمس نوفمبر التى بدأت تفرض وجودها احسست بدفء وحيوية تسرى فى عروقى فتهزم ماكان يجتاحنى من احاسيس بالبرد والخوف ٠

واخيرا وصلنا الموقع ، على بعد اربعة كيلو مترات من السجن ٠٠ كان المكان اشبه بوادى صغير يقع بين تلين من الكثبان الرملية ٠٠ وكانت ارضه داكنة تختلط فيها لون الرمل الاصفر مع تربة رمادية وانتشرت فيها بعض النباتات الشوكية مما يوحى بأن ثمة حياة كانت هنا ٠

وحانت اللحظة وكان المسرح معدا بعناية ٠

صعد همت ومعه فرقته على الكثبان الرملية وأحاطونا بسرعة من كل جانب بالمدافع الرشاشة ٠

وانتبهت كل حواسي ، وتبادل الزملاء نظرات ذات مغزى ٠

هذه اذن هي المقبرة التى أعدوها لنا ٠٠ وبدأ كل منا يعد نفسه للمعركة التى توقعناها ٠٠ فمع أول طلقة رصاص تصيب أحدنا ٠٠ علينا أن ننشب فيهم أظافرنا ٠
لحظات جربها ولاشك المسيحيون الاوائل حين كانوا يجمعونهم فى الأخاديد ويعملون فيهم السيف ٠

وجربها ضحايا النازية والفاشـية حين كانوا يطلقـون الرصاص على طوابير المعتقلين ٠

لم أفكر فى أنى قد أكون أول من أسقط ولكنى كنت افكر فى كيف أنتقم ٠٠ كان يجتاحنى احساس بأننى سأصـل الى همت نفسه ولن أرض بغيره ، بل وأخذت أتصور كيف سأتصرف معه حين تمسكه يداى بكل الغضب والحقد والالم الذى يجتاحنى ٠

ونادى همت على المامور لكى ينسحب هو وضباطه وجنوده وصاح الزميل المهندس سيد عبد الله قائلا :
ـ ياسيادة المامور ٠٠ نحن أمانة فى عنقك وستتحمل المسئولية ٠٠

وانتفض المامور كالثور الهائج يضرب سيد عبدالله بلكمات عنيفة ٠٠ ولكنه لم يتحرك ، ولم يتركنا بل أصدر أوامره للضباط والجنود بالالتفاف حولنا والبقاء معنا ٠
وكان معنى ذلك ، وبغض النظر عن هياجه وتوتره ، ان المامور قد حسم أمره وقرر ان يتصرف فى اطار مسئوليته ٠

وعاد همت ينادى ٠٠
ووقف المامور يصرخ فينا بصوت أعلا من نداء همت ٠٠

ـ : اسمع انت وهو ٠٠ انا ممكن اقتلكم كلكم ٠٠ حياتكم عندى لا تساوى شيئا ٠٠ عندى أوامر بضرب الرصاص عند

اى تمرد ٠٠ فاهمين ٠٠ مش عاوز أى تمرد ٠٠ فاهمين ، دلوقتى الفئوس والغلقان والديوره هتتوزع عليكم ٠٠ مطلوب انكم تنقلوا التلال الرملية دى ٠٠ أى تقصير فى العمل ها اضرب بالنار فورا ٠٠ مفهوم ٠

٠٠٠ مفهوم ٠٠ كان المأمور بجسده الفارع الممتلىء وصوته العالى المنفعل وهو يهدد ويتوعد وفى نفس الوقت يتجاهل نداءات همت أقوى من أى شخصية درامية رسمهااسخيلوس أو شكسبير ٠

كان من الواضح أن الرجل قد أخذ موقفه ليس دفاعا عنا وعن أرواحنا ـ بل عن نفسه ،فهو لايريد ان يتحمل مسئولية مجزرة قد يسأل عنها في المستقبل ٠٠ ولعله لايختلف عن همت سوى في ذلك الامر ٠٠ انه يعرف أن هناك غداآخر وقد يكون له حسابات أخرى ٠

وبدأ الضباط والشاويشية يقسموننا الى «مصالب» اىفرق عمل ويوزعون علينا الفئوس والغلقان وأدواتالعمل الاخرى٠ وهم لايكفون لحظة واحدة عن استخدام ألسنتهم وعصيهم ٠٠ هذا بينما صعدالمأمور الي همت فوق التل ٠

وكان الموقف كله أشبه بمسرحية غريبة ٠

علي المستوى الاول ، وفوق التل ، صراع بين نمطين أنتجتهما مدارس التعذيب والعداء للانسان ، النمط الاول أصبح مسعورا متعطشا للدم بأى شكل وعلي اية صورةمثله مثل النمرالمتوحش الذى يسعده البطش بالفريسة حتي ولو لم يكن جائعا ٠

والنمط الثانى أشبه بالثعلب الذى يجرى دائما حساباته بين رغبته فى الفريسة وخوفه من المفترس ٠٠ اذ انه يدرك فى النهاية انه يمكن ان يصبح هو الآخر فريسة لمن هو أقوى منه طالما ان الذى يسود هو شريعة الغابة ٠

كان هذا الصراع الوحشى ، يدور علي التل ٠٠ ونسمع بعضا منه ممثلا فى صرخه هائلة للنمر ومحاولات التهدئة التى يقوم بها الثعلب ٠

بينما على المستوى الآخر للمسرح ·· وتحت التل ، نروح ونجيء محملين بمقاطف الرمل تحت وابل من ضربات الخيزران والشوم الذى لاينقطع بينما عقولنا وقلوبنا وآذاننا كلها مع هذا الحوار الدموى الذى يجرى بين النمر والنعلب حول مصيرنا ·

ويبدو أن نغمات الضرب المتواصل الذى ينهال علينا مع صورتنا ونحن فى خرقنا البالية نحمل الرمال والصخور مهرولين قد أمتعت عين وسمع النمر وبدأت تشد انتباهه بل وأخذ يروح ويجيء فوق التل متأملا لوحة فنية رائحة تشبع أحاسيسه الحيوانية ·· بل وأخذ يلقى ببعض أوامره للضباط والعساكر الذين يقومون بدور الايقاع الصوتى بعصيهم وكرابيجهم ويرسمون فى نفس الوقت ظلال القسوة والهمجية المطلوبة ·

وكأى مايسترو أصيل ينفعل مع اللحن خرجت أوامره الى الجوقه ·

ــ : العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب · المقاطف تتملى كويس ·· الاولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم ، بيتفسحوا ولاد الـ ··· ضرب الكرابيج أحسن · ·· عاوز أسمع صراخهم ·· مفيش رحمة بيهم ·· اضرب زى مابتضرب كلب ·

وبالطبع كانت أوامر اللواء «المايسترو» تنفذ على الفور ، فيزيد صفير الكرابيج ووقعها على الاجساد كما ترتفع ذبذبات العصى وهى لاتكاد تتوقف لحظة فى أيدى العساكر ··

أما صراخنا فلم يسمع منه اللواء المايسترو شيئا لاننا كتمناه في الاعماق ·· وحينما نفخ البروجى فى النفير يودع السيد اللواء النمر وهو يركب عربته وخلفه فرقته يغادر الموقع بل والواحات كلها الى القاهرة ، تمثل وداعنا له فى بصقات على الارض خرجت من كل واحد منا وبدون اتفاق سابق ، بل وشاركنا فى توديعه «بالبصقات» بعض العساكر وهم يخرجون بعض تنهيدات الارتياح ·

وبالرغم من أن الضرب ، وربما بنفس الوتيرة ، استمر طيلة

اليوم الا أن رحيل همت وفرقته قد أزاح من الموقف عاملا خطيرا ومتوترا كانت فيه أعصابنا ، بل أعصاب قوة السجن بما فيها المأمور ، مشدودة متحفزة ٠

ولاشك ان همت وهو يتجه بعرباته الى أسيوط ثم القاهرة لم يكن سعيدا مثلما تصور وهو يأتي الى الواحات ٠

حقيقة مارس كل ابداعاته الفنية في الضرب والتعذيب طيلة ٢٤ ساعة ، ولكن حقيقة أخرى لابد وقد أحس بها هو أنه لم يستطع أن ينزع منا آدميتنا وعقولنا ٠

فلقد كان ختام حفلته الليلة الماضية ، ضحكات تنطلق من صدورنا تسخر منه ومن حيوانيته ٠

كما كان ختام مؤامرته في الجبل ، بصقة جماعية تودع هيلمانه الزائف وهو يتحرك ٠٠

واجتاحنا احساس بالانتصار الصامت ، عكسته نظرات الثقة التي أخذنا نتبادلها وبعض الابتسامات التي ارتسمت على وجوهنا ٠

حقيقة ضربنا واهنا بل ومازلنا نضرب ونهان ونعامل بنفس الدرجة التي يعامل بها الحيوان ، ولكننا استطعنا ان نؤكد عظمة الانسان وقدرته حيث لايملك ان يدافع عن نفسه الا بالعقل والعقل وحده في مواجهة كل حيوانات الغابة المفترسة ٠

بل اننا استطعنا أن نكسب من بين صفوف العساكر والضباط الذين دربوهم جيدا وشحنوهم بشحنات حيوانية حاقدة ، لقد أيقظنا عقول بعضهم وأثرنا في نفوسهم مشاعر وأحاسيس انسانية مرة أخرى واكسبتهم فيما بعد ، وباعتراف كثيرين منهم ، احتقارا شديدا لكل ما كان يمارس معنا ولدورهم فيه ٠

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة ، حينما أمرنا بالعودة الى السجن ٠

وشمس الاصيل تفرد ظلالنا طويلة ممدودة على الرمال ، وكل منا يحمل فأسا أو مقطفا يعلقه بكتفه ٠

وتمضى طوابير «الشغيلة» مقتربة من أسوار السجن بعد يوم طويل من العمل الشاق والجهد النفسى ·· يوم لن ينساه ولا يجب ان ينساه كل أبناء وبنات مصر الطيبين ·

ولسعت حواسى رائحة العدس عند دخولى من البوابة ·· ولم ألق بالا لحارس البوابة الذى أصر على أن يختم كل منا بعصاه وشتائمه لتعويض بعض مما فاته فى الجبل ·· كنت جائعا ، وكانت رائحة العدس أجمل رائحة شممتها فى حياتى بل اننى لم أجرب أشهى وأطعم من وجبة العدس فى ذلك اليوم ·

- ١١ -

لحل الدين بلا خوذه
عزل شرفاء ·
بلا أحذية ، بلا قفازات ·
يتألق شـعاع مـن النور فى
عروقنـا ·

بول ايلوار ــ قصائد المقاومة

ديسمبر ١٩٥٩

ــ : لماذا ؟

كنت أسأل أبي وعيني غارقة في بحر من الدموع وشهقات البكاء الخانق تاخد بصوتي وهو يحكي لى ولاخوتى استشـهاد الحسين بن على ·

ــ : لماذا ·· لماذا ··

نعم ، لماذا وقد حوصر الحسين من قبل جيوش الفاسق يزيد بن معاويه ، ومنع الماء فى كربلاء ولم يبقى معه سوى أهله ·

لماذا لم يستسلم الحسين انقاذا لحياته ولحياة أبنائه وأهله ، لماذا لم يبايع فى تلك اللحظة والموت يطل عليه من كل ناحية في أرض الكرب والبلاء ممثلا فى آلاف السيوف المشهره، تريد رأسه طمعا فى المال والسلطة والجاه ·

وكان أبي يضمني اشفاقا ويهدىء من بكائي ·

ــ : كان الحسين عظيما ، فلم يكن يخشى في الحق لومة لائم ولا ننسى انه ابن على بن أبى طالب و «فاطمة الزهراء» وسيد شهداء أهل الجنة ·· ولكن الامر لم يكن مقنعا لى تماما وكان هناك شيء ما يكبر معى ، وكان يتساءل :

ماالذى يدفع الانسان لان يرفض ان يقول كلمة يمـكن أن تنقذ حياته وحياة أهله ؟ كلمة واحدة كانت مطلوبة من شهيد كربلاء ليذهب طليقا ومعززا ·

لقد طلب الحسين من قائد الجيش أن يخلى بينه وبين الماء ، ثم يتركه يفكر ·· ورفض طلبه ·.

وطلب أن يعود بأهله الى المدينة ليتقلب الامر ·· ورفض طلبه ·· كان المطلوب كلمه أو الموت . وحمل الحسين سيفه وظل يقاتل ويقاتل حتى خر صريعا وبينه وبين الماء الذى حرم منه بضعة أمتار ·· ولم يقل الكلمة ·· لم يقل بالبيعة المفروضة ، بل اندفع الى مصيره المحتوم وهو يقول بالسيف وتحت التهديد :

فان عشت لم أندم وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

وكان على أن أنتظر فترة طويلة لأمر بتجربة عملية لأعرف الجواب الصحيح على السؤال الذى عذبنى صغيرا اشفاقا منى على حياة الحسين ·

ان الانسان الذى يحمل فكرة او عقيدة ويؤمن بها ايمانا حقيقيا لايمكنه تركها او هجرها تحت وعيد السيف ، ان أصحاب الافكار الانسانية دائما ما يكونون أكثر تفتحا على الحياة أكثر تفتحا على الأفكار والآراء الاخرى ولكنهم أمام البطش والسيف أكثر قوة ، على عكس من لديهم نزعات ارهابية وفرديه ، فان مثل هؤلاء ينكسر بل ويتحطم عند أول عصا ترفع عليه ·

وفى موجة الارهاب الدموى واليومى الذى كنا نتعرض له فى الواحات ، كنت أحس بأن الفكرة التى دخلت بها المعتقل تتحول فى داخلى الى يقين غريب ، كنت كلما تلقيت ضربة شومة او لسعة كرباج أقاومها بمزيد من الايمان بالاشتراكية والانسان ، بقيم الحب والعدالة والكراهية العميقة لكل ماهو حيوانى واستغلالى ، كل مايمتهن الانسان ·· كل من يرفع عصا أو بندقية فى مواجهة فكرة أو رأى ·· بل وكان يجتاحنى احساس بالقوة ، ليس فقط ازاء العساكر والضباط الذين يمارسون التعذيب ، بل وازاء من أمروهم بذلك ·وكان هذا شعورا جماعيا بين كل الزملاء فى تلك الفترة ، ربما فيما عدا زمرة قليلة ممن يتعمدون أن يدسوهم بيننا لاشاعة جوا لاستسلام

والضعف فى مثل تلك الظروف . . وحتى هؤلاء لم يكن ليستطيعوا أن يلعبوا دورهم وسطنا فى تلك الفترة .

وكان الامر غريبا بالطبع بالنسبة للشاويش محمود والشاويش متى وغيرهم من العساكر .

فبينما كنا نقوم بأعمال السخرة اليومية فى الصحراء ناداني الشاويش محمود ، ودار حوار غريب :

ـ : بتشتغل ايه ؟

ـ : صحفى .

ـ : عاجبك الضرب والاهانة اللى بتشوفه كل يوم . . . دانتو بتعاملوا ولا الكلاب .

ـ : طبعا مش عاجبنى

ـ : طب ماتخرج .

ـ : ايدى على ايدك .

ـ : تسيب اللى فى دماغك .

ـ : قصدك أسيب دماغى ..

ـ : ياابنى اخرج ، وانت صغير ، وعيش ، واتمتع بالدنيا، وبلاش حكاية الدماغ دى بيودى فى داهيه .

ـ : آهو لو حصل كده ، ابقى كلب بحق وحقيقى ..

ـ : ياخرابى . انتوا دماغكوا دا ايه .. مصفح .. حجر .. روح . روح .. الظاهر انتو غاويين شقا ..

ولقد كان هذا الحوار أو المناقشات تتكرر كل يوم بين أحد العساكر وبين احد الزملاء .. وخلال شهر واحد ، كانت الغالبيه العظمى من العساكر وحرس السجن اما متعاطفين تماما معنا ، أو على الاقل غير قادرين على تنفيذ التعليمات المشدده التى يشحنونهم بها كل يوم بزيادة جرعات الضرب والتعذيب ، بالرغم أنهم ـ كما علمنا ـ كانوا يختارون لنا أكثر الحرس شراسه وكانوا لايرسلون للواحات سوى من يتوسمون فيهم القسوة بالاضافة الى أنهم كانوا يعدونهم فى مراكز تدريب خاصة حيث تلقى عليهم محاضرات خاصة عن التعذيب وشحنهم بشحنات عصبيه حاقده بتصويرنا على أننا « كفره وملحدون » وخونه وعملاء ... الخ .

ولكن العصى دائما تنكسر فى مواجهة العقول « المصفحة » ..

كما ان اليد المرتعشة والتى لانؤمن بما تفعل بل ولا تعـــرف مبررا معقولا لما نفعل تكون خطرا أكثر على من سلمها البنادق ٠

وهذا ما بدأت بوادره ، وما كان من السهل علينا وعلى قيادة المعسكر أن ندركه ٠٠ وفى الجبل حيث كنا نعمل من السابعه صباحا حتى الرابعة ، بدأ كل حارس يتخذ لنفسه صخرة عالية ويجمع حوله بعض المعتقلين يتبادلون الاحاديث والنكات فى حين يستمر العمل بوتيرة هادئة وبطيئة ٠٠

وقلت بل وكادت تنعدم الشتائم وضربات الخيزران والشوم ٠٠ وأصبح هناك عقد غير مكتوب بيننا وبين الحـــرس فى الجبل ٠٠ هو ان ننهض فقط للعمل وبسرعة اذا لاح فى الافق عربة تقل أحد لضباط أو قائد المعتقل ٠

اخترنا لهذه المهمة زميل خفيف الدم والحركة نحيف الجسم هو عبد الملك خليل كان يقبع فى قمة تل عال فأذا لمح عربة متجهة نحونا يصيح ٠٠ بلوهام ٠٠ بلوهام ٠٠ فينهض الجميع الى الفأس وحمل الرمال والصخور ٠

ولقد ظل الشاويش متى مشغولا فترة طويلة بمعنى كلمة بلوهام ٠٠ حتى أنه اقسم « بالعذراء أم الشهيد » بأن يجلد عبد الملك خليل حتى يبوح له بسر كلمة بلوهام ٠٠ ولم يقتنع الشـــاويش متى ربمـــا حتى الآن بانهـــا كلمـــة لا معنى لهـــا عـــلى الاطـــلاق تفتقت عنهـــا قـــريحة عبـــد الملـــك السـاخرة ٠٠ عـــلى أن الامـــر لم يـــكن يخـــلو فى هذه الايام بأن نفاجأ فى الصباح وقبل ان نصطف فى طابور الجبل بالعنابر تفتح علينا وبالعساكر ينهالون علينـــا ضربا بالقايش والخيزران ٠٠ وعرفنا أن قائد المعتقل كان يحرص على هذه الغارات الصباحية الدامية كل اسبوع او عشر ايام لكى يظل الجو ملتهبا وليبعث فى عملية التعذيب « تنشيطا وحيوية » وكذلك كان يحرص على ان يأتى كل اسبوع الى الجبل فيتحول الجبل يومها الى حركة سريعة تقطع الانفاس وتصفر الكرابيج والعصى على اجسادنا ، ونعود فى مثل هذا اليوم وكل منا يحمل آثارا احمرار على جسده أو دماء متفجرة على جبهته ورأسه ، وفى بعض غزوات القائد كان يعود بعضنا برجل دامية من ضرب الفلقة اوضلع مفقوداو جسد ممزق نتيجة الجلد على العروسة ٠

وفى اليوم التـالى نتلقى الاعتذارات الخفية مـن العسـاكر والشاويشية بل ان احدهم اقسم بالطلاق يمينا لارجعة فيه أنه لن يضربنا مرة ثانية حتى لو كان الوزير هو نفسه الذى يأمره . وثمة معركة اخرى كنا نشترك فيها جميعا ، عساكر ومعتقلين ، فبالاضافة الى الاحساس بالغربة فى تلك الصحراء القاحلة والبعد عـن حيث الزوجه والام والابن والاب كانت المناطق التى نعمل بها مليئة بالثعابين والحيات الخطـــرة والعقارب .. وقد كادت تحدث مآسى كثيرة حيث كنا نعمـل حفاة الاقدام ، وكثيرا ماينفض الانسان قدمه فجأة بعد أن يحس بأن هناك شيئا يزحف عليها ويكتشف انها عقرب من النوع الخطر ، كذلك فأن حية الطريشة « الحية ذات الاجراس » كانت تمثل لنا انزعاجا شديدا وخاصة فقد اكد الزملاء الاطبـــاء مختار السيد وعبد المنعم عبيد وحمزة البسيونى وشكرى عازر وغيرهم أن لدغتها بالقبر . د

وحين يصيح احد الزملاء « طريشة » يسارع الجميـــع بالفؤوس ليقضوا على تلك الحيـة الخطـــرة .. لقد كانت حصيلة اليوم الواحد حوالى اربعة حيات وعشرون عقربا وأكثر من خمسين ثعبانا مختلفة الاشكال والاحجام .. وبدأنا ندرك ما كان خافيا عنا أو عـلى الاقل لم نكن نعتبره مقصـودا فى البـداية .

فالقاؤنا فى هذا المكان بالذات الذى عرفنا فيما بعـــد أن السكان يسمونه وادى العقارب ، خفاة الاقدام شبه عراه فى عمل لاجدوى منه ولا منفعة لايمكن الا ان يكون فيه من الرسم والعمـد بحيث تقـوم الحشرات السـامة بما لم يستطع أن يقوم به همت وزبانيه التعذيب .

وأكد لنا بعض العساكر هذه الفكره وخاصة بعد ان كان اول ضحية بلدغة الطريشة هو واحد منهم ، ولقد عمق ذلك الاحساس بالسخط وبدأت الحواجز تنهار بيننا وبينهم فى كل لدغة عقرب يصاب بها زميل أو يصاب عسكرى بلدغة ثعبان .

ووبدأنا نبلور مطلبا محددا هو ان نذهب للعمل بالاحذية .. وحينما نطق الزميل المهندس سيد عبد الله بهذا المطلب امام قائد المعتقل ونحن فى طابور الصباح استعداد للخروج

انهال عليه القائد ضربا بعصاه اخذها من احد العساكر وهو يصرخ كالثور الهائج ٠

ـ : أنا معنديش مسجون يطلب حاجة ٠٠ ازاى تتجرأ ياكلب ٠٠ كويس انكم لسه عايشين ٠

كانت مفاجأة للمأمور اننا مازلنا آدميين لم نتكيف بعد اكثر من شهرين على معاملة « الحيوانات » التى ارادوها لنا ٠٠ وأعطى اوامره فى ذلك اليوم بأن تزيد جرعات العمل وأيضا جرعات الضرب وأختار أحد ضباطه المقربين والمغرمين بالتعذيب لكى يصحبنا كل يوم الى الجبل ليشرف بنفسه على الشغل ٠

ولحسن الحظ ، وربما لأول مرة يكون للبيروقراطية بعض الفوائد ،فأن الضابط المدلل الذى يضيق بوجوده فى الواحات بعيدا عن القاهرة ونوادي الخمر والقمار ٠ بعيدا عن راقصة الكبارية التى كان مولها بحبها لم يستطع أن يمارس المهمة فيمرمط نفسه كل يوم معنا فى الجبل وسط الاتربة والرمال والشمس المحرقة وايضا وسط العقارب والطريشة والثعابين ٠

فسرعان ما نفض يده من المهمة بعد اسبوع مارس فيه معنا كل عقده وغبائه وحاول أن يغرق احساسة بالغربة فى ذلك المكان بمزيد من الضرب والتنكيل بنا ٠

فكان يكتفى بعد ذلك بالمرور لمدة قصيرة ثم يذهب بالجيب الى مدينة الخارجة التى تبعد عشرون كيلو ومترا عن موقع العمل ، حيث كان هناك ممرضة جديدة فى مستشفى الخارجية يقال ان الجميع كان يتنافس عليها من ضباط السجن الى حاكم المدينة وطبيبها والمهندسين العاملين فيها ٠

ولقد أتاح لنا ذلك « راحة » ما على أى حل ٠٠ وعادت الامور فى الجبل الى ما كانت عليه ٠٠ حركة شكلية ومجموعات الزملاء تجلس فى حلقات تحت شجيرة خروع أو فى ظلال تل تستمع الى قصة او الى محاضرة سياسية او ثقافية او فنية ، والعساكر هم الاخرون ينضمون احيانا الى بعض الحلقات او يكونوا لهم حلقة اخرى من بعض الزملاء القادرين على تبادل النكات والدردشة معهم ٠

وحين نسمع صوت عبد الملك خليل الصاروخ فى البريه « بلوهام » تذب الحركة والنشاط فى موقع العمل فلا نسمع

والحصى . وكان الباشويش مني وهو قائد العمل ممتلئة بالرمال والحصى وكان الباتشويش فتحي وهوقائد العمل في غياب الضابط قد أدمن الجلوس الى الصحفي محمود السعدني والاستماع الى نكاته وحواديته الساخرة والاذعة المعروفة عن السعدني .. وكان ذلك في صالحنا بالطبع وخاصة حين يجلس مني فوق صخره كالملك ويقبع السعدني بجانبه مضحكا للملك وتنطلق ضحكات متى الضخمة ويعزم على السعدني بسيجارة ونجز كاملة .

ولقد سافر الباشجاويش متى الى بلدته بجوار أسيوط فى اجازة لبضعة ايام وعاد يمارس عمله وجلساته مع مضحك الملك .. الا اننا فوجئنا في يوم من الايام بالشلويش متحى بجسده الضخم يجرى وراء السعدنى الذى اخذ يهرول ويتدحرج على التلال كالفأر الصغير ومتى يقسم « بأم المخلص » ليحطمن رأسه بالشومة .. وتدخلنا بالطبع فى محاولةلتهدئة الشاويش متي ومعرفة السبب فى هذه القطيعة التى لم تكن متوقعة بين الشاويش الهائج والصحفي المذعور .

كان الشاويش متى منذ اليوم الاول لعودته من قريته مهموما حزينا الامر الذى جعل محمود السعدنى يحاول ان يهون عليه ليعرف سبب حزنه .

ـ أصل الواد ابني اخد الإعدادية

ـ طيب ودى حاجة تزعل ياحضرة الصول دا ابنك يبقى عبقري

ـ أصل اللى مضايقنى ياسعدنى ان الواد عاوز يكمل تعليمه والحال زى ما أنت عارف يدوبك عالقد .

ـ ياراجل واحد عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه وأهو التعليم بالمجان وربنا يساعدك لحد ما ياخد التوجهية

ـ طيب وبعد الثانوية يا سعدني .. يروح فين

ـ يروح الجامعة ياحضرة الصول .

جامعة ايه انت راخر .. هو انا معايا صلدى واحد .. د أنا بستلف على ماهيتى قدها مرتين علشان أمشى حالى .. تقوللى يروح الجامعة .

ـ طبعا لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى كده ماتحرموش من أنه يكمل تعليمه ويروح كلية الطب والا الهندسة والــلا

الحقوق واللا الآداب ويبقى مثقف ٠

ــ مثقف ٠٠ يافرحتي ٠٠ طب وبعد كده

ــ ييجى هنا معانا يا شاويش ٠

ثم أشار السعدنى آلينا وهو يقول :

ــ أهم كل اللى انت شايفهم دول جم هنا علشـــــان بقم مثقفين ٠

وهنا بالطبع لم يتحمل الشـاويش متى سـخرية محمـود السعدنى فلم يكن الرجل يتصور أن ابنه العزيز والعبقـرى يأتى الى هذا المكان ليعامل « كالكلاب » مثلما نعامل ٠

وقام وراء السعدنى يقسم ليحطمن رأسه ٠٠ ولكن الامور عادت الى مجاريها بعـد يومين بين الشاويش متى ومحمـود السعدنى ، وبذلنا كل ما فى وسعنا لأرضاء الشـاويش وقام السعدنى ومعه جوقته المكونه من القاضى أحمد البدينى والكاتب أحمد شوقى عبد الحكيم وعامل ماتوسـيان نصر عبد الرحيم باغراق متى مرة أخرى فى بحر من النكات والقفشات الخفيفة التى انسته جريمة السعدنى ٠٠ ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ٠

فلقد عرفنا عن طريق السجانه أنهم سيرحلون الى سجون أخرى لان فرقة جديدة فى طريقها الى الواحات ٠

ولم يكن من الصعب أن نعرف السر وراء هذا التغيير فلقد ادركوا أنه بالرغم من التدريب الخاص للعساكر وبالرغم مـن النوعيات الخاصة التى يتم اختيارها وبالرغم من كل الاجراءات التى اتخذت معنا والتى تحرمنا من كل شىء يمكن التأثير به على العساكر ، الا أن عقولنا المصفحة قادرة على النهاية على أن تهز أعماقهم فتتكسر فى أيديهم ادوات التعذيب وتذوب كلمات الاهانة فى حلوقهم ، ويضيع كل شىء مصـطنع ولا يبقى فى القلب سوى الود والتقدير أو على حسب تعبير حـد العساكر الذى كان معروفا بقسوته الشديدة معنا ٠

ــ : كنت أضربكم بحرقة كنت أريد لكم الموت ، فأنتم كفار وخونة وعملاء ٠٠ هكذا قالولى ٠٠ ثم اكتشفت بعد ذلك انكم أكثر الناس ايمانا وأكثرهم اخلاصـا وأكثر الناس حبا لمصر ولشعب مصر ٠

كانوا يصعدون ويصعدون
نحو الجلجثه والمسيح فى الامام
وركبتـاه تلتويان تحت ثقل
الصليب والعذراء خلفهم وآلاف
مؤلفة من العيون تبكى .
ومن أحشاء الارض خـرج
صوت .. لاتبكي ياسيدتنا..
تشـجعى لتعطى الشـجاعة
للعالم .

(الانجيل)

٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٩

الساعات الاخيرة من عام ١٩٥٩ والشمس والتلال والصحراء لاتدرك ولا تعى أن حدثا كبيرا قد هز الانسان فى مثل تلك الذكرى حين ولد مسيح البشرية ومخلصها الذى جاء يرفع سيف الحق والعدالة فى وجه الظلم والاضطهاد والتعسف يرفع سيف الفقراء والرعاه والصيادين والمضطهدين فى وجه القيصر والحاكم والكتبة الفريسيين الذين عاثوا فى الارض فسادا وملأوا من عرق المتعبين قنينة النبيذ .

والشمس والتلال الصحراء ومعها هؤلاء الجنود الظالمين والمظلومين لايدركون أن هؤلاء الحفاه والعراه الذين تمتزج فى جبهاتهم حبات العرق والاتربة والرمال ، وتنحل أجسادهم وتغور أعينهم ويستبد بهم الجوع ما زالوا يؤمنون ، مثلما آمن المسيح بالانسان المتحرر من الخوف والاضطهاد واستغلال اخيه الانسان يحملون مثلما حمل المسيح صليبهم كل يوم فى رحلة العذاب ويدركون ايضا مثلما بشر المسيح بأنه لا يفيد الانسان اذا كسب العالم وخسر نفسه .

والعساكر الجدد جاءوا منذ أيام ما زالوا منجهمي الوجة لا يدركون مثلما أدركت الدفعة السابقة انهم امام تلامذة المسيح المخلصين ووارثي كل قيم العدالة الاسلامية الذي نادى بها سيدنا محمد وطبقها حلفاؤه الراشدون واستشهد الحسين بن علي من اجلها .

ولدى عودتنا من المعتقل بعد يوم عمل شاق كان كل ما يشغلنا هو كيف نحتفل بهذه المناسبة ، والحقيقة انه طوال العشرة ايام السابقة على رأس السنة كانت تجرى استعدادات حافلة وعلى قدر الامكانيات المتاحة للاحتفال فى وقت واحد بعيد الميلاد وبمرور عام على بدء اعتقالنا .

فبدأ الزملاء المسجونون يخزنون لنا بعض السكر والشاى لنتذوق هذا المشروب الذى لم نره منذ حفلة اللواء همت الدموية الا فى ايدى الضباط فى الصباح ، كما اعدت لجنة الحياة العامة التى كانت تتولى تنظيم حياتنا الداخلية بما فى ذلك الاتصال بالادارة وتدليك العساكر ، مفاجأة عظيمة تمثلت فى كمية من السجائر استطاعت ان تحصل عليها بوسائلها الخاصة لكى يمكن توزيع سيجارة على كل معتقل فى تلك المناسبة ، وتم ترتيب كل شىء بدقة بالغة .

وعندما أغلقت بوابة العنبر الرئيسية بدأت الاحتفالات على الفور .. وفى كل غرفة أشغل الموقد ـ التوتو ـ ووضعت « أكواز » الشاى لتعطر الغرفة وجلسنا نتأمل التوتو والشاى تماما باحساس الانسان الاول حين وجد النار تشتعل فجأة حين ضرب زلطة بقدمه فاصطدمت بأخرى .. كما وزع على كل فرد سيجارة وينجز كاملة . وأسندت ظهرى ورأسى الى جدار الغرفة وبجوارى الشاعر محسن الخياط وعامل النسيج مصطفى درويش واشعلت سجارة .. واخذت نفسا عميقا غريبا موحيا لم اجربه قبل ذلك .. كانت رائحة الدخان والكبريت والشاى والعيون المتحفزة التى تنتظر دورها لترتشف قطرات الشاى مع دخان السجائر تشكل صورة رائعة وحزينة ، وناولت السيجارة الى مصطفى درويش الذى كان فى وضع شبه راقد فوضع ساقا على ساق ووضع السجارة فى فمه بشكل ارستقراطى ثم اخذ

نفسا طويلا كاد ينهى به السيجارة ·· ونطق محسن بالشعر وهو يشير الى مصطفى

شوف مصطفى درويش

لما تبرجز شرب الوينجز ·· فين مصطفى درويش

وأخذنا نردد كلنا الاغنية بصوت جماعى بينما مصطفى يكتفى بان يهزقدمه على اللحن ·

ثم بدأت الغرف الاخرى ، وكان العنبر يتكون من عشرين غرفة فى كل غرفة حوالى ١٥ فردا ، تدخل فى حالة الانسجام والاحتفال ·· فكان على كل غرفه أن تقدم عملا جماعيا ، أغنية أو نشيد أو تمثيلية · وقدمت غرفة واحد اغنية « فى يوم فى شهر ·· فى سنة »

تخلى السجون وتنام ·

وعمر سجنى انا اطول من الايام ·

وقدمت غرفتنا اغنية

فوق الشوك مشانى زمانى ·

وغرف اخرى قدمت بعض التمثليات المضحكة او بعض القفشات والنكت ، وغرف قدمت اغانى سيد درويش · وماج العنبر كله بحياة متدفقة مليئة بالامل والضحكات · وانقضت ساعات الليل الاولى ، ولاول مرة فى سجن الواحات ، سريعة خفيفة وتلاشت الاسوار وفقدت تماما الاحساس بالسجن وصاح احد الزملاء ·

ـ عنبر كله يسمع ·· بعد عشر دقائق هيبدأ اول يوم فى السنة الجديدة تحية حب مننا لكل أبناء وبنات مصر ، لأولادنا ولأبنائنا وأمهاتنا وزوجاتنا ولأصدقائنا وصديقاتنا ، لكل طفل ولكل شيخ لكل ولد ولكل بنت ·· ولمصر أمنا وأختنا وحبيبتنا وانطلق يغنى بصوت أجش ·

بلدى يابلدى وأنا نفسى أروح بلدى

يا عزيز عينى السلطة خدت ولدى

وانطلقنا كلنا نغنى الاغنية التى كان يشدو بها اجدادنا حينما اخدوهم الى الصحراء حيث ضاعت حياتهم دفاعا عن المستعمر وأذنابه ·· وأخذت أغنى بانفعال صوتى ، وتجسدت صورة أبى زقد اكتسى وجهه الاسمر حزن وأخذ صوته يرن فى آذانى

يا عزيز عينى .. السلطة خدت والدى
انتباه .. انتباه .
صوت آخر فجر الضحكات لدى الزمـلاء . كان تقلدا متقنا لصوت حارس مأمور السجن ولكن الصوت عاد يتكرر ولم يكن فى الامر تقليد اذ فتح باب العنبر فجأة ودخل العساكر فى خطوات سريعة وخلفهم المأمور وعـدد مـن الضـباط وهم يوزعون شتائمهم البذيئة علينا وعلى ابائنا وامهاتنا بل والبلد التي قدمنا منها . مسكينة مصر . !!

وفتحت الغـرف غرفة غرفة وهجم التتار علينــا بالعصى والقايش وأوامر مشددة .. كله يبص للحيط .

وصمت العنبر الا من صوت المامور وشــتائمه وأوامره للعساكر بتشديد الضرب وبعض التاوهات المكتومة وأرتطـام الاجساد بالحائط أو بالقايش والعصى .

وتحول الموقف كله الى نكتة سخيفة ومقززة فى نفس الوقت .. فبعدما انسحب المأمور وزبانيته بعد أن أوسعونا ضربا فى الدقائق الاولى للعام الجديد ، اكتشفنا ان هناك دفعة جديدة من المعتقلين قد وصلت الى السجن وقام المأمور بحملته الهمجيـة لتوزيعهم على الغرف وكان نصيب كل غرفة اثنين او ثلاثة .

كانت الدفعة الجديدة ممن قضوا السنة الماضية فى السجن الحربى نظرا لان معظمهم من المجندين والضباط ومعهم ايضا عشرون من ابناء قطاع غزة المعتقلين منهم الشاعر الفلسطينى معين بسيسو وعبد القادر ياسين وديب الهر بيطى ومديـر التعليم فى قطاع غزة .

وبسرعة استعدنا مبادرتنا بعدما اغلق العنبر مرة اخـرى وكانت الخسائر بعض الكدمات والجـروح البسيطة وأخـذنا نرحب بالزملاء الجدد وبفرحة حقيقية .. فهم قادمون مـــن القاهرة الحبيبة ، القاهرة البعيدة .. ولاشك ان لديهم الكثير من الانباء وخاصة انهم نجحوا فى عزلنا تماما طوال الاشهر الماضية عن أى اخبار او انباء وبدأنا نمطر الزملاء بالاسئلة .

كيف الحال فى القاهرة هل قرائتم الجرائد واخبار زملائنا المعتقلين الذين تركناهم فى الفيوم والقلعة ، والعلاقة حاليا بين مصر والعراق .. وبين مصر الاتحاد السوفيتى .

وبدأ محمد طه ، المجند والذى قضى فى السجن الحـربى ثمانية شهور يحكى وفى كل كلمة قالها كانت هناك اكثر من مفاجأة ٠

عرفنـا أن هناك خلافا نشأ بـين قادة حزب البعث وبـين الرئيس عبد الناصر وأن أكرم الحورانى وصلاح البيطـار وغيرهم من قيادات الحزب قد قدموا استقالتهم احتجاجا عـلى ما سموه انتهـاك الديمقراطية ، وأبتسمنا كلنـا فى سخرية وخاصة ان الحوراني والبيطار وكان احدهما يشغل منصب نائب رئيس الجمهـورية كانا منذ شهور فقط أكثر النـاس هستيرية فى الهجوم على الشيوعيين وأتهامهم بأنهم « معادون للقومية العربية » لمجرد انهـم كانوا يتصـورون ان الاسـس الديمقراطية هى وحدها الكفيلة بدعم الوحدة ٠

هكذا أخذت قيـادة البعث درسا بعـد أن كانوا يقيسون الديمقراطية بمدى قربهم أو بعدهم هم عن السلطة ٠

وعرفنا ايضا ان هناك اتفاقا مصريا سوفتيتيا ببناء المرحلة الثانية للسد العالى وأبتسمنا كلنا فى رضى هذه المرة فلقد كنا ندرك انه ليس فى صالح مصر ولا فى صالح الاتحاد السوفيتى أن تنشب خلافات بينهما تلك الخـلافات التى عملت القـوى الاستعمارية والرجعية على تعميقها وتوسيعها طول العام الماضى والتى كانت تريد ان تجنى ثماره في ابعاد مصر عن عمليـات التصنيع والتنمية لكى تظل مجتمعتنا استهلاكيا اسـيرا للمجتمعات الصناعية الغربية ٠

وعرفنا ايضا ان يورى جاجارين رائد الفضاء السوفيتى قد حلق بمركبته فى الفضاء معبرا عن قدرة العلم فى تحقيق أحلام الانسان من أجل مزيد من الخبرة والاستكشافات وليس مـن أجـل الاستعمار والقهر ٠٠ وصـفقنا طويلا للنبـأ وقام أحد الزملاء العمال يرقص وسط الغرفة ، وشرع محسن الخيـاط ينظم قصيدة شعر بتلك المناسبة ٠

جاجارين يسافر الى القمر والفضاء رمزا لانتصـار الانسان ونحن نسافر الى غياهب القرون الوسطى ، ولكن محمد طه كان يحمل أخبارا أخرى قتلت الابتسامة على الوجوه وحملت معها

جوا من الكآبه الثقيلة ٠٠ لقد روى محمد طه أن هناك معتقلين أخرين القي القبض عليهم وانهم ومعهم زملائنا الذين تركناهم فى معتقل الفيوم يقيمون الان فى معتقل أوردى ابو زعبل فى ظروف غاية فى القسوة ٠ كان من الواضح أن ما تم فى الواحات على يد همت وفرقته تم أيضا فى أوردى أبو زعبل مع مزيد من النضج والاتقان ٠

وعرفنا أن زملائنا هناك منذ أن زارهم همت يخرجون للعمل فى الجبل مع تكثيف شديد فى الضرب والاهانة وانهم حتى الان مازالوا يعانون من وطأة اساليب التعذيب الوحشى التى يمارسها عليهم قائد المعتقل حسن منير ومعه ضابطان اخران هما يونس مرعى وعبد اللطيف رشدى ٠

وأخذ محمد طه يحكي تفاصيل غريبة عن أساليب التعذيب التي مازالت تمارس مع المعتقلين في الاوردى ، فبالاضافة الى العمل الشاق في الجبل والجلد المستمر على العروسة يجمعون فى الصباح للقيام بطابور رياضى لمدة نصف ساعة حيث يطلب منهم ان يقدموا هتافات معينة او اغانى يحددها لهم الصول مطاوع ٠

حقيقة اننا عانينا ومازلنا نعاني من امثال هذه الاساليب ولكن الصحراء والبعد عن القاهرة والاحساس بالنفى لدى الجميع معتقلين وعساكر وضباط قد خفف كثيرا من « التطبيق » وأستطعنا أن نكسر الحلقة فى عدة نقاط ٠ ولكن الزملاء فى أبى زعبل كانوا سىء الحظ لقربهم من القاهرة حيث الاشراف المباشر للأجهزة وأيضا لوجود ثلاثى حسن منير وعبد اللطيف رشدى ويونس مرعى الذين عرفوا بشراستهم واستمتاعهم بعمليات التعذيب ٠٠ وحينما وصل الراوى فى حكاية الى استشهاد الزميل الطبيب فريد حداد نتيجة التعذيب خرجت اكثر من صرخة ملتاعة ٠٠ كان الدكتور فريد حداد طبيبا باطنيا مشهورا تقع عيادته فى أول شارع شبرا ، وكان معروفا بدماثة خلقه ورقته الشديدة وعلاجه المجانى للفقراء الامر الذى كسب له احتراما وحبا شديدا بين أهالى الحى ٠

وحين القي القبض عليه ودخل الى أبى زعبل ضمن مجموعة صغيرة من الزملاء أجروا معه بروتوكول الاحتفال فى الضرب

عند البوابه وتجريدة من ملابسه وجره من قدمه للمسئول أمام قائد المعتقل حسن منير ٠

وتقدم الضباط يونس مرعى لاعب الكره الفاشل والذى عرف عنه انه يفتقد شيئين العقل و !! وسأل فريد حداد ٠

ـ اسمك ايه ياولد

ـ الدكتور فريد حداد

ـ دكتور ايه يأبن القحبة ـ اديله ياعسكرى

ـ انت شيوعى ياولد

ـ أنا مصرى أومن بالاشتراكية

ـ يعنى شيوعى ، مصنوع فى روسيا

ـ انا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمـــــال والفلاحين

ـ بترد على ياولد يابن الـ٠٠ ٠

انهـال يونس مرعى ومعـه بضعة عساكر بالعصى ودبشـك البندقية يحطمون رأس وجسد فريد حداد ، وصـــاح فريد فى وجه يونس مرعى ٠

انت كلب فاشيستى

وبصق فى وجهه ويقال انها مازالت بقعة ماثلة على وجه الكلب الفاشى حتى الان بالرغم من كل المحاولات التى قام بها لازالة أثارها ٠٠ ثم سقط فريد شهيدا ٠

وخيم الصمت ، ذلك الصمت المشحون بأسى الانفعالات ، وتساقطت دموع ساخنة ، وانتخب بعض من عرفوا الشهيد عن قرب بينما راح محسن الخياط يردد قصيده للشاعر الفرنسى بول ايلوار الذى مات فى سجون النازى وهو يدافع عن باريس الحبيبة ٠

باسم العيون التى انظر اليها

من أجل اليوم وللابد ٠

باسم الامل فى المسجون ٠

باسم الدموع فى الظلمة ٠

باسم الرجال فى السجن

بأسم جميع الرفاق

الشهداء والقتلى
لانهم لم يقنعوا بالظل
دعوني أنفس عن غضبي
واستثير الحديد
لنحفظ الصورة العالية
للأبرياء الكادحين في كل مكان
والذين سينتصرون في كل مكان
والذين سينتصرون في كل مكان

- ١٣ -

الظلم يضرب في كل مكـان
يضرب الابرياء والابطـــال
والمجـانين ، ولكني سـمعتهم
يضحكون في الشـقاء والتعذيب
يضـحكون للغـد ويولـدون في
الضحك .

(بول ايلوار)

٨ يناير سنة ١٩٦٠

كنت ومازلت متيما بالشاعر الهندى رابندرات طاغور .. ولقد قيل عنه وعن شعره الكثير فهو شاعر الحب والسلام وهو المؤمن بالانسان المقدس للمرأة المناضل من اجل المتعبين .

ولكن شـيئا آخر كان وما زال يخاطب أعماقى وأنا اقرأ أشعاره ، تلك هى جذورة الحزن الكامن والذى يحوله الى طاقة غريبة يمكنها أن تشع فيضا من الامل والاحلام .

ذلـك الحزن الخصب القـادر على الخلق والابداع هو الذى جعله يغنى للحياة .

لا أريد ان اموت في هذا العالم الجميل
أريد ان احيا مع البشر .
فى ضوء الشمس
فى الحديقة المزهرة
وسط القلوب الحية دعني اجد مكانا
دعني ازرع صباح مساء زهور من أغان جديدة .

ولقد كان علينا أن نزرع زهور أغان جديده وسـط تلك الصحراء القاتلة ومع كل تلك الانباء الحزينة عن زملاء آخرين لنا يعيشون فى القرون الوسطى فى غابة أوردى أبى زعبل على بعد ثلاثين كيلو مترا من القاهرة ..

الطريق .. الطريق ..

مجلة تسمع ولا تقرأ ·· بعد خمسة دقائق فى عنبر واحد ·· وولدت أول مجلةصوتية فى ردهات عنبر (١) تقدم الصورة والخبر والكاركاتير والتحليل السياسى والنقد الادبى والقصة والشعر ·

كل دلك يقدمه رؤساء التحرير بأفواههم ·

ونجحت التجربة وتكررت وبات المعتقلون ومعهم الزملاء المسجونين ينتظرون الساعة الثالثة من يوم الخميس كل اسبوع ليسمعوا اخر اخبار مصر والعالم الخارجي مع كل الابواب التي يمكن ان تصدر بها مجلة اسبوعية مكتوبة مع فارق واحد انها مجلة منطوقة تسمع ولاتقرأ ·

وقد كنت واحدا من ثلاثة يرأسون تحرير المجلة التى اشترك فيها بعد ذلك عدد من كبار المثقفين المصريين والفلسطينيين من أمثال الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وأبو سيف يوسف وأديب ديمترى وأير اسكندر والدكتور فؤاد مرسى والدكتور عبد العظيم انيس ومعين بسيسووطاهر عبد الحكيم وحمدى عبد الجواد ومصطفى طيبة وعبد القادر ياسين وسعيد عارف والدكتور فوزى منصور ·· ولم تمض اسابيع قليلة حتى ظهرت مجلة اخرى من نفس النوع هى مجلة الهواء واشترك فيها أيضا بعد ذلك عدد أخر من كبار الكتاب والشعراء من امثال محمود امين العالم وابراهيم عبد الحليم و صلاح حافظ والدكتور شريف حتاته ورفعت السعيد و عادل حسين ··· وكان من الواضح أن كلا من مجلة الطريق والهواء كانت ردا فكريا على الواقع المر الذى حاولوا فرضه علينا سواء فى الواحات أم فى أبى زعبل ·

وقد بدأنا نكسر الكثير من الحلقات التى كانت تعمل على عزلنا عزلا تاما عن الحياة خارج سور الصحراء الواسع والممتد، وبدأت تصلنا الجرائد — سرا — كما بدأنا فى استخدام العساكر فى ارسال الخطابات الى ذوينا واستلام خطاباتهم سرا ·

وحاول مأمور السجن والحق يقال ان يقاوم كل ذلك فبدأ بحملات تفتيشية مكثفة بحثا عن الاوراق والاقلام التي كانت تعتبر أم الكبائر بالنسبة لنا ، كما حرص على أن يراقب بنفسه العمل فى الجبل ولكن ارادتنا كانت أقوى ، كما أن هناك حدثا

أخر كان بمثابة الطعنة القاتلة التى اصابت غطرسه المأمـــور وتعسفه ٠٠ فذات ليلة فوجئنا بالعنبر يفتح واستيقظنا على صوت المأمور وهو يصيح ملتاعا ٠٠ عاوز دكتور من فيكم دكتور ٠٠ وخرج له ليلتها الدكتور حمزة البسيونى والدكتور مختـــار السيد والدكتور رزق عبد المسيح ٠٠ وذهب بهم الى الفيـــلا المخصصة له على بعد ثلاثة كيلو مترات من المعتقل حيث كان يرقد ابنه الصغير وقد استبدت به الحمى حتى قطعت انفاسه وأيقن المأمور أن ابنه قد ما ت ٠

ولم تحدث المعجزة مثلما تصور بل ان الامر ببســـاطة أن الاطباء الثلاثة الذين ذهبوا معه كانوا يعرفون عملهم جيـــدا واستطاعوا بوسائل بدائية وبخبرة أن يعيدوا الى صدر الطفل الصغير الهواء الذى كاد أن ينقطع بل وتمكنوا خلال عـــدة ساعات تخفيض درجة الحرارة حتى استطاع الطفل الذى كان يعتبره ميتا منذ ساعات أن ينهض من فوق فراشه وأن يتكلم

ومنذ تلك الليلة والمأمــور الذى كان يتباهى بقـــدراته الجسدية وقوته والتى كان يمارسها معنا فى زهو وخيلاء ، قد أصبح يتجنب دائما أن يلقانا بل أنه سرعان ما اســـتجاب لمطالبنا فى أن نحول جهدنا الذى نبذله فى الجبل والصحراء فى عمل لاعائد منه الى عمل اخر يمكن ان يكون نافعـــا لنا وللسجن كله ٠

وبدأت قصتنا مع « المزرعة »

فقام عدد من الزملاء المهندسين بمسح المنطقة التى تقع بين السجن وبيوت الضباط وتقع فى حوالى مائة فدان ووضـــعوا مشروعا متكاملا لاستصلاح تلك الارض مستفيدين من وجود بعض ابار المياه القريبة من بيوت الضباط وبدأت رحلة الخروج اليومية تتجه نحو المزرعة ٠٠ وبخطة علمية مدروسة وبحماس ذاتى من جانبنا بدأ تنفيذ المشروع ٠٠ والغريب اننا بدأنا نعمل بجدية فلقد كان اســـتنبات الزرع فى تلك الصحراء يعنى بالنسبة لنا اشياء كبيرة ٠

فالفكرة فكرتنا والجهد جهدنا وأيضا فاننا كنـــا فى امس الحاجة الى الكثير من الغذاء وخاصة الخضر والتى كنا نفتقدها تماما ٠

فطوال العام الماضي وبالذات منذ بدأنا نخرج الى الجبـــل وهناك احساس بالجوع الدائم فاروائه العدس والفول وقطعة الجبنة القريش والارغفة الثلاثة التي كانت تصرف لنا يوميـــا كنا نلتهمها فور عودتنا من الجبل ليبقى الانسان حتى الساعة الرابعة من اليوم التالى وهو يعيش في حالة من الجوع الدائم ·

ولقد كان هناك بعض الزملاء الذين يحرصـــــون على ان يحتفظوا بكسرة خبز يتناولونها في الصباح قبل الذهاب الى العمل وكم كانت تحسدهم الغالبية وانا منهم ·

لقد كان بيننا ماهو مصاب بقرحة في المعدة أو التهاب فى القولون · ولكن الجميع كانوا يلتهمون الفول والعدس بنهم والغريب أن الزملاء المرضى بالامعاء عاشوا ولفتـــرة طويلة لايشكون ألما ولكن ذلك لم يكن يعني أن المرض انتهى بل كان يعني أن ارادة الحياة القوية لديهم كانت تمنحهم الرغبة والقدرة على تحمل الظروف الصعبة التى نعيشها ·

وقد بان أثر ذلك بعد فترة حينما بدأ يتساقط عدد مـــن الزملاء بأمراض قاتلة فى المعدة منهم من وصل المرض معه الى درجة لم تستطع أن تنقذه من براثن الموت ·

ففي أول يناير ١٩٦٠ سقط على متولى الديب العـامل فى مصنع الألياف بشبرا الخيمة بعد أن اصيب بدوسنيتاريا قاتلة ، ومات العامل الشباب (٢٨ سنة)ونحن لانملك سوى أن نصرخ فى وجه الادارة العاجزة محتجين على سياسة القتل البطيء التى تمارس معنا ·

وفى نفس الوقت تقريبا وفى زنزانة مظلمة فى معتقل ابى زعبل مات المهندس الشاب رشدى خليل (٣٠ سنة) بعد أن تمزقت أمعاؤه من الحمى ·

وبدأنا نفيق على حقيقة مرة ·· هي انه يبدو ان هناك حكما بالابادة قد صدر ضدنا فمن لم يمت بالتعذيب قتله الجـــوع والمرض ·

ولهذا كله كان حماسنا للعمل فى المزرعة دفاعا عن الذات ومحاولة الافشال من مخطط الموت البطيء الذى بدأ يؤتى ثماره وكان الانفعال الواضح على وجه المهندسين عبد المنعم شـــتلة

وحسين طلعت وهم يستحثون الزملاء للعمل يحمل هـــذا المعنى ..

على أن الايام الاولى للعمل فى المزرعة قد شـــهدت مأساة هزلية .. ففي فترة الظهيرة كنا نأخذ راحة لمدة ساعة نستنجد بظلال بعض شجر الخروع المجاور لبيوت الضباط من وطأة الشمس القاسية وكانت الاشجار وقتها محملة بثمار الخروع .

وقال ظريف عبد الله المحامى وهو يلتهم ثمرة من تلك الثمار لجمع حوله

لذيذ .. طعمه مثل اللوز .

وكان الجوع الشديد الذى نعانية كافيا لاقناعنا بالتهـام ثمار الخروع .. واشترك في المادبة اعـداد واسـعة حتى الدكتور مختار السيد افتى بأن آكل الخروع صحى .

وضاعت صراخات عم نوح فلاح البحيرة وهو ينهر الزملاء ويحذرهم من آكل الخروع الذى « لاتأكله الحمير » ولكن الجوع المستبد وثناء ظريف عبد الله وفتوى الدكتور مختار اغرتنا يتناول ثمار الاشجار الموجوده .

الجميع بالتهام الثمار المحرمة .. وبعد اقل من ساعة كنا قـد تناولنا كل ثمار الاشجار الموجوده .

وكانت ليلة مبكية مضحكة .

فبعد ساعة من اغلاق العنبر والغرف بدأ عدد من الزمـلاء يحسون آلام حاده في امعائهم وأنتاب البعض اسهال شـديد ثم قيء ، ثم بعد نصف ساعة اخرى كان من الواضح ان اعداد كبيرة من الزملاء قد اصيبوا بالتسمم .. وبدأنا ندق الابـواب بعنف نستنجد بالعساكر ليفتحوا الغرف ، وكانت كل لحظة تمر يسقط اكثر من زميل فاقد الوعي بعد أن انهكه الاسهال والقيء ..وقال البعض انها مؤامرة من نوع جديد تقتلنا ..اما الزملاء والاطباء فلقد بدأو ينصحون ببعض الاسـعافات الاولية لمن وصلت حالتهم الى درجة الخطورة والاغماء .

وحضر المأمور ومعه قوة السجن وفتح العنبر والغرف التى تحولت بسرعة الى مستشفى ميدان وبدأ الزملاء الاطباء وكانوا حوالى ١٢ بما فيهم الطلبة فى السنوات النهائية في الكلية ، بأجراء بعض الاسـعافات وذهبت عربة السجن الى مدينـة

الخارجة لتحضر بعض الادوية المتاحة والغريب أن عم نوح الذى حظر الزملاء من اكل الخروع هو الاخر يتلوى من الالم ثم اعترف بأنه تناول بعض الحبات حينما اثنى الدكتور مختار بأنه صحى أما الدكتور مختار نفسه والذى تناول اكثر من مائة حبة فلقد ظل يتكابر ويخفي الامه بينه وبين نفسه ليؤكد نظريته ثم سرعا ما انهار وسقط هو الاخر يتلوى ٠

وحتى الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم كان الموقف خطيرا فحوالى ثلث المعتقلين يواصل عملية القيء والاسهال ويصل ببعهم الى مرحلة خطيرة والثلث الاخر ممن تناولوا كمية محدودة ـ وقد كنت منهم يتحامل على نفسه في محاولة لاسعاف الزملاء الآخرين في حين كان هناك مجموعة أخرى ولحسن الحظ لم نخرج للعمل في هذا اليوم للقيام بأعمال النظافة داخل العنبر ٠

وامتلاء العنبر بالحركة وصراخ الالم المكتوم تماما مثل أى مستشفى في ميدان المعركة وقرر الاطباء نقل ٢٠ زميلا على الفور الى مستشفى الخارجة حيث كان نبضهم ضعيفا ودخلوا فى مرحلة الخطر بينما اجرى لعدد كبير اخر عملية غسيل للمعدة أو اعطاء بعض المضادات للتسمم ٠

وليلتها لم ينم احد فى المعتقل ، سوى الزملاء الذين راحوا فى غيبوبة استمرت أكثر من يومين وامكن انقاذ حياتهم بعد جهود مكثفة ولكن الى حين ٠

فلقد تبين بعد ذلك ان الفنان أحمد البيكار الذى مات بعد عام نتيجة سرطان فى الامعاء والعامل على زهران الذى مات ايضا بعد حوالى عام ونصف نتيجة تسمم فى البولينا كانا يدفعان ثمنا غاليا لتلك المأساة التى عشناها مع الخروع ٠

ولقد تصور مامور السجن الذي أصبح اكثر انسانية أن من واجبه أن يرسل لحسن المصيلحى ٠ مدير ادارة المباحث العامة فى ذلك الوقت ليخبره بما حدث ربما املا في ان يأمر المصيلحى صاحب الامر والنهي فينا بتخفيف بعض الظروف التى نعيشها وخاصة حالة التجويع البطىء ٠ واهتم المصيلحى برسالة المأمور وبعث له على الفور برقية يهنىء المأمور فيها بسياسته الحازمة ويعلن سروره بما حدث !!

ثم بدأوا يدقـون المسيح بالمسامير .
عنـد الدقـة الاولى اهتزت الفلك .
وعند الدقة الثانيـة نزلت الملائكة من السـماء يغسلون جروحه .
وعند الدقة الثالثة فقـدت العـذراء الوعى ومعها العـالم أيضا .
وغرقت الارض فى الظلام
« الانجيل »

يونيو سنة ١٩٦٠

الطوارىء

حتى الجو أعلن حالة الطوارىء وتحولت الشمس الى بقعـة صفراء مختنقة ورياح خماسينية معربدة تعصف بأطنان الرمال المتوفرة ووسط كل هذا حركة فى الادارة يشترك فيها المأمور والضباط والحرس تماما مثل حركة الرمال المتحركة التى تلقى بها الرياح لتصل الى أعتاب العنبر والغرف .

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ولم نخرج الى المزرعة وكلما سألنا كانت الاجابة : الظاهر فيه حاجة ، وأخيرا فتحت الزنازين وتجمعنا فى فناء السجن وقد استبدت بنا الظنون فمن قائل ان هناك ترحيلة ومن مؤكد ان حفلة تعذيب أخرى تعد . أما الغارقون فى أحلام التفاؤل فلقد راحوا يؤكدون أن هناك افراجا ويستدلون على ذلك ببرقية عاجلة وصـلت الى المامور أمس لم يعرف أحد محتواها وان كان شهود العيان من العساكر يؤكدون ان ملامح المأمور وهو يقـرأ البرقيـة كانت

تعكس اهتماما بالغا وحين تجمعنا في فناء السجن المكشوف نسينا تماما غضبة الرياح ولطمات الرمال في انتظار مايمكن أن يحدث أو ان يكون مدبرا ان يحدث وأخيرا جاء المأمور ولم يجلس على الكرسى الذى كان معدا له بل وقف يتأمل صفوفنا المتراصه الجالسة القرفصاء لعله يشبع نفسه ببقايا مازالت عالقة به حتى بعد ليلة مرض ابنه وهو يدرك انه النجم الذى تنجذب اليه كل الانظار وانه القائد الآمر الناهي فى عباد الله ٠

والواقع أن شخصية الرائد فريد شنيش يستحق بالفعل أن تشد اليها انتباه مخرجي المسرح لانه من السهل أن يجد فيه تلك الشخصية الطبيعية دون أى انفعال او تمثيل شخصية المختال والمعجب بنفسه ٠ خمس دقائق وقف فيها ذلك الممثل الممتاز على خشبة من الرمل وأمامه جمهور من الحفاه ليسوا على استعداد على أى حال أن يصفقوا له واخيرا ابتسم وانعكست تلك الابتسامة في شكل تنهدات من الارتياح الصامت خرجت من بعض الصفوف وان كنت قد ظللت أراقب المشهد بحذر شديد فلطالما تعودنا من ذلك الممثل العظيم أكثر الآلام والجروح بعد أمثال تلك الابتسامة او حتى الضحكة العالية المدوية ٠ وتكلم بألفاظ مختارة جيدا على غير عادته وبصوت متهدج على غير عادته أيضا وبنبرة انسانية لم نتعود عليها من قبل حتى ليلة الازمة التى مرت بابنه الصغير « لقد جاءت أوامر من القاهرة بتغير الظروف التى تعيشون فيها ومنذ اليوم ويمكنكم ان ترتدوا أحذيتكم ويمكنكم أن تتسلموا خطابات من أهاليكم بل (وقد سمح لكم ايضا التعامل مع الكنتين وشراء ماتحتاجون له كذلك لقد أوقف العمل الاجبارى واختتم المأمور أخباره السارة قائلا : أنا سعيد لهذه الاوامر وارجوا أن تفهموا ماحدث فى الشهور الماضية انه لم يكن بأرادتى فلقد كنت انفذ التعليمات ٠ وعموما انا سعيد وأتمنى أن يكون ماحدث اليوم مقدمات للافراج عنكم ٠

ورفع نظارته السوداء ومر بمنديله الابيض يمسح شيء ما فى عينيه ٠

غريب أمر هذا الرجل الذى يستطيع ان يكون متكيفا مع

كل موقف فهو مع الضرب والتعذيب الشخصية القاسية التى تقطع صلاتها بكل ماهو انساني وخاصة حينما كان يضحك ضحكاته الشيطانية وهو يكسر زراع زميل لنا ويوجه لكمات قوية الى وجهه وجسده ، وهو ايضا يمثل الدور تماما فى هذه اللحظات ليكون حملا وديعا تفر الدموع من عينيه ٠

ولقد قرأت كثيرا مثلما قرأ غيرى عن انقسام الشخصية وازدواجيته ولكنى لم أر شخصية أخرى ينطبق عليها هذا الوصف قولا وعملا سوى الرائد فريد شنيش ربما فيما عدا القصة المشهورة الدكتور ميكل ومستر هايد ٠

وقبل ان يتركنا المامور طلب ان يلتقى فى مكتبه بخمسة من زملائنا حددهم بالاسم ٠ وعدنا الى العنبر لتبدأ عملية تسليم احذيتنا وكم كانت عملية مثيرة ٠ البعض احتضن حذائه وهو يبكى ، هؤلاء الذين لم يبكوا فى مواجهة أقصى أنواع التعذيب وتهدجت كلماتهم بالدموع وهم يأخذون من المخزن الحذاء ومعه بعض الحاجيات الخاصة والمتبقية بعد حفلة همت حين أخذوا منا كل شنطنا وفرضوا علينا الملابس المجهزة لهذه المناسبة ٠ البعض اخذ نظارته التى فرض عليه ان يعيش بدونها والبعض وجد علبة سجائر متبقية مضى عليها اكثر من ثمانية شهور والبعض صورا لاولاده أو زوجته أو صديقته ووضعت قدمى فى حذائى وخطوت ماشيا اول خطوات بعد شهور سبعة من الحفاء وتذكرت مرة أخرى أمنية المهرج فى مأساة الملك لير الذى كانت احلامه تتوقف عند حذاء يضع فيه قدمه ويرد عنه غائلة البرد والثلج ٠

وخفت الحركة فى العنبر تماما على غير العادة رغم الابواب المفتوحة فلقد انتحى كل زميل فى ركن من الغرفة او فى جانب من الممر يعيش مع صورة فى يده قد تكون ابنه وقد تكون زوجة وقد تكون حبيبة يقبلها احيانا ويتأملها بشغف واخذت احملق فى صورة سامح وأهداب أولاد أختى واعيد تأكيد ملامحها ومعهما أعبر الصحراء الى ذكريات الحياة هناك بعيدا فى تلك الشقة التى تقع فى الدور الثالث فى شارع ٢٦ يوليو صراخهم وضحكاتهم ، شقاوتهم مع امهم الطيبة ، صراخات سامح

الصغير واصراره على ان يمضي معي وعندما جاءوا للقبض على في فجر اليوم البارد منذ أكثر من عام ونصف ، كانت الحياة تخضر من جديد بعد ان كادت تضيع وتغرق في تلك الوديان الصحراوية القاحلة ·

وجاء الزملاء الخمسة بعد لقاء طويل مع المأمور الذى استمر ثلاث ساعات لم نحس بها اذ كنا غارقين مع ذكريات الحياة البعيدة خارج الاسوار وتجمعنا كلنا حولهم نسمع تفاصيل الحوار مع المأمور الذى كان يبدو وأنه كان مشحونا ووقف فخري لبيب يحكي وقبل ان ينطق بالكلمة الاولى كانت الدموع قد سبقت الى عينيه ثم بدأت تنهار وهو يقول لقد مات شهدي عطية أول أمس في اوردى ابى زعبل ·· اذن فهذا هو الثمن ·

كان شهدى واحد من المع المثقفين المصريين ورائد من رواد الفكر الماركسى ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وهو يناضل بقلمه وفكره دفاعا عن العمال والفلاحين المصريين وهجوما على الاستعمار والاقطاع وعمل رئيسا لتحرير مجلة الجماهير التى أغلقها الدكتاتور اسماعيل صدقى سنة ١٩٤٨ · ثم اعتقل ولكنه منذ قيام الثورة وقد كان احد المبشرين لها وتحول الى احد المدافعين عنها وخرجت له عدة مؤلفات من أهمها تاريخ الحركة الوطنية المصرية وسجل بها تاريخ الشعب المصرى من أجل الاستقلال والديمقراطية وعدالة التوزيع وحتى حينما القى القبض عليه عام ١٩٥٩ وقدم للمحاكمة بالاسكندرية اخذ يحذر من هؤلاء الذين يعملون على تفتيت وحدة القوى الوطنية ويرفعون شعار العداء للشيوعية ·

كانت تلك آخر الأخبار التى وصلتنا عن شهدى قبل أن نسمع عن استشهاده فى ابى زعبل وقد كان علينا ان ننتظر يومين لنسمع تلك التفاصيل عن مقتل شهدى وعن الجو الذى عاش فيه زملائنا فى ابى زعبل طوال ثمانية اشهر ولقد وصل الينا هؤلاء الزملاء بعد ان تقرر اجراء تصفية اوردى ابى زعبل اكثر من ثلثمائة رفيق كل منهم يحمل قصة تصل الى حد

الاساطير عن ذلك المعتقل الذى مورست فيه أكثر الاساليب وحشية وربما تلك التى لم تخطر على بال ٠

وكنا قد سمعنا بعضا منها منذ ثمانية شهور وخاصة بعد أن عرفنا بوفاة الزميل الطبيب فريد حداد ولكن الذى لم نتصوره أن يستمر هذا الجو الهيسترى طوال تلك المدة لتنتهى بمأساة اغتيال شهدى ٠

ان مااستطعناان نفرضه فى الواحات وقد ساعدنا عليه البعد عن القاهرة من ناحية وبالتالى البعد عن الاجهزة المعنية بالتعذيب وايضا ذلك الاحساس الذى تفرضه الصحراء الشاسعة المحيطة والتى تملاء الكل بأحساس الغربة والوحشة سواء كانوا سجانا أم سجناء ان ذلك لم يتوفر لزملائنا فى ليمان ابى زعبل الذين زاقوا الكاس حتى الثماله ٠

ثمانية اشهر يضربون طوال الاربع وعشرين ساعة فى طابور الرياضة فى العنابر فى منتصف الليل فى الفجر حينما يتسلمون « الجراية » أو حتى حينما يشكو احدهم من مرض ٠٠ صورة بشعة لايمكن أن يتصورها الا مخبول نزع عقله فراح يعربد حرا طليقا من اى منطق ومن أى ذرة انسانية ٠٠ واذا كان التعذيب علما أو فنا فلابد وان يعترف الانسان أن قالد أو ضباط أوردى ابى زعبل يستحقون لقب اساتذة هذا العلم ولست مبالغا اذا قلت انهم تفوقوا فى بعض الامور على اساتذة النازى فى معتقلات دخاد وبوخنوالد واشفيتز أن الصورة التى سمعناها عن يونس مرعى وهوايته المفضلة فى أن يقف على تل عال ليقذف الزملاء الذين يعملون تحت الجبل بالدبش متعمدا أن يصيب رؤوسهم تلك الرءوس التى تحوى عقولا كانت تغيظه وتستفزه وهو الذى لم يقرأ فى حياته سوى روايات ارسين لوبين ولم يعرف متعة فى حياته سوى الخمر والعربدة والفجر مع النساء ٠

وعبد اللطيف رشدى وكيل المعتقل الضخم الجثة الذى لايعرف سوى ان يضحك ويقتل وحسن منير قائد لمعتقل ذو الصوت الثعبانى الذى كان يصفق كالطفل وهو يأمر بجلد زميل او سحبه على الارض ٠

ولقد اخذت اتصور الدكتور لويس عوض المثقف المصرى والعالمى ويونس مرعى يلقيه على الارض ويضربه بحذائه مثلما يضرب حشرة والدكتور فؤاد مرسى اســـتاذ القانون بكلية الحقوق وملابسه تخلع عنه ليضرب على المناطق الحساسة فى جسده والدكتور اسماعيل صـــبرى عبد الله وقائد الاوردى وزبانية يتسلون عليه وهم يأمرونه بأن يدور فى حلقة كالثور لتنهال عليه الكرابيج والشوم ‎٠٠‏ والمئات من خبرة أبناء مصر الطيبين من عمال ومثقفين وفلاحين وطلبة وضباط وهم يعاملون تلك المعاملة الوحشية ‎٠٠‏ ثمانية اشهر وكان الدكتور لويس عوض مثلما سمعت يفزع من النوم ليلا ليصيح أين نحن ‎٠٠‏ لايمكن ان نكون قد رجعنا ألف عام الى الوراء ‎٠٠‏ » ولم يهـدأ الزبانية ولو يوما واحدا ٠

وحين انتهت محاكمة شهدى عطية وزملائه فى الاسكندرية ورحلوا الى معتقل ابى زعبل فى يونيو كان اللواء همت وفرقته التى لاتختلف عن فرقة العاصفة الهتلرية ينتظرونهم على باب المعتقل ‎٠٠‏ ويومها اقام همت حفلته الهمجية باستمتاع شديد ‎٠٠‏ الضرب المستمر حتى الوصول الى البـــوابة ثم خلع كل الملابس وحرقها ثم جر المعتقل من ارجله الى داخل السجن ‎٠٠‏ ويقول شهود العيان أن همت كان فى اوج نشـــوته فى ذلك اليوم ولذلك اخرج حفلة فريدة من نوعها فاقت كل حفـــلاته المشئومة السابقة ٠

وبعد انتهاء المرحلة الاولى من الحفلة التى قام بها همت خارج أسوار السجن بدأت مرحلة اخـــرى على يد حسن منير قائد المعتقل ٠

فلا بد هو الآخر بأن يرحب بالوافدين الجدد وعلى طريقته الخاصة ‎٠٠‏ وحينما وصل الى شهدى عطيه بادره ٠

ــ أنت بقى شهدى عطية ‎٠٠‏ عملى علم ‎٠٠‏ انت شيوعى ياوله قول أنا مرة ٠

وسكت شهدى فلم يكن هناك مجـــال للرد على مثل تلك الاسئلة ٠

فأمر حسن منير بأن يقلب على ظهره ويضرب بشدة على بطنه .

ثم رفعوه بعد ذلك ليمشي ولكن شهدى سقط فعاد الزبانية ينهالون عليه بالضرب .. ولكن شهدى كان قد فارق الحياة .. ويروى الدكتور اسماعيل صبرى هذه اللحظات التى كان شاهدا عيانا لها « كنا قد أمرنا بأن نقف داخل العنابر ووجوهنا للحائط وكان الضرب شديدا على الوافدين الجدد وسمعنا اسم شهدى يتردد مع صوت الشوم والكرابيج ثم خيم الصمت المفاجيء ولم نعد نسمع الا أصوات متباعدة بعضها ينادى: فين أمين التمورجي ، وتركنا واقفين ووجوهنا للحائط ولم نخرج الى الجبل فزاد احساسنا بان شيئا غير عادى قد حدث وحاولنا الاتصال بزملائنا الجدد والذين ادخلوهم عنبر (٢). وعرفنا منهم أن شهدى لم يدخل العنبر وان أربعة آخرين سحبوا من العنبر لخطورة اصابتهم وزاد قلقنا وحاولنا من خلال الشبابيك الاتصال بالزملاء في كل العنابر ان نعرف ماذا حدث .

وعرفنا المأساة ، لقد كان جسد شهدى عطية ملقا فى احد زنازين التأديب بعد ان وضع قائد المعتقل عليها يافطة «مستشفى» مات شهدى مثلما مات فريد حداد بنفس الاسلوب ومثلما مات رشدى خليل وعلى الديب .. وقبلهم مات محمد عثمان فى أحد ردهات مبنى المباحث العامة فى طنطا ..

وبقدر مافجر حدث شهدى الدمع والالم فى عيوننا وقلوبنا بقدر مافجر المأساة التى نعانيها ..

ففي تلك الاثناء كان الرئيس عبد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ووصلت أنباء استشهاد شهدى عطية وأثارت ضجة في الرأى العام العالمى لما لشهدي من سمعة واسعة ككاتب مصرى تقدمى .

ومن بلغراد أرسل عبد الناصر برقية يطالب فيها التحقيق فى مقتل شهدى .. وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس علينا .

وسط الدموع بل وشهقات البكاء ونحن نسمع من زملائنا ملحمة التعذيب في أبي زعبل وموت شهدى قام محسن الخياط الشاعر ذو الصوت المبحوح ليقول قصيدة مرتجلة ..

مستقتلين .

ولا عمرنا نرمى السلاح من يدنا .

مستموتين .

نضحك لايام الجراح اللى ارتوت من دمنا . .
وأحنا كده .

من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا
واحنا كده
من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا
نبدر حياتنا ع الطريق
ترويها ايام الضنا
تطرح هنا
لا جلادين
ولا سفاحين

هيغيروا طعم الكفاح من بقنا
طعمه جميل .. ذيك يانيل
والشمس رامية شعرها وراء ضهرها
زى الغدير اللى انسكب منه الدهب

وانت تسيل .. وانت يانيل ..
تاخدى وتدى أرضنا

فأمر حسن منير بأن يقلب على ظهره ويضرب بشدة عـــلى بطنه .

ثم رفعوه بعد ذلك ليمشي ولكن شهدى سقط فعاد الزبانية ينهالون عليه بالضرب .. ولكن شهدى كان قد فارق الحياة .. ويروى الدكتور اسماعيل صبرى هــذه اللحظـات التى كان شاهدا عيانا لها « كنا قد أمرنا بأن نقف داخل العنابر ووجوهنا للحائط وكان الضرب شديدا على الوافدين الجدد وسمعنا اسم شهدى يتردد مع صوت الشوم والكرابيج ثم خيم الصـــمت المفاجيء ولم نعد نسمع الا أصوات متباعدة بعضها ينادى: فين أمين التمورجى ، وتركنا واقفين ووجوهنا للحائط ولم نخرج الى الجبل فزاد احساسنا بأن شيئا غير عادى قد حدث وحاولنا الاتصال بزملائنا الجدد والذين ادخلوهم عنبر (٢). وعرفنا منهم أن شهدى لم يدخل العنبر وان أربعة آخرين سحبوا من العنبر لخطورة اصابتهم وزاد قلقنا وحاولنا من خلال الشبابيك الاتصال بالزملاء فى كل العنابر ان نعرف ماذا حدث .

وعرفنا المأساة ، لقد كان جسد شهدى عطية ملقا فى احد زنازين التأديب بعد ان وضــــع قائد المعتقل عليها يافطة «مستشفى» مات شهدى مثلما مات فريد حداد بنفس الاسلوب ومثلما مات رشدى خليل وعلى الديب .. وقبلهم مات محمد عثمان فى أحد ردهات مبنى المباحث العامة فى طنطا ..

وبقدر مافجر حدث شهدى الدمع والالم فى عيوننا وقلوبنا بقدر مافجر المأساة التى نعانيها ..

ففى تلك الاثنـــاء كان الرئيس عبـــد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ووصلت أنباء استشهاد شهدى عطيـة وأثارت ضجة فى الرأى العام العالمى لما لشهدى من سمعة واسعة ككاتب مصرى تقدمى .

ومن بلغراد أرسل عبد الناصر برقية يطالب فيها التحقيــق فى مقتل شهدى .. وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس علينا .

ووسط الدموع بل وشهقات البكاء ونحن نسمع من زملائنا ملحمة التعذيب فى أبى زعبل وموت شهدى قام محسن الخياط الشاعر ذو الصوت المبحوح ليقول قصيدة مرتجلة ..

مستقتلين .

ولا عمرنا نرمى السلاح من يدنا .

مستموتين .

نضحك لايام الجراح اللى ارتوت من دمنا . .

واحنا كده .

من صنع اوجاع الجياع المحرومين من شعبنا

واحنا كده

من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا

نبدر حياتنا ع الطريق

ترويها ايام الضنا

تطرح هنا

لا جلادين

ولا سفاحين

هيغيروا طعم الكفاح من بقنا

طعمه جميل .. ذيك يانيل

والشمس رامية شعرها وراء ضهرها

زى الغدير اللى انسكب منه الدهب

وانت تسيل .. وانت يانيل ..

تاخدى وتدى أرضنا

- ١٥ -

كانوا يتوارثون الخوف ..
وكانوا يطلقون على هذا الخوف
اسم الحياة وفى يوم جاء رجل
ضئيل الحجم .. لم يقل لهم
شيئا غير عادى .. قال اشياء
يعرفونها من قبل ولكنهم
نسوها .
قال انهم ادميون وان لهم
روحا ، انهم جوعى وأيضا ان
هناك شيئا اسمه الحرية
وشيئا آخر اسمه العدالة .
وشيئا ثالثا اسمه الثورة .

كازانتزاكس الاخوة الاعداء

سبتمبر سنة ١٩٦٠ :

غرقت فى الألوان وأخذت استكشف الوادى مرة اخرى وكأنى اراه لاول مرة .

منذ عام مررت من هنا وذهبت بعيدا .. بعيدا فى اعماق الرمال الصفراء ، عام طويل طلى بلونين هما الاصفر والكاكى لون الصحراء وبدل العساكر والضباط واحيانا خضرة باهتة شاحبة اما أحداثه فتمضى متنوعة حقا ولكنها داخل نمط واحد .. العنبر والمزرعة والبرش .

لكل هذا كان قلبى ينبض بحياة متدفقة وأنا اقف على رصيف محطة المواصلة مرة اخرى ومعى ضابط وثلاثة عساكر فى انتظار القطار القادم من أسوان فى الطريق الى أسيوط .

كانت الشهور الماضية والتى أعقبت وقف التعذيب البدنى والعمل الاجبارى ومجىء الزملاء من معتقل ابى زعبل قد اوضحت الى أى مدى كنا نعانى قبل ذلك .. فعندما أصبح

هناك وقت لالتقاط الانفاس اكتشفنا ان الكثيرين قد بداوا يضيقون على امراض غريبة ، ربما كانت كامنة طوال تلك الفترة الماضية ، وربما كان الجسد يستوعبها بأحساسه بالخطر الذى كان يهدده كل لحظة ، ولكنها بدأت تظهر وتطفو على السطح حين بدات تقل المخاطر الخارجية التى يتعرض لها الجسد .

كنا كمن ظل ولعدة شهور يصارع الامواج العالية والقاسية لتظل رأسه تطل من فوق المياه ، وحينما خرج الى الشاطىء بدأ يحس بالانهاك والالم للجهد الخارق الذى بذله .

حقيقة اننى كنت معتاد قبل المعتقل على ذلك المغص الذى ينتابنى أحيانا ليذيقنى مرارة الالم ليوم أو يومين ... ولكنه كان قد اختفى تماما منذ الاعتقال حتى بدأت اعتقد اننى قد شفيت منه .. وفجأة عاودنى المغص وبشكل عنيف .

ولقد احترت مثلما احتار الزملاء الاطباء فى تشخيص المرض وعبثا حاولنا ان نعالجه أو نسكته ببعض الادوية المتوافرة فى المعتقل فلقد كان يصمت لبضعة أيام ثم يعاود هجماته المريرة فأظل ليلة كاملة اتلوى من الالم والصراخ المكتوم .

ولم تكن حالتى هى الوحيدة ، فلقد كان هناك الكثير من الزملاء الذين بدأو يسقطون تحت هجمات امراض غريبة كالاغماء المفاجىء وآلام العظام والالتهابات المختلفة مثل تورم الركبتين وتساقط الاسنان والهزل الشديد الناجم عن انيميا حادة .

وكان الزملاء الاطباء يعالجون من يستطيعون علاجه ، ولكن بعض الحالات وخاصة تلك التى تحتاج الى اشعة أو تدخل جراحى فقد كانت تعرض على طبيب السجن ليقرر ترحيل صاحبها .

ومن الطبيعى فى الظروف الجديدة وبعد استشهاد شهدى عطية ووقف التعذيب أن توافق الادارة على ترحيل الحالات المرضية الشديدة اما الى مستشفى اسيوط أو الى القاهرة .

وعلى هذ الاساس رحلت الى أسيوط لاجراء اشعة عن الكلى .. وطوال الرحلة من الواحات الى اسيوط كنت أستعيد

الكثير من حواسي التي نام بعضها أو تأقلم بعضها على مرئيات معينة ومحدودة .

كانت رؤية الاولاد الصغار والنساء والرجال العاديون دون زى رسمي وكذلك نسمات الوادى ومياه النيل اشياء عظيمة تعيد الخضرة الى القلب والنفس .

وفي القطار وبالرغم من انني ومعي الحراس جلسنا في ديوان مستقل الا انني كنت امارس حرية الحركة في الانتقال في ردهات القطار وخاصة بعد ان اكتشفت أن الضابط المكلف بترحيلي كان زميلا لى فى المدرسة الابتدائية ، وقد تركني امرح كالطفل في هذا العالم الجديد بشرط واحد « هو أنه عند اى محطة يقف عليها القطار لابد وأن أعود الى الديوان لان هناك دائما عيون تنتظر وتراقب » .

وقد كان يجتاحني احساس بالزهو حين يقف القطار فى أحد المحطات لارى صفا من المخبرين والعساكر يقفون على الرصيف في انتظار الضيف الخطير الذى يقله القطار ويظل بعضهم يتطلع فى الدواوين حتى يقع بصره علينا فيطمئن قلبه ويومئ للضابط برأسه تاكيدا للقيام بالواجب .

وقد علق الضابط المرافق ونحن نغادر محطة قنا .

« ابسط ياعم .. فى كل محطة تشريفات .. ولارئيس الوزراء » .

ولكنى لم اكن احفل بهذه الاحتفالات وكان كل مايهمنى أن يتحرك القطار لاستأنف تراشق الكرة مع أحد الاطفال — وهو ابن مهندس يعمل فى السد العالى كان عائدا مع امه الى القاهرة .

اربع أو خمس ساعات عشت كل دقيقة فيها أملأ عيني وصدرى فى كل حواسي بالحياة التي يعج بها القطار ولا اترك فرصة تفوتني لكي ارفع رصيد الحياة المخضرة بداخلي بعد أن استنزف هذا الرصيد طوال عام ونصف فى السجون والمعتقلات وقبل أن تطويني الزنازين مرة أخرى .

وحين وصلنا الى محطة اسيوط كان بانتظارى فى المحطة فرقة كاملة مدججة بالسلاح تسلمتني من ضابط الترحيلة

ومضت بى وسط صفين من الناس الذين تجمعوا ليرقبوا هذا المنظر الغريب شاب يلبس بدلة عادية وفى يده قيد حديدى ويحمل شنطة سفر ووراءه وخلفه وحوله جيش من العساكر شاهرين اسلحتهم .

كنت أمضي مبتسما بل وأقول سعيد وانا اسمع التعليقات المختلفة من الصفوف .

دا معتقل .. شيوعى .. لأ اخوانجى .. والله ظلم ... ربنا معاه .. بكره يخرج دالسة صغير .

وانطلق بنا البوكس من المحطة الى سجن اسيوط .. عالم أخر .

كنت قد تنقلت من القلعة الى الفيوم الى الواحات .. كما كنت قد جربت الحجز فى الاقسام ... ولكن سجن أسيوط كان أول تجربة لى فى سجن تقليدى ..

ومن الواضح أن سجن أسيوط مثله مثل معظم سجون مصر قد شيد على النظام الانجليزى فهناك ثلاث أو اربع مبانى يضم كل مبنى اربعة أو خمسة ادوار ويشمل كل دور مابين اربعين الى خمسين زنزانة .

ومن اللحظة الاولى التى دخلت فيها بوابة السجن ادركت اننى أمام عالم أخر .. وجديد .. عالم يختلف عن المعتقلات التى عشت فيها .

وبالرغم من أن الزنازين كانت مغلقة فى هذا الوقت الا ان الضجة الهائلة داخل العنبر أوحت الى على الفور بأننى اعيش فى سوق أو فى مولد يمتزج فيه الاصوات الى الدرجة التى لاتستطيع ان تميز منها صوتا منفردا .. وقادنى شاويش العنبر الى الدور الثانى وفتح لى زنزانةجدرانها مكسوة بالفلين والكاوتش وقالى وهويحاول أن يستظرف معى «زنزانةلوكس علشان خاطرك .. » وعرفت بعد ذلك ان ادارة السجن وضعتنى فى الزنازين المخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام تنفيذا للاوامر بأن « يعزل المعتقل عن الاختلاط بالمساجين » .

الاعدام مرة واحـــدة !!!

وبدات رحلة الاستكشاف داخل السجن الغريب .

عشرون يوما قضيتها داخل سجن اسـيوط خرجت فيه مرتين الى المستشفى ، مرة للكشف واجراء الاشعة ومـرة لاستلام النتيجة ، ورفضت اجــراء العملية فى الكلى بعد أن اكتشفوا بعض الرواسب القليلة وانهـا يمكن ان تذوب أو تخرج مع البول مع استخدام بعض الادوية دون الحاجة الى عملية ، الامـر الثـانى اننى عرفت انهم يضعون المريض فى غرفة مغلقة فى المستشفى بل ويضعون القيد فى رجله .

لكل هذا فضلت العلاج فى السجن عن اجراء العمليــة فى المستشفى ، رغم اغراءاتممرضـة حسناء حاولت اقناعى بأنها ستسهر على راحتي وتمسكت بقول يوسف (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ..) وفى سجن اسيوط تعرفت بنماذج ونوعيات جديدة .. بل وأقول واكتسبت بعض الصـداقات التي مازلت اعتز بها .. فبالرغم من الاوامر الخاصة بعـدم اختلاطى بالمساجين وبالرغم من عنبر الاعدام الذى وضعت فيه الا أن ذلك لم يقيد حركتى داخل السـجن وخاصـة وأن السجاير كانت متوفرة لدى بعد ان ارسل لى والدى حـوالة بريدية بعشرة جنيهات على سجن اسيوط بناء على توصية من زميلى ضابط الترحيلة .

وبعد عدة ايام كنت اعيش « ملكا » فى سجن اسيوط .

الزنزانة مفتوحة طول النهار ولدى حرية الانتقال من عنبر لاخر ويجيئنى الجرائد بانتظام كما كان لى الحق فى استعارة الكتب من مكتبة السجن .. امارس كل ذلك بعلبة سـجاير وينجز يلهفها شاويش العنبر كل صباح للتغاضى عن التعليمات الخاصة بعزلى .

ولقد اكتشفت أن سجن أسيوط لايحوى مجرمين بالمعنى المعروف بالرغم من أن هناك من يمضى فترة عقوبة مؤبدة .. فعالية الساجين هنا جاءوا اما للقتل من أجل الثار وللشرف أو النزاع حول الرى .. قليلون هم الذين دخلوا السجن لسرقة

أو اختلاس ٠٠ وبمعنى أخر لقد وجدت داخل سجن أسـيوط ابناء مصر الطيبين ومعظمهم مـن الفلاحين والمزارعين ما زالوا يحملون كل بصمات المصرى الطيب الذى يناضل مع الارض بحثا عن الزرع والقوت ويناضل دفاعا عن هذه الارض ضد أى مستغل يحاول ان يمنع عنه المياه او يسلبه ارضه ، ولازلت اذكر «أمير» فلاح موشى الاصـيل الذى قضى اكثر من عشرة اعوام فى السجن الخمسـة الاولى فى ليمان طرة ثم جاء الى سجن اسيوط ليقضى بقية العقوبة (٢٥ سنة) ، أن كل جريمته أن احد البهوات من ابناء الاسر الاقطاعية قد حاول ان يسلبه الفدانين اللذين يملكهما واجباره ليبيعهما ، فما كان من « أمير الا ان حمـل بندقيته ووقف على راس الغيط يقسم ان يطلق الرصاص على كل من يحاول ان يعتدى على أرضه ، وقـد اطلق الرصاص فعـلا على اثنين .. سعادة البيه ومهندس الرى اللذين لم يحفلا بتهديدات « الواد الفلاح » ومات احدهما على الفور واخرجوا أربع رصاصات من صدر الاخر .

ـ: واين الارض الان يا أمير ٠

ـ : بيزرعها ابنى ٠

ويكبرون ويتسلطون ٠

وهناك عبد الدايم ٠٠ دخل السجن وعمره ١٩ سـنة ٠٠ كان يدرس فى الثانوية ولكن امه وضعت فى يده البندقية ذات ليلة وقالت له « لقد كبرت وأن تعرف أن اباك مات مقتولا وان الذى قتله ٠٠ » وحددت له اثنين ولم تترك له فرصة للتفكير بل وأخذته من يده من نفس الليلة ليقتص لابيه ٠٠

وهناك « عبد الكريم » الفلاح الفقير الذى يعمل بالاجر عند اصحاب الاطيان اكتشف يوما أن ابنته التى تعمل عند واحد من « الكبار » تنتحب طوال الليل وحينما سألها اعترفت له بأن « الكبير » اعتدى عليها وانها حامل ، وكان لابد وان يفعـل شـيئا وبحث عن « الكبـير » فلمـا لـم يجـده اخذ يدق على بطن ابنته ليقتل « ابن الكبـير » فى بطنهـا .. وقتل الاثنين معا الام والابن ، وحكايات كثيرة كلها تدورحول الثأر والشرف أو الدفاع عن الارض ٠٠ يرويها أناس طيبون

مازالوا يحتفظون بالاصالة المصرية ولايمكن الا أن يكونوا ضحايا للمجتمع وعلاقته وقيمة ٠

ولقد وجدت نفسي اعيش معهم اغلب ساعات النهار اسمع حكايتهم واحاول أن احكي لهم من جانبي أن المجرم في هذا كله هو التخلف والفقر الذي يفرضه علينا هؤلاء الذين يصرون ويكبرون ويتسلطون ٠

وأصبحت جلسة « العصر » فى زنزانة أمير موعدا هاما أحرص عليه كما يحرص عليه عدد كبير من النزلاء تماما مثل جلسة المصطبة فى القرية نسمع الحكايات ونشرب الشاى الاسود فى أكواب من البلاستيك ونتحدث فى أحوال القرية الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث من ميكروفون داخل وحين تغلق الزنازين وتهدأ الاصوات فى الساعات الاولى من الليل ويصمت الراديو المزعج المنبعث على ميكروفون داخل العنبر فلقد كنت اعكف على أحد الكتب التى أعثر عليها فى مكتبة السجن ، وكم كانت مفاجأة لى ان تكون مكتبة السجن عامرة بمؤلفات جيدة ٠٠

وفى تلك الليالى قرأت غالبية روايات ديستوفسكى « الابله » و « النائب العام » ومؤلفات طه حسين « شجرة البؤس » و « المعذبون فى الارض » ومع ابى العلاء المعرى فى سجنة « وكتاب الاب عيروط » الفلاحون والحضارة الهلينية للدكتور غلاب ، بل وأعدت قراءة كل مسرحيات شيكسبير وبرنارد شو ٠

أما في الصباح وحينما يذهب الرجال للعمل فى المرافق المختلفة في السجن ، سواء فى المزرعة أو المطبخ كانت جلستى المفضلة مع جارى العزيز فى الزنزانة المجاورة ٠٠ وهو واحد من المحكوم عليهم بالاعدام ٠

وقد سمعت عنه الكثير قبل ان اراه ، فلقد حرص الجاويش ان يحكي لى في ليلتي الاولى فى سجن اسيوط عن رجل الجبل الذى عاش لمدة عشرة اعوام هو ورجاله في جبال اسيوط مرهوب الجانب يكفى ذكر اسمه لكى تقشعر له الابدان ٠

وحسب روايات الجاويش قتل الرجل العشرات وظل بعيدا عن ايدى السلطات رغم انه كان يتجول فى وضح النهار

فى شوارع اسيوط نفسها ، وكم من حملة جردت ضـــده وعادت فاشلة ، ولكنه فى يوم من الايام ذهب الى قســـم البوليس وسلم نفسه لانهم قبضوا على زوجته وابنته ٠

ومن الطبيعى ان اسعى وفى صـــباح اليوم التالى للتعرف على جارى العزيز ٠٠ وكانت مفاجأة لى فالذى اراه أمامى ورغم البدلة الحمراء التى يرتديها لايمكن بأى حال ان يكون مجرما خطيرا مثلما صوره الجاويش ، كان الضـــيف أو خليفة الخط شابا وسيما فى العقد الرابع من عمره أميل الى الطول تشع من وجهه وملامحه المحددة براءة طفولية وتلمع عيناه المصريتان بالامل الحزين ويكتسى وجهه بعض الشـــحوب الذى يمتزج بسمرة خفيفة ٠

وكان من السهل ان نتعارف ، بل ونصبح اصدقاء ، وهذا مااحســـست به من اللقاء الثانى حينمـــا بدأ الضيف يحكى حياته ومغامراته ٠٠ وسمعت منه نفس القصـــة التى كنت اســـمعها فى القرية عن أدهم الشرقاوى والخط وغـيرهم من الخارجين على القانون ٠

فلاح مصرى تلقى العلم فى المدارس الابتدائية ثم لبى نداء الحقل ليعمل مع ابيه لتوفير لقمة العيش للاسرة الكبيرة ٠

كان يحلم بأن يصبح مهندسا زراعيا ، ولكن ما باليد حيلة فالفدان الذى كان يملكه والده ويشقى عليه طوال العام لايمكن ان يحقق الحلم ، واكتفى الصغير بالعمل فى الحقل وبســـخط طبقى ينمو داخله وهو يرى عربة « الباشا » تمر على الحقـــل فى طريقها الى العزبة ، ويكون نصيبه « تراب كثيف » يغطى وجهه ٠٠ وكان المتمرد الصغير يقرأ الكتب والجرائد ٠٠ وربما هذا هو الفرق بينه وبين أبيه وأخواته وأهل قريته ، وعرف أنه واحد من ملايين الضحايا الذين يولدون وهناك حكم مسبق وأبدى بالشقاء ٠

ولكن سخط «الضيف» ظل محصورا فى اطار كلمات عنيفة كان يقولها على القهوة أو بين مجموعة من الاصدقاء يلعن فيها الباشا والمأمور ٠٠ الى أن جاء يوم كانت الارض عطشى ٠ وكان المفروض أن نوبة الرى ستصيب الحوض فى ذلك اليوم ولكنه

غوجيء بأن المياه لم تفتح بناء على أمر ناظر العزبة تحت دعوى أن أراضى العزبة ما زالت في حاجة الى يومين آخرين ٠

وذهب « الضيف » مع مجموعة من الفلاحين يرجون الناظر بأن يفتح المياه لحوضهم الذى طال عليه الجفاف وبدأ الزرع يذبل ويجف ٠

ولكن الناظر الذى تعود أن يأمر فيطاع أنهى المناقشة بكلمات خشنة ٠

ــ : روح ياواد انت وهو لسه قدامكم يومين

ــ : والزرع ياحضرة الناظر ٠٠ هيموت ٠

: يموت واللا يتهبت واحنا مالنا ٠

وصاح الضيف :

ــ : مالك ازاى ٠٠ دا قوت ناس ٠. احنا مش بنى آدمين

ــ : لا مش بني آدمين ٠٠ انت هتداقر ياوله ٠٠ امش ٠٠

ومشى الضيف ٠ ولكن ليفتح بفأسه مجرى المياه للحوض ٠٠ وحينما لطمه الناظر على صدغه وانهال عليه ومعه بعض الخفراء بالضرب بالشوم » دافع عن نفسه بالفأس .. وقتل الناظر وفر الآخرون ٠

أما أهل القرية الذين شاهدوا الحادث فلقد أعجبوا بمافعله الضيف فلقد كان كل منهم يتمنى أن يفعل ذلك ، ولكنهم انسحبوا الى منازلهم يوصدون عليهم الابواب خوفا من بطش الباشا والبيه المأمور ٠٠ وترحموا على الضيف ٠

ولجأ الضيف الى الجبل ٠٠ وبدأ حياة الطريد ٠٠ وانضم اليه بعد ذلك بعض المتحمسين وأيضا بعض المنتفعين ٠

وطوال عشر سنوات كانت كلمة الضيف مسموعة لدى الجميع ٠٠ كان يفرض على كل أصحاب العزب «أتاوات» ومن يرفض ينهب ماشيته ويحرق قصره وأحيانا يعثرون عليه مخنوقا او مقتولا او مشنوقا ٠

ــ : ألم تندم

ــ : ولماذا أندم كنت دائما مع المظلوم ، أما اصحاب العزب فلقد رأينا منهم الويل ٠٠ ولقد قتلت بيدى اثنين من جماعتى لانهم تعرضوا لفلاح فقير وأخذوا منه جاموسته ٠

ـ : لماذا لم نترك الامر للقانون من البداية .
ـ : أى قانون ٠٠ ان القانون دائما مع الاغنياء ولكن الله دائما مع الفقرء لقد كنت أطبق عدالة السماء .

وحاولت أن أقنع «الضيف» بأن «تمرده» لن يفيد فالقضية ليست قضية البعض من أصحاب العزب ولايمكن أن تحـــل بالقتل والارهاب ٠٠ ولكن «المتمرد الصغير» لم يكن على استعداد لأن يفهم البعد الواسع لمشكلته ومشكلة أهل قريته .

كنت أقول له : ـ ان الارض المملحة هى التى تنبت الشوك ٠٠ ولابد من اصلاح الارض .

وكان يقول : لقد عملت عـلى نزع الشـوك عـلى قدر مـا اســـتطيع .

كان الحوار يجرى بيننا عبر باب الزنزانة الحديدى والذى صمم بشكل خاص لكى يظل «الضـيف» فى كـل تحـركاته مكشوفا لحارسه .

وفى الليلة السابقة على ترحيلى من سجن أسيوط .جلست بجـوار زنزانته أكثر مـن ساعتين أودع صـديقا عزيزا ٠٠ لم يعرف كيف يثور فتمرد بطريقته الخاصة .

كنت قد عرفت أن التصديق على الحكم قد وصل الى السجن وأنهم بصدد الاعداد لشنقه فى صباح الغد ..

ولكن الضيف الذى لم يكن يعلم ، كا نمتعلقا بأمل أن المفتى لن يصدق على الحكم وان مذكراته لرئيس الجمهورية ستقبل بل انه فى ذلك اليوم كان اكثر مرحا وأكثر اشراقا وهو يؤكد لى انه رأى حلما جميلا وعاش وسـط أولاده ٠٠ فى الحـلم ٠٠٠ وسألنى الضيف وهو يودعنى بحرارة :

ـ : متى سيفرج عنك ٠٠ لابد أن نلتقى فى الخارج

قلت :

ـ : لاأعرف ٠٠ فليس لسجنى فترة محدودة ٠٠ قد يكون غدا وقد يكون بعد عشر سنوات ٠٠

ـ : ياه ٠٠ أنا ظروفى أحسن ٠٠ يمكن اطلع قبلك ٠٠٠

ولقد خرج هو قبلى فعلا ففى السادسة صباحا كانوا يقتادونه الى غرفة الاعدام فى السجن ، وبعدها ببضـــعة دقائق كانوا يقتادوننى خارج سجن أسيوط فى الطريق الى الواحات .

- ١٦ -

ايها الانســـان البـائس ،
تســـتطيع أن ترفع الجبـــال
وتصنع المعجزات ٠٠ ولـكنك
تمرغ نفسك في الوحل والخمول
٠٠ الله في داخلك تحمله دون
أن تدرك ٠٠
أما نحـــن الذين نعـــرفه
فسنشمر عن سواعدنا ونرفـع
أصواتنا عسى أن ننجح

الأب يانايوس ــ الاخوة الاعداء

يناير سنة ١٩٦١

ربما للمرة الاولى منذ سنتين تبدأ الســاعات الاولى للعــام الجديد بضحكات الآمال الصافية ٠٠

في العام الماضي احتفلنا بمثل هذا اليوم بغزوة ساخنة قادها المأمور واشترك فيها العساكر بشومهم وكرابيجهم وشتائمهم وفي العام الذي سبقه كان زائر الفجر ورجاله يجمعنا في عرباته السوداء وينزعنا من وسط الاحضان الدافئة للام والأخت والزوجة والحبيبة ٠٠

وبالرغم من أن الكثيرين وعيونهم تغرورق بالدموع الضاحكة كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم مخـافة أن تتـكرر العـادة ويتمتمون : « اللهم اجعله خير » ٠٠ الا أن الليلة مرت بسلام فعـلا ٠٠

ليس هذا فقط بل وشـــهدت احتفالات عديدة ومتنوعـة استطاعت أن تكسر هذه العزلة والصحراء وننتقل بالكثيرين منا الى عالم الحياة المتجدد الصاخب

ومنذ أن عدت من سجن أسيوط كان الجو قد تغير تماما في الواحات ٠٠ ليس فقط لان التعذيب قـد أوقف كما أوقف

العمل الاجبارى · ولا لاننا تجمعنا كلنا أخيرا فى مكان واحد بعد اغلاق أوردى أبى زغبل المشئوم .. وليس فقط لبعض الظروف النسبية الأفضل التى بدأنا نعيش فيها سواءبالنسبة للمعاملة او فتح الزنازين ليلا .. ولكن ثمة رياح تغيير كانت تجتاح الصدور نفسها وتعطينا المزيد من الثقة بالنفس والمزيد من الاحساس بأنفراج الازمة وقرب انتهائها بيننا وبين السلطة .. وبالتالى الاحساس بأننا على أعتاب الخروج الى الحياة الواسعة مرة أخرى ·

كانت الصحف وأيضا الاذاعات المتعددة التى نستمع اليها من خلال الترانزستور تؤكد انتهاء أو على الاقل التخفيف بدرجه كبيرة من حدة العداء والهجمات المتبادلة بين القوى الوطنية العربية · وخاصة بعد أن بدأت الرجعية العربية تتحرك ومعها الاستعمار والصهيونية فى محاولة لجنى ثمار المعركة التى استغلوها بين القوى الوطنية العربية .. وكان الموقف الذى أخذته القيادة المصرية فى مواجهة المؤامرة الاستعمارية ازاء مقاطعة الباخرة المصرية كليوباترا موقفاوطنيا حازما ، كذلك فان بعض الاجراءات الداخلية التى اتخذتمثل تأميم بنك مصر وتنظم ملكية الصحف والحديث عن التغيرات والحد من سيطرة رأس المال على الحكم .. كانت كلها بوادر مشجعة توحى بأن الرئيس عبدالناصر قد بدأ يستوعبالدرس أو على الاقل قد بدأ يدرك لمن يوجه مدافعه الرئيسية ·

كانت الانفراجة فى الداخل والاخبار الواردة من الخارج تضبغ الجو كله بلون متفائل ، وراهن البعض على اننا سنخرج فى فترة لاتتعدى شهر واحد فى حين ان البعض الآخر الاكثر تشاؤما تصوروا ان المسألة تحتاج الى عدة شهور أخرى · · وحينما استدعى حوالى ٧٥ زميلا الى الادارة وأبلغوا بأنعليهم أن يرتبوا أنفسهم للرحيل فى الغد الى الفيوم تمهيدا للافراج عنهم لم يعد هناك شك فى أن الطريق الى تصفية المعتقل قد فتح · ·

وحتى هؤلاء الذين لم يروا فى هذا الاجراء سوى محاولة

لخلق جو نفسي مصطنع اضطروا لأن يسلموا بأن هناك شيئا جديدا وان كانوا قد تحفظوا بأن علينا أن ننتظر لنرى .

وقد انتظرنا شهرين ...

كانت المجموعة التى اختيرت محيرة وغريبة ، حقيقة كان بينهم البعض من هؤلاء الذين لم يتحملوا قسوة الظروف الماضية لسبب أو لآخر فارسلوا عدة بيانات وتقارير « يستعطفون فيها السلطات » ويعلنون استعدادهم للكف عن اى عمل سياسى » .

ولكن كان بينهم أيضا عدد من الشخصيات القويةوالمتوازنة والتى واجهت ظروف التعذيب بشجاعة وببسالة ولم تخفض رأسها من أمثال الدكتور فوزى منصور والدكتور فايق فريد ونبيل زكي وأمير اسكندر وحوده سعد الديب .

وعدد آخر من المثقفين والعمال الذين كانت لهم مواقفهم البطلة وعوفوا باعتزازهم بأنفسهم وبأفكارهم ولذلك كان من الصعب على الانسان ان يتصور انها دفعه للضعفاء والمنهارين كما كان من الصعبأيضا أناقتنع بأن الامر بعيد عن لعبة ما؟.

وبالرغم من اننى فقدت فى هذه الترحيلة عددا لابأس بهمن الاصدقاء بل واثنين من اكثر المقربين الى قلبى الا اننى كنت موقنا انه فى اللحظة التى سيفرج فيها عنهم فسيكون ذلكانهاء للمعتقل كله ..

وعشنا فى الواحات شهرين اعتبرهما من أقسى الشهور التى مرت بنا جميعا .

الكل يسأل عن أخبار الفيوم ... وماذا حدث للرفاق هناك؟ ..هل افرج عنهم حقا ..أم انهم مازالوا رهينة المباحثات العامة هناك تمارس معهم أساليب مختلفة للضغط عليهم .. وتتسرب الينا بعض المعلومات ... بعضها حقيقى وبعضها كان مدسوسا .

وفى يوم من الايام أكد المسؤلون فى سجن الواحات ان جميع الزملاء الذين رحلوا الى الفيوم قد افرج عنهم .. وعمتالفرحة جميع المعتقلين .. وبعد ذلك بأسبوع تأتى رسالة من الخارج لتنفى أن أحدا قد أفرج عنه ولتؤكد ان المجموعة التى وصلت

الفيوم مازالت في المعتقل ٠٠ وتسرى بعض الاشاعات بأنهم يتعرضون هناك لنوع من التعذيب شبيه بذلك الذى تعرضنا له فى الواحات وأبى زعبل منذ فترة ٠

واشاعة اخرى بأنهم قد نقلوا الى معتقل القلعة وانهم يكتبون اقرارات بعدم الاشتغال بالسياسة وباستنكار افكارهم ومعتقداتهم ٠

ثم تأتي رسالة أخرى من الخارج لتؤكد ان زميلا آخر قد استشهد فى الفيوم هو عبد القادر مفتاح المدرس ببنيسويف وهم يرغمونه على فك اضرابه عن الطعام ٠

موجات غريبه ومتناقضة ومتلاحقة أيضا من الاخبار والاشاعات تعصف بنا وبأفكارنا يمينا ويسارا ٠٠ فنعيش يوما يملؤنا التفاؤل ونعيش أياما نمضغ الحزن والحيرة ٠

ولأول مرة تتوه منا الحقيقة ونعيش فى جو ينعدم فيه التوازن بل ولاأكون مبالغا اذا قلت ان التعذيب النفسى والمعنوىلتلك الفترة كان أشدخطرا واكثرقسوة منه فى مرحلة سابقة حين كان التعذيب ماديا ملموسا تستطيع أن تواجهه وتحدد معه علاقة واضحة كانت دائما هى الرفض والاصرار ٠

ولكن حمامات «الساونا» الفكرية التى وجدنا أنفسنا غرقى فيها لننتقل من ماء ساخن يقارب الغليان الى ماء بارد يقارب درجة التجمد كادت أن تعصف بتماسكنا ٠

افراج أو مساومة او تعذيب ٠٠ أم ماذا ؟

وانعكس ذلك الموقف بوضوح فى طرقات العنبر ليلا ٠

فحتى الواحدة بعد منتصف الليل ، قليلون الذين كانوا ينامون أما الغالبية فهى اما راقدة فوق الابراش تسرح مع أحلام فتجدده عن قرب الافراج ، أو مجموعات تجلس فى بعض أركان الطرقة تتسامر وتحكى ٠٠ أيضا حول الافراج ٠٠ أما عم نمر حسنين وهو عامل فى أحد المطاحن فى الاسكندرية يبلغ حوالى الخمسين من عمره فقد كان لايكف طوال الليل عن زرع الطرقة فى خطوات وئيدة واضعا يده خلف ظهره وفجأة يسألنى حين يلمحنى أمام الغرفة :

ـ : الساعة كام ٠٠

ـ : اثنين بعد نص الليل
ـ : بالضبط
ـ : اثنين وربع

أكثر من أربع ليالى متكررة يسألنى عم نمر هـذا السّؤال وأجيبه بنفس الاجابة الى أن انفجرت فيه ليلة

ـ : جرى ايه ياعم نمر .. ياعنى ايه بالضـبط ، القطـر مستنى وخايف يفوتك .

أكثر من عامين ونحن نعيش فى زنازين وغرف مغلقة تضيع فيها معنى الايام بل والشهور والسنوات فما بالك عن الساعة .. بالضبط ..

وأحس الرجل العجوز بما يجول فى خاطـرى فاقترب منى مبتســما :

ـ : معلهش يابنى .. دى يمكن أول حبسـه ليك لـكنها الثالثة بالنسبة لى ، ولعلك لاتعرف تلك الايام التى تسـبق الافراج .. انها تساوى فترة الحبس كلها .

ـ : من قال انه سيفرج عنا .

ـ : أعرف أنك من حزب المتشائمين .. ولكن كل الاخبار تؤكد الافراج ..

هكذا سيطرت الفكرة على عقلية ونفسية الجميـع . . أما المتشائمين أو المستمتعين بالمعتقل على حسب تعبير بعضهم وقد كنت واحدا منهم فقد كنا نبنى تحفظاتنا على بعض الظـواهر السياسية ، وربما كنا نتحصن بذلك التشــاؤم خـوفا من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تسببها «روح الافـراج» اذا ماأسفر الموقف عن وجه آخر .

حتى « عاشور » زميل الجامعة ونزيل عنبر الاخوان كان هو الآخر ممن يؤكدون اننا سيفرج عنا وشيكا مؤكدا وجهة نظر الاخوان فى أن عبد الناصر «شيوعى» واذا كان قد اختلف معنا فذلك ذرا للرماد فى العين ولفترة قصيرة ؟؟!

ودخلت فى رهان مع عاشور ..

وفى يوم من أيام يناير الباردة عاد الزملاء من الفيوم .. عادوا ولكن ليس كلهم فلقد خلفوا وراءهم فى الفيوم حوالى ٣٣

ممن استسلموا تماما لكل ماطلب منهم مقابل الافراج ٠

وحين تجمعنا حول الزملاء العائدين نسمع قصصهم وما تعرضوا له فى الفيوم تأكدت مثلما تأكد الكثيرون اننا بازاء حملة تعذيب أخرى ومن نوع آخر ٠

تعذيب لا يستخدم العصا والبندقية والكرباج والعمل الاجبارى ولكنه تعذيب معنوى ونفسى يحاول ان يحطم الشخص من الداخل ٠٠

حينما ذهب الزملاء الى الفيوم وجدوا جوا آخر وظروفا تختلف تماما عن تلك الظروف التى عشنا فيها فى نفس المعتقل منذ عام ونصف ٠٠ سرائر نظيفة معدة ٠ ٠ أبواب مفتوحة طول النهار التغذية جيدة كل وسائل الراحة متوفرة الراديو والجرائد والتعامل مع الكانتين بالاضافة الى زيارة الأهل ٠٠

وبعد أسبوع بدأ «الشغل» ٠٠ وانتقل المصيلحى ومعه أركان حربه الى المعتقل ٠٠ وأخذوا يستدعون كل واحد على انفراد ٠٠ لماذا تبقى فى المعتقل ٠٠ لماذا لاتخرج ٠٠ يمكنك ان تخرج الى اهلك فورا .. فقط مطلوب منك ورقة صغيرة أعترف بأنك كنت مخطئا فى أفكارك وتعهد بأنك لن تعمل بالسياسة بعد ذلك ٠٠ ليس هناك أكثر من ذلك ٠٠

والراديو يذيع كل يوم ، بل واسطوانات خاصة تبث أغانى الشوق والضعف ٠٠ زيارات مفاجئة من الابن او الأب أو الزوجة او الخطيبة ٠٠ والحياة مخضرة فى كل مكان ٠٠ بعد سنوات الصحراء والعذاب والتعذيب ٠٠ والباب المفتوح ٠٠ مجرد اعتراف وتعهد ٠

المسالة تستحق ٠٠ الحرية مقابل ورقة ٠٠ هكذا رأى البعض ٠٠ ولكن آخرين رأوا المسألة كلها لاتستحق ٠٠ بل رأوا فيما يعرض عليهم اذلالا وامتهانا لانسانيتهم ٠٠ فالحرية التى يدعونهم اليها بورقة الاعتراف والتعهد لايمكن أن تكون حرية ولكنها تحطيم للانسان واهدارا لآدميته ٠٠ ، لأبسط ما يميزه ٠

كانسان ٠٠ فكره ٠٠ عقله ٠

قال أمير اسكندر للمصيلحى :

ـ : أنا مصرى .. وكاتب سياسى .. رغما عنــك وعما تعرضه ..

قال الدكتور فوزى منصور :

ـ : كيف تطلب منى هــذا الطلب الغريب .. ومن تكون أنت حتى تطلب من أستاذ الاقتصاد السياسى فى الجامعـــة المصريه أن يكتب هذا الهراء .

وقال نبيل زكى :

ـ : الموت فى الواحات أفضل ألف مرة من الحرية الملوثة التى تعرضها

وقال رمضان شامبوليه (وهو ميكانيكى سيارات من الفيوم)

ـ : ياعم يا حرية بحق وحقيق يا بلاش .. يفتح الله ..

حوالى أربعون زميلا من مجموع الدفعة (٧٥) .. سخروا من أساتذة غسيل المخ .

عزلوهم فى عنبر خاص وسحبوا منهم كل الامتيازات التى أغدقت عــلى الآخرين واستخدموا معهم أســاليب الترهيب والترغيب . جاءوا للبعض بزوجته تبتهل اليه بأن يسمــع الكلام ليخرج لها ولأولاده .

وجاءوا للبعض بخطابات من زوجة أو خطيبة تهدد بطلب الطلاق أو بفسخ الخطبة .

وجاءوا بأولاد صغار ليبكوا أمام أبيهم ويشكون مر العيش واحتياجهم اليه .

ولكن المدافعين عن الحرية الحقيقية .. حرية الانسان ان يفكر ويبدع ويقول رأيه . صمدوا فى مواجهة كل الهجمات الخبيثة التى قام بها سماسرة «حرية الخوف والانهيار الانسانى»

وبقدر ماكانت عودة الزملاء صدمة لكثيرين ممن تصــوروا أن باب المعتقل قد فتح وأنها أيام لكى يكونوا وسط الاهــل والاحباب وهيئوا أنفسهم لذلك بقدر ماكانت قصص البطولة والصمود التى يحكيها الزملاء العائدون توحى بالفخر والعزة وتعيد اصلاح الكثير مما أفسدته روح الافراج الكاذبة داخل النفوس .

وانفعل معين بسيسو الشاعر الفلسطيني وألقى قصيدة اعتبرها من أهم قصائده وأكثرها صدقا ..

اكتب .
واركع للورقة .
وأغرس قلمك فى عينى طفلك
واكتب ماشاء لك السجان بأن تكتب

ومضى معين بكلماته الشعرية كالسياط الحقيقية يلهب ظهر هؤلاء الذين يكتبون ماشاء لهم السجان بأن يكتبوا .

أما محسن الخياط فانفعل هو الآخر بغنوه حلوه

أنا عارف طريقى فين
وأروح له منين ..
أنا شايفه قصاد العين
بدايته شروق وآخره شروق
مفيش فى الدنيا دى مخلوق
يوقفنى فى طريقى يوم وأنا سارى
حاخلى الريح جناح ليه
وأنا زاحف باعصارى .. ومهما الحر هاج بيه

هايسجد يوم لتيارى
ومهما هدوس الشوك برجليه .. ديجرحنى
واخلى الجرح يسقينى
ألم يفضل مصحينى
يفكرنى

بطول حرماني وشجوني
وحرمان اللى عاش فى جوع
وآه ودموع ..

وزملاء آخرون انفعلوا باللحظة وألقوا بقصائد وكلمات . وتحولت عودة الزملاء الى مهرجان امتلأ بالحماس والانفعال والثقة ..

وتركت العنبر يمتلىء بالتصفيق وبالشعر والثقة ، وخرجت وحدى أمشى بجوار السور ، ودموع غريبة تتجمع بهدوء فى عينى . ربما انفعالا بالشعر وبالموقف ، وربما تنفيسا عن

احلام خفية كنت أسمح لها بأن تعبث بداخلى أنا أحيـــانا .
ونادانى «عاشور» قرب المطبخ

ــ : مالك .. دانت سرحان قوى .. على أى حـــــال كسبت الرهان ياعم ..

طلع عندك بعد نظر .

وابتسمت . ابتسامة تساوى الدموع التى كانت تتجمع فى عينى ..

حقيقة كسبت الرهـــــان ، ولكن كنت أود من أعماقى أن أخسر هذا الرهان .. بالذات .

- ١٧ -

اذا كنت تريد أن تكــون شهيدا ، فما عليك الا أن تنظر داخل نفسك .. ثم قل ماتراه يصدق .. وتذكر . أن المسيح يقتل نفسه ولكنهم قتلوه .

بيتر بروك - مسرحية . يو . اس .

يوليو سنة ١٩٦١

حينما يكون الجسد هو الذى يتهدده الخطر ، تنحصر المعاناه فى القدره على تحمل بعض الآثار والآلام الجسدية ..

ولكن اذا كان المستهدف روحك وعقلك كانسان هنا يكون الخطر فادحا وتكون المعاناه قاسية ومريرة .

ولقد مررنا بفترة المعاناه والآم الجسدية وســقط ضحايا نتيجة الضرب والتعذيب ، ولكنهم سقطوا كآدميين وكمفكرين وكمناضلين ولكن التعذيب الذى بدأ مع ترحيلة الفيوم كان تعذيبا أشد خطرا وأقسى للنفس والعقل .. تعذيب يطلـق عليك وحشا داخليا يعربد ويجول مع كل اندفاعة فى جسدك .

فمنذ عودة الزملاء من رحلة «التعذيب النفسى» ومنذ سقوط عدد آخر من الزملاء فى نفس الرحلة تفتحت شهية الاجهــزة للاستمرار فى هذا الاسلوب وتعميقه .

أكتب .. واخرج .. مفتاح سجنك فى يدك . ماعليـك الا أن تكتب «عريضة» الى المسئولين تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة ولا بأس من ان تلعن زملاءك .. وعلى الفور ترحل الى الفيوم حيث ستبقى فترة تتراوح بين أسبوعين الى شهر ... لتكتب مرة أخرى تلعن فيها نفسك وأفكارك السابقة بتفاصيل أكثر ، ثم تنتقل بعد ذلك الى القلعة او السجن الحربى حيث تتلقى بعض المحاضرات من أساتذة دربوا جيدا على عملية غسيل المخ ».

فاذا ماكنت مطيعا ومستوعبا لكل مايطلب منك فتح لك الباب على مصراعيه لتخرج .

هذه اللعبة التي درست جيدا من أجهزة متخصصة تلقت التدريب عليها في الولايات المتحدة الامريكية بدأت تمارس معنا بعنف .. وداخل المعتقل .

وجاء عدد من الضباط المتخصصين ليقيموا معنا ليل نهار يمارسون فيها عملية «تحويل المتمرد والثائر الى خرقة بالية فاقدة الثقة في النفس وفي كل شيء»

خطابات موجهة تصل من الاهل .. كلها تطلب من الابن أو الأب الخروج «وسماع الكلام»

زوجات يطلبن الطلاق ..وأخريات يكتبن يشرحن لازواجهن كيف ضاقت في وجههم الحياة حتى اصبحوا على أبواب الانحراف هكذا .

وطفلة ترسل لوالدها « أخرج من أجلي ومن أجل ماما .. قالوا لي انك لاتريد ان تخرج لانك تكرهنا .. أنا اكرهك »

ووالد مسن يكتب لابنه :ـ

لماذا لا تريد أن تخرج .. انني على مشارف الموت وكم كنت أود أن أراك قبل أن أموت .. اخرج من اجلي كفاك عنادا .. »

وما زلت اذكر هنداوي الصادق العامل بشبرا الخيمة ،وكم كان مناضلا صلبا ومصريا تعتز به الطبقة العاملة المصرية .. تعرض مرات عديدة للضرب وللجلد أيام التعذيب البدني ولكن الامل والاصرار لم ينطفيء في عينيه بل كان يخرج من كل «علقة» وهو يقول ساخرا :

زعلانين ليه .. ولا يهمكوا .. دانا زى القطط بسبع أرواح .. «أقبل فجاة بدأ ينطوى على نفسه ويخرج كثيرا ليجلس وحيدا بجوار السور ويظل هناك لساعات طويلة .. لقد أصاب السهم كعب اخيل والتقيت به يوما في عزلته :

ـ : مالك ياهنداوى ..

ـ : ولا حاجة ..

ـ : احنا صحاب .. فيه حاجات كثيرة .. قوللى

وبكى هنداوى .. بكى كطفل صغير وهو يرمى لى بخطابه

وصله من زوجته ٠٠ كان الخطاب كما هو واضح كتبه خبير التعذيب النفسى ٠

«ابننك هدى أصيبت بالتهاب رئوى ، اذهب بها كل يوم الى القصر العينى، بعت كل شيء ولم يعد عندى الا أن أبيع نفسى ٠٠ ولا بد ان أنقذ هدى ٠٠ أما انت فالله يسامحك ـ؟؟

ويومها احتضنت هنداوى وأخذت أخفف عنه وأؤكد له ان زوجته تبالغ فى الكلام بناء على توجيهات الاجهزة وأن ابنته بخير وان زوجته لن تعدم بوسيلة شريفة لكسب العيش ٠أما هم فلن يسامحهم الله ٠

ولكن مثال هنداوى أخذ يتكرر وبصور أخرى ٠٠ أحدهم صرخ فى وجهى وأنا أخفف عنه

ـ : يدك فى الماء البارد ٠٠ فأنت لست مكتأب ولا تعرف ٠

وآخر قال ساخرا :

ـ : لماذا نعاند وأهلنا فى الخارج يعانون ٠٠ من أجل الفقراء والمظلومين ٠٠ طظ ٠٠ لاأحد يحس بنا ٠ ٠ أولادى يجوعون تلك هى القضية الآن ٠٠ لابد ان أخرج ٠٠

ـ : قلت له فى هدوء

ـ : تستطيع ان تخرج ٠٠

قال لى فى انفعال :

ـ : كيف ٠٠ كيف ٠ ان اكتب مايريدونه ٠

ـ : ألست تريد ان تخرج ٠٠

ـ : ولكن أريد ان أخرج مواطنا شريفا ٠٠ وليس خرقة بالية .

هكذا كانت معركة قاسية ضارية تدور فى اعماق كل واحد منا وان تفاوتت مظاهرها وفقا لحجم المشكلة الخاصة التى يواجهها كل واحد ووفقا لمدى نضج ووعى الانسان بمثل هذه الاساليب ٠

واحساس ذاتى بالدفاع عن النفس ، وبادراك لابعاد معركة « التصفية السلمية » التى بدأت تشن على المعتقلين بعنف ، نفجرت الطاقات والابداعات الفنية والفكرية ٠

فانشئت جامعة شعبية تدرس جميع ألوان العلوم والفنون

وكانت هيئة التدريس تتكون من مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية مثل الدكتور فؤاد مرسى أستاذ القانون بحقوق الاسكندرية والدكتور اسماعيل صبرى عبدالله أستاذالاقتصاد بحقوق القاهرة والدكتور فايق فريد الاستاذ بهندسةالقاهرة والدكتور عبد العظيم انيس الاستاذ بكلية العلوم والدكتور عبد المنعم عيد المدرس بكلية الطب ـ القصر العينى والدكتور حسين كمال الدين الاستاذ بعلوم الاسكندرية والدكتورفوزى منصور الاستاذ بكلية التجارة وعدد آخر من بتصميم بناء مسرح رومانى فى حوش السجن واستمر العمل اساتذة الجامعات والمختصين فى الفلسفة والفن والحق بهذه الجامعة عدد كبير من الزملاء وخاصة العمال والفلاحين كما أقيمت المعارض الفنية للنحت والرسم واشترك فيها فنانون مثل حسن فؤاد وداود عزيز ووليم الملكوصبحى الشارونى وسعد عارف .

وعقدت المسابقات والندوات حول القصة والشعر اشترك فيها معين بسيسو ومحمد صدقى ومحمود أمين العالم ومحسن الخياط ورؤوف نظمى وشوقى عبد الحكيم وأمير اسكندر . وابراهيم عبد الحليم وزكى مراد وصلاح حافظ وفتحى خليل وصنع الله ابراهيم وكمال القلش ..

كما بدأ نشاط مسرحى واسع وقام المهندس فوزى حبشى بتصميم بناء مسرح رومانى فى حوش السجن وأستمر العمل فيه لأكثر من شهرين وجاء فى حد ذاته تحفة فنية رائعة وافتتح بمسرحية جديدة لافريد فرج هى «حلاق بغداد» « ثم « الخبر » لصلاح حافظ ثم توالت عليها العروض المسرحية التى كانت كلها تأليفا وتمثيلا واخراجا من المعتقلين فقدم لشوقى عبد الحكيم مسرحية العتمه وقدمت مسرحيتين «الكوبرى » و« الغائب » ومسرحيات اخرى للويس بقطر ومحمود أمين العالم .. كما تقدم على المسرح عدد آخر من المسرحيات التى كانت تعد فى الخارج مثل « عيلة الدوغرى » لنعمان عاشور والسبنسه لسعد وهبه وبعض مسرحيات شكسبير وبرنارد شو ونجيب الريحانى .

كما زاد الاهتمام باثراء المكتبة .. وقام كثير من الزملاء باستجلاب كتب من مكتبتهم الخاصة حتى وصل مجموع الكتب عندنا الى حوالى ١٠ آلاف كتاب كلها من النوع الجيد وتضم أحسن وأحدث المؤلفات فى الثقافة والفلسفة والقصة والمسرح والتربية وعلم النفس والاقتصاد .

وهكذا ماج المعتقل بحركة ثقافية وفكرية واسعة فى مقابل حملات التصفية التى كانت تواجه ضدنا

كان سلاحنا فى مواجهة عمليات «للتخريب النفسى» هو مزيد من الثقافة والفكر ومزيد من الوعى والادراك بواقع بلدنا والعالم الذى نعيش فيه .

الفكر .. سلاح الانسان الجديد انسان المستقبل فى مواجهة كل أساليب التعسف والاضطهاد وامتهان الانسان سواء كان امتهانا جسديا أم تعسفيا .

وكان سباقا شاقا ومجهدا .

على الطرف الآخر أساتذة لايقيمون وزنا للانسان كل مادرسوه وعرفوه هى التقاط نقاط الضعف وتضحيتها بكل الوسائل والامكانيات المتاحة يمارسون خبراتهم فى مجموعة من المعتقلين المعزولين عن الحياة فى صحراء قاحلة .

وآخرون يؤمنون بالانسان ،بطاقته بقدراته بغدمشرق تذوب فيه الفوارق الطبقية فتحاصر فيه نقاط الضعف وتطور فيه كل ملكات الانسان من اجل ان يعطى ويبتكر ويبدع لخيره ولخير شعبه ..

ولا سلاح فى يدهم الا ذلك الايمان بالغد وفى اتون هذه المعركة ، الهادئة من السطح المستعره فى الاعماق يسقط بعض الضحايا .

فقد ثلاثة من الزملاء عقولهم فى المعركة بعد أن اختلطت عليهم الامور وتجاذبتهم الرغبة فى الخروج الى الاهل والرغبة أيضا فى الاحتفاظ بآدميتهم فتاهت عقولهم ..

وزملاء آخرون ، وثقوا مثلما وثق الأب ياناريوس فى رواية الاخوة الاعداء للكاتب اليونانى كازانتزاكس يعرفون اين الحق والخير والعدالة ولكن ضعفهم يجعلهم يقفون على قمة الجبل الفاصل بين رجال الكابتن الاحمر وجيوش الكومندان الابيض

.. لايجدون مخرجا من كل هذا الا بمزيد من اللجوء الى الله تماما مثلما كان يلجأ الأب ياناروس الى المسيح والعذراء ليبكي الليالى الطوال فى المذبح وتحت الايقونة المقدسة «يجب أنه أحصل على جواب .. أريد جوابا واسم الله .. آه لو كان الانسان يستطيع أن يرقص على الجو الملتهب ، آه لو كان يستطيع أن يسير فى هذا العالم دون أن يسقط فى اليأس والخوف واللعنة ... ولكن ياالهى ماأقسى مايحتمل الانسان من الصراع والألم قبل ان يبلغ ذلك ..»

وكان رزق مكاري وهو واحد من الزملاء الذين تاهت عقولهم وهم فى خضم معركة الذات القاسية ، يعذب كل منا ونحن نراه يمضى فى فناء السجن أو فى طرقات العنبر يردد منولوجا طويلا وبصوت عال أحيانا وينخفض أحيانا أخرى وكأنه هملت حينما لم يكن قادرا على الحسم بعد .

ـ : أخرج أو لاأخرج .. عملت ايه ولا حاجة ، كل الخير لكل الناس .. كفاية قتل كفاية ضرب ... مراتى أولادى .. أنا جاى .. لأ لأ .. استنوا اصبروا ... ها . ها . يحيا الوفد . يحيا كل حاجة ويسقط السمك فى الماء . ها .. ها .. ولقد طلبنا بأن يذهب رزق والزميلان الى المستشفى او يفرج عنهم ولكنهم رفضوا . وكان مغزى الرفض واضحا هو أن يظل رزق والزميلين الآخرين بيننا كنوع من الاشباح المعذبة تلعب دور الساحرات والمتنبآت فى المسرحيات الاغريقية لكى يظل شبح المأساة معلقا امامنا وكأنه قدر لا مفر منه .

وجاء حسن المصيلحى نفسه ومعه أركان حربه الى أرض الواحات ولأول مرة ليشن معركة مباشرة (وليضع شعارا) :

« اما الموت فى الصحراء» «واما الجنون» واما كتابه مايملى عليك» وارتكب قائد التصفية بذلك خطيئة عمره ، فلقد كان مجرد وجوده فى الواحات حافزا لاطلاق طاقات هائلة من القوة والصلابة فى اتجاه معاكس تماما لاغراضه .

لقد حسب المصيلحى وفقا للتقارير التى وصلته عن حالة بعض الزملاء وصمت بعضهم وفقدان البعض للعقل ، ان البذرة قد تآكلت من الداخل وانها نزعة المنتصر الذى سيقلع البذور بضربة فأس واحدة .

وحينما بدأ يستدعي في الليل ، وبعدما تغلق العنابر ، مجموعات من الزملاء يساومها على الافراج بشروطه كان ماسمعه من هؤلاء الزملاء معاكساتماما لكل أحلامه وتصوراته ·
كلهم رفضوا عروضه ومزقوا الورق الذى قدمه لهم ورموه فى وجهه ، وألقوا فى وجهه أيضا بكلمات لايمكن أن ينساها طيلة حياته ·

أنت عميل للمخابرات الامريكية وعدو لمصر وشعب مصر · قالها له عامل بسيط هو هنداوى الصادق الذى اختاره المصيلحى بعد تجربة الخطاب الذى أرسلته زوجته » ·
بل ان رزق مكاوى استعاد عقله معه ، وجرى وراءه وهو يصر انه كلب مسعور لابد من التخلص منه ·· وقيل له ·· أنت فاشى صغير ·· وسيأتى يوم تحاسب فيه على كل جرائمك البشعة ··
ولم يتحمل المصيلحى أكثر من ليلة ثانية غادر بعدهاالمعتقل وهو الذى كان قد أعلن عقب وصوله انه سيبقى أسبوعا ليصفى المعتقل بشروطه »
ولابد وأن مرارة الفشل هى التى جعلته يقسم أن أحدا لن يخرج من هذه الصحراء الا فى حالتين ·· اما محمولا على أربع او صاغرا لاوامره ومنفذا لتعليماته .
ومرة أخرى نكسب معركةالثقة بالنفس والقدرة علىمواجهة أساليب التعذيب النفسى ·

ليس هذا فقط بل لقد كان لزيارة المصيلحى جانبا ايجابيا آخر فلقد أوضحت على الاقل ان هناك رغبة فى تصفيةالمعتقل وأمسكنا بالخيط ، ودارت مناقشات واسعة بين كل الزملاء ·
هل نبقى مدافعين فقط ، تمارس علينا كل الاساليب المختلفة من التعذيب البدنى والنفسى والضغوط الخارجية والداخلية لنواجهها الواحد تلو الآخر ··· أم ان علينا أننبادر بالهجوم وبكل الامكانيات المتاحة ·
وكان لابد من عمل شيء ·· شيء أكثر حسما ··· وكان القرار ··· الاضراب عن الطعام ·· حتى الموت أو الأفراج ·· وكان قرار خطير ·

- ١٨ -

يا ايها الشرفاء لاتهنوا اذا
طفت الذئاب، لاترهبوا طرق
الهدايه ان خلت من عابريهـا ،
سـيروا بنا نستخلص الانسان
من عار العذاب

الحسين ثائرا ـ عبد الرحمن الشرقـاوى

يوليو ١٩٦١

في اليوم الاول حماس
في اليوم الثانى احساس جارف بالجوع
في الثالث بعض الآلام في المفاصل وكأن صواميل الجسـم تفك .

في اليوم الخامس والسادس مرحلة انتقالية غريبة تحس فيها كما لو كان شيئا آخر منفصل ينمو داخل شرنقة الجسد وابتداء من اليوم السابع انتقال تام الى مرحلة أخرى الذهن فيها صاف وهائم والجسد نائم متبلد والأحلام كلها تدور حول موائد فيها مالذ وطاب ، ثمانية عشر يوما منذ بدأ الاضراب عن الطعام الذى دخله أكثر من ٣٥٠ معتقلا بعد أن استبعد الاطباء عدد كبير ممن لايستطيعون تحمل مشـقة الاضراب نتيجـة مرضهم أو هزالهم .

وقد أصررت مثلما أصر عدد آخر من الزملاء على الدخول فى الدفعة الاولى فى اليوم الاول بالرغم من التحفظات الشـديدة التى أبداها الدكتور عبد المنعم عبيـد فلقـد كان الاحسـاس الجارف اننا وصلنا الى مرحلة يمكن أن يضحى الانسان فيهـا بحياته حفاظا على قيمة وانسانيته .. كان المطلوب فى البداية ١٥٠ متطوعا وتطوع ربعمائة وتدخل الاطباء يختارون ؛ وفى اليوم الاول أعلن مائتين الاضراب عن الطعام ، وفوجئت ادارة

السجن وحاولت فى البداية اقناعنا بالعدول، ولكنها في النهاية بعدما أدركت اصرارنا بدأت تتخذ الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالة وهى عزل المضربين والكف عن تقديم الطعام أو أى شىء آخر فيما عدا المياه ٠

وبعد الدفعة الاولى بيومين أعلن مائة آخرون انضمامهم للاضراب ٠

وفى اليوم الرابع دخل خمسون آخرون ٠

وأدركت الادارة انها بازاء معركة أكبر من طاقتها واستنجدت بالقاهرة ٠٠ فمرور أكثر من خمسة أيام على الاضراب يعنى أن هناك جدية ويعنى أيضا ان حياة المصريين يمكن أن تكون فى خطر ٠٠٠

وانقضى الاسبوع الاول فى مهرجانات من الاحتفالات النضالية والاناشيد ٠٠ كانت كل دقيقة جديدة تدخل الاضراب تلهب المشاعر وتضرم نار الصدور المتلهفة والتى ترى فى معركة الاضراب أول تحد كبير من ناحيتنا فى مواجهة اهدار القانون والحريات واهدار انسانية الانسان ٠

كان احساسى مثل احساس كل الزملاء الذين يشاركونى الغرفة اننا فى معركة حقا واننا نقاتل بسلاح لايستطيع أن يملكه الا من هانت عليه الحياة دفاعا عن الحياة ٠

وكانت لبعض الاناشيد تأثير خاص وأنا أسمعها بعد أسبوع من الاضراب وخاصة ذلك النشيد :

شتتونا فى المنافى ... واملأوا منا السجون
سوف تأتيكم ليالى ... ظلها حتف المنون ٠٠
انعيم وبنوكم ... فى المنافى تائهون ٠٠

وكنت اضيف على قدر مااستطيع أن أرفع صوتى ٠ ٠
جائعون ٠٠ جائعون ٠ وفى اليوم العاشر جاء الحاكم العسكرى

لمنطقة الوادى الجديد ·· والتقى بعدد منا وطلب فك الاضراب مقابل مزيد من المكاسب مثل فتح السجن ليلا ونهارا وزيادة مخصصات الاكل والسماح بالزيارات ورفضنا · كان مطلبنا الموت أو الافراج ·

وبعد ذلك بيومين جاء مندوب من القاهرة ليعرض بالاضافة الى المكاسب السابقة أن يحمل مذكرة بآرائنا مشفوعة بطلب الافراج ورافضنا ·· وكان مطلبنا الموت أو الافراج ·

وجاء الكثير من المسئولين ·· وكان موقفنا ثابتا ، بالرغم من أن حالتنا الصحية بدأت تسوء ، ودخل عدد من الزملاءفى حالات اغماء خطرة ومع ذلك رفضنا فك الاضراب ·

وفى اليوم الخامس عشر كان من الواضح اننا على وشك ان نقدم ضحايا فلقد ساءت للغاية حالة زميلين هما الدكتور رؤوف نظمى والمهندس عبد الله كامل ·

وجاء نائب الاحكام العسكرى فى المنطقة ليسجل الحالة وليفتح محضرا بأقوالنا وشهادتنا وملأ أكثر من مائة وعشرون صفحة ستظل واحدة من أهم وأنصع الوثائق فى تاريخ نضال الشعب المصرى من أجل الديمقراطية ·· حاول الرجل والحق يقال ان يخلى مسؤوليته فسجل شهادتنا بالكامل ·

وفى يوم ٢١ يوليو أى فى اليوم السادس عشر للاضراب جاءنا مندوب من الرئاسة ليتحدث الينا بتفويض من الرئيس جمال عبد الناصر ·

وأكد الرجل ادانته باسم الرئيس جمال عبد الناصر لكل ماتعرضنا له من تعذيب وانه يجرى حاليا محاسبة للذين نفذوا هذه السياسة ··

كما أكد أيضا أن الظروف التى أدت الى اعتقالنا قد انتهت وأن هناك بحثا جديا على اعلى المستويات للافراج عنا وأن الرئيس عبد الناصر ومعه عدد آخر من مجلس قيادة الثورة مقتنعون تماما بضرورة الافراج ولكن بعض أعضاء المجلس مازالوا معترضين وأن هذ الاعتراض فى طريقه لأن يزول ·

وقال كلاما كثيرا ·· بل وقال انى موفد لأقول لكم انه لن

يفرج عنكم فقط بل اننا محتاجون لكم وبشـــدة في المرحلة القادمة .

وكان من الطبيعي ان نرفض فك الاضراب ، فحتى الآن لم نسمع سوى كلام ..

وطلب المسئول شيئا واحدا نأخذ بعده قرارأتنا وهو أن نستمع لخطاب الرئيس عبد الناصر مساء غد (٢٣ يولو سنة ١٩٦١) ففيه تأكيد عملي لكل ماقاله لنا بل وعلى حد تعبيره فان هناك مفاجأة كبرى ستعلن غدا .. وهي الثورة الاشتراكيـة وليس من المعقول أن تعلن الثورة الاشتراكية في حـين يبقى الاشتراكيون في السجون والمعتقلات .

واتفقنا للانتظار غدا لسماع خطاب عبد الناصر .

وكانت المفاجأة ..

تاميم واسع للقطاعات الانتاجية في الصناعة وتاميم البنوك والشركات والتامين والتجارة الخارجية ..

اعلان ماسمى بالاصلاح الزراعى الثانى ووضع حدا أقصى لملكية الاسرة بمائة فدان ..

الهجوم على الراسمالية المصرية الكبيرة وتسريحها .

الدفاع عن مصالح العمال والفلاحين واشتراك العمال في مجالس ادارة المؤسسات والشركات وتوزيع نسب في الارباح عليهم .. تبنى النظرية الاشتراكية في التطور .

باختصار كان الخطاب يبدو من الوهلة الاولى تحقيقا لغالبية الشعارات والاهداف التى كنا نرفعها في السنوات الماضية ..

وقررنا فك الاضراب على أساس أن هناك انتصارا سياسيا قد تحقق باعلان تلك الاجراءات الاجتماعية والوطنية الهامة . وعلى أساس أن الافراج عنا على ضوء تلك السياســة أمـرا مفروغا منه .

فليس من المعقول ، كما قال مندوب الرئيـس ان نبقى في السجون في حين أن الاهداف والشعارات التى دخلنا من أجلها السجن ، تتحقق وتتبناها الدولة وتعلنها بشكل رسمى .

ولكن فك الاضراب لم يكن سوى بداية لمرحلة جديدة . مرحلة طويلة ومريرة لاتقل ، بل ربمـــا تزيد قسوة عن

المرحلتين السابقتين .. فاذا كانت المرحلة الاولى هي مايمكن أن نسميه بالتعذيب الجسدي واذا كان المرحلة الثانيــة هي التعذيب النفسي والروحي فأنه يمكن القول انه بالنسبة لنا بدأت مرحلة الصراع السياسي العنيف داخل الاسوار . وفرق بأن تفكر وأنت حرا طليقا أو أن تفكر داخل الزنازين والاسوار.

فبعد السكرة الاولى في أعقاب الخطاب وأيضا في أعقاب انهاء الاضراب والتي استمرت أكثر من أسبوعين لكي يسترد الكثير من الزملاء صحتهم وقدرتهم على استيعاب وهضم وتحليل ماحدث ، بدأت أعنف وأعمق مناقشات سياسية يمكن أن تجري .

وتبلور داخل المعتقل ثلاثة اتجاهات رئيسية :

اتجاه يرى في التأمينات الواسعة التي أعلنت نوعا من رأسمالية الدولة ودعما للنمو الرأسمالي في صورة جديدة حيث أن الرأسمالية المصرية ضعيفة وغير قادرة على مواجهة متطلبات مرحلة النمو فلقد قامت الدولة بالتدخل للاسراع في تنظيم ودفع التطور الرأسمالي .

واتجاه آخر يرى في اجراءات التأميم تحقيقا للاشتراكية وأخذا بالمنهج الاشتراكي في التطور وضربا للنمو الراسمالي وذهب هذا الاتجاه الى القول بأنه توجد على قمة السلطه «مجموعة اشتراكية» يجب مساندتها بلا حدود وبدون تحفظ

وبين هذين الاتجاهين برز اتجـــاه ثالث كان يرى في الاجراءات ضربا وتصفية للرأسمالية الــكبيرة وقطاعات من المتوسطة وانه يفتح الطريق أمام نمو غير راسمالي . ولكن هذه الاجراءات ستبقى عاجزه عن السير في هذا الطريق دون توفير المناخ والأسس الديمقراطية التي تساعد الحركة الجماهيرية والشعبية على اعطائها العمق والبعد الاجتماعي اللازمين

وحول هذه الاتجاهات الثلاثة الرئيسية وعشرات التفريعات الاخرى دارت أعنف وأقسى مناقشات سياسية واغناها في نفس الوقت ..

ولقد سافرت بعد ذلك كثيرا وحضرت ندوات سياســية وعلمية كثيرة في الداخل والخارج ولــكنني مازلت ازعم أن

كانت أغنى وأعمق مناقشة سياسية مررت بها ٠٠ فقط كان يشوبها ظلال السجن ٠٠ وظلال السجن يمكن ان تصفى على الأراء السياسية ٠ ابعادا قد لا تحس بها فاحيانا قد نكون متحمسا لفكرة ولكنك تخفى هذا الحماس الزائد أو على الاقل تخففمنه حتى لاتتهم أو يثور فى نفسك الاحساس بأن هذا جاء نتيجة خوف أو رغبة فى الخروج ٠

واحيانا قد تنبهر بفكرة ويكون هذا الانبهار نابعا ودون أن تدرى من سنوات العزلة القاسية التى فرضت علينا وكانت هناك ثلاثة منابر أساسية يعبر كل منبر منها عن رأى من الآراء الثلاثة ، كان هناك مجلة الطريق اى اتخذت بفترة ما الخط الاول وهو الذى يقول انها اجراءات رأسمالية متقدمة ولن يكون لها فاعلية حقيقية الا بتوافر المناخ الديمقراطى ٠

وكان هناك أيضا مجلة «الهواء» التى ذهبت الى اننا بصدد اجراءات إشتراكية وكان هناك أيضا (الافق) وهى التىأخذت موقفا وسطا بين الموقفين السابقين ٠

ولكن كان هناك البعض وأنا منهم يمسك ترموتر أساسى للحكم على أى اجراءات وهو انعكاس ذلك على الحركه الجماهيريه والسياسية وفى المحل الاول تصفية المعتقلات ٠

ولم نكد نفيق من مناقشة الاجراءات الاقتصادية والتى أعلنت ٢١،٢٣ يوليو حتى حدثت مفاجأة سياسية أخرى ربما كانت أبعد أثرا وهى الانفصال السورى فى سبتمبر من نفس العام ٠

وعشنا أياما نلتف فيها حول أجهزة الراديو ونتابع لحظة بلحظة مجريات الامور ومن جميع الاذاعات ٠٠ القاهرة ـ دمشق ـ لندن ـ صوت أمريكا ـ موسكو ـ بغداد ٠

وقامت «واس» اى وكالة انباء عبد الستار الطويلة بدور كبير فى نشر ملخص لما تقوله الاذعات المختلفه حول ذلك الحدث مرتين فى اليوم ٠

كان الموقف خطيرا فى اليوم الاول وكنا نضع ايدينا على

قلوبنا وخاصة بعد ان سمعنا الرئيس عبدالناصر يأمر بتوجيه فرقة من المظليين الى اللاذقية للقضاء على الانقلاب .

ولم ينم أحد ليلتها .. فلقد كان الاحساس الاول انها ضربة من تخطيط استعماري رجعي مستفيدة من الاخطاءالقاتلة التى صاحبت عملية الوحدة نفسها .. ولكن أن تصل الامور الى حد ارسال قوات فان ذلك خطرا أكبر ليس فقط على سوريا بل وعلى مصر نفسها .

ولكن سرعان ماساد العقل ، وفى اليوم التالى أذاع الرئيس عبد الناصر بيانا أدان فيه الانفصال ولكنه وفى الوقت نفسه أعلن ان مصر لن تستخدم السلاح فى فرض الوحدة .

كان الانفصال السورى مفاجأة تامة لنا داخل المعتقلات ، وان كنا نحن قبل أى انسان آخر قد حذرنا منذ ثلاث سنوات من أن قيام الوحدة على أسس ليست ديمقراطية سيعطى الفرصة واسعه لاعداء الوحدة العربيه من امبرياليين ورجعيين بالانقضاض عليها .. ولقد كان ذلك الرأى الذى قلناه ، والذى جر علينا متاعب كثيرة هو الذى دفع بالقطاعات الوطنية المختلفة فى ذلك الوقت لاتهام الماركسيين بأنهم أعداء الوحدة وأعداء القومية العربية .

بل ان جوهر المعركة السياسية سنة ١٩٥٩ كان يدور حول هذه النقطة .. وحدة فورية شاملة غير مدروسة وتقوم على أساس الغاء كافة التنظيمات السياسية الجماهيرية والوطنية .

أم وحدة مدروسة تتم على خطوات وعلى أسس ديمقراطية سليمة واضعة فى اعتبارها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل بلد.. فالقول بأن القوى الامبريالية والرجعية هى التى ضربت هذه الوحدة قول صحيح ولم تكن فى حاجة الى مزيد من الوثائق لفضح تآمر تلك القوى ولكن ان هذه القوى ماكانت تستطيع أن تضرب حلما جماهيريا لدى الشعوب العربية بتلك البساطة مالم تكن هناك ثغرات وأخطاءاستطاعت أن تنفذ منها وتضلل .

ومن الصدف الغريبة ان أبو سيف يوسف كان سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى المصرى فى ذلك الوقت كان يحاكم فى

الاسكندرية أمام محكمة عسكرية خاصة برئاسة الفريق الدجوى ، وكان ابوسيف يدافع عن آرائه وخاصة تلك التى تتعلق بالوحدة العربية وكان مما قاله :

« ان الوحدة العربية على الاساس الذى تمت عليه بين مصر وسورية فيها الكثير من الاخطاء التى يمكن أن تعطى للقوى الامبريالية والرجعية الفرص لضربها ٠ انى أطالب فورا بدراسة هذه الأخطاء وبوضع حلول حقيقية لها وذلك باعطاء الجماهير فرصة اوسع وباشاعة الديمقراطية وذلك حفاظا على دعم أمنية غالية وسدا للطريق أمام محاولات الرجعية والامبريالية لضرب هذه الامنية والا فهناك خطر الانفصال » ٠

وفى اليوم الثانى جاءت أنباء الانفصال ، ووقف أحمد مجاهد المحامى عن أبو سيف يوسف ليسجل أمام المحكمة ٠

«اننى أطالب بالافراج الفورى عن موكلى الذى أثبت انه كان أبعد نظرا واكثر قدرة على فهم مشاكل العمل الوطنى والوحدوى » ولكن أبو سيف لم يفرج عنه كذلك لم يفرج على أى منا ٠

وكان علينا أن ننتظر اكثر من سنتين ونصف ٠
لماذا ؟ ٠٠ سؤال محير ٠٠

- ١٩ -

اذا أردتم نصيحة أيها الحملان الصغيران فاقفزوا من فوق سور الحظيرة •
اخرجوا من قبوركم ياأولادى المساكين •

كازانتزاكس — الاخوة الاعداء

مايو سنة ١٩٦٢

لم يجف الصراع السياسى داخل المعتقل بل استمر يتخذ مجراه ولكن على أرضية أقل توترا وأكثر روية •

كانت المناقشات فى البداية ، وعقب اعلان الاجراءات الاجتماعية الواسعة فى يوليو ثم بعد ذلك الانفصال السورى فى سبتمبر ، تجرى كلها وهناك شبه قناعة بأن الافراج عنا مسألة وشيكة •

أليست الاجراءات الاجتماعية التى اتخذت من ضرب المصالح الرأسمالية الكبيرة وتأميم واسع للشركات والمؤسسات الاساسية هو انحياز لوجهة نظرنا التى طالبنا بها ودافعنا عن تحقيقها طوال السنوات الماضية وأليس الدور الذى اتضح وقام به الاستعمار والقوى الرجعية من داخل الاتحاد القومي نفسه ، للعمل على مؤامرة الانفصال هى خير شاهد على صحة وجهة نظرنا التى سبق وأعلناها فى الوحدة •

ليس هذا فقط بل ان عبد الناصر القى خطابا بعد الانفصال بعدة أيام فى جامعة القاهرة قدم فيه نقدا ذاتيا حول كثير من التصرفات والاجراءات التى تمت فى السنوات الماضية •

وكان مما قاله فى هذا الخطاب الكثير مما سبق ونبهنا اليه وحذرنا منه •

قال ان الرأسمالية الكبيرة المصرية حاولت ان تسرق الثورة

وتصوروا ان معركة الاستقلال التى خاضها الشعب المصرى سنة ١٩٥٦ وما أعقبها من تمصير وتأميم للشركات الاجنبية هى فرصة لهم لزيادة كعكتهم على حساب الجماهير .

وقال لقد نبت ان الرجعية تغلغلت داخل الاجهزة وكانت تعمل من أجل السيطرة الكاملة على الدولة وقال ان الذين تآمروا على الوحدة كانوا عناصر قيادية داخل الاتحاد القومى وداخل أجهزة الدولة . وأن مصر ستضع يدها مع قوى الثورة العربية والعالمية فى كل مكان .

وقال انه لا طريق أمامنا سوى مزيد من الحرية للجماهير والاعتماد على حركة الجماهير من أجل بناء مجتمع تسوده الكفاية والعدل .

بتلك المقاييس التى قالها عبد الناصر نفسه بعد ثلاث سنوات تكون تلك المجموعات التى ألقيت فى السجون ولاقت مالاقت خلال تلك الفترة هى أصدق وأكثر الجماعات تعبيرا ودفاعا عن الحقيقة .. هذا الكلام الذى أصبح سياسة رسمية للدولة على لسان رئيسها عندما قبل منذ ثلاث سنوات صدرت الاتهامات المخجلة «بالخيانة والعداء للوحدة» على لسان المصفقين والمهللين وكذابى الزفة والمرتزقة .. ويبدوا أن هذا السبب بالذات كان وراء تأجيل الافراج عنا فاذا كان كدابوا الزفة والمرتزقة قد فضحوا فى سوريا فانهم فى مصر موجودون وقادرون على التلون والتكيف تماما كالحرباء .. وكانوا متخصصين داخل الاجهزة وجهاز المباحث العامة على وجه خاص ..

ولان رئيس الجمهورية نفسه قد اعترف بصدق الاقوال التى دخلنا من أجلها السجن والمعتقل منذ ثلاث سنوات ، ولان الافراج عنا كان يعني تلاحما بين أقوال عبد الناصر وبين القادرين على وضع هذه الاقوال موضع التنفيذ ولان حسن المصيلحى ، ومنذ عدة شهور فقط ، قد أقسم بشرفه ــ وهو شرف تعرفه جيدا المخابرات الامريكية ــ اننا لن نخرج من هذه الصحراء الا محمولين على الاعناق ، أى موتى ، واما منفذين لما يطلبه ويريده .

لكل هذا ولأمور أخرى كثيرة اتضحت فيما بعد لم يفرج عنا ، ليس هذا فقط بل وواصلت أجهزة المصيلحي معركتها القذرة في محاولة التصفية النفسية والمعنوية للمعتقلين •

وعرفنا فيما بعد انه عندما طلب عبد الناصر من المصيلحي البدء في الافراج عن المعتقلين طلب المصيلحي مهلة للتصرف حتى لايخرجوا ولديهم احساس بأنهم أبطال ••

وكانت أول رسالة واضحه وصلتنا بهذا المعنى ، حينما أعيد الى المعتقل عدد من الزملاء المسجونين الذين كان قد حكم عليهم في أوائل الخمسينات (من سنة ١٩٥٢ الى ١٩٥٤) بأحكام تتفاوت بين ثمانية وعشر سنوات •

كان هؤلاء قد أتموا سنوات الحكم كاملة رغم أن بعضهم كانت جريمته انه حاول اسقاط الحكم في أيام النظام الملكي •

وعندما رحلوا الى القاهرة للافراج عنهم لم يكن يخالجنا شك في انهم خارجون وخاصة بعد كل تلك الظروف •

ولكنهم عادوا الينا بعد أيام وقد تحولوا من مسجونين الى معتقلين أي أن يرتدوا الزي الابيض بدلا من الازرق ويقيموا في عنبر اثنين بدلا من عنبر واحد •

كانت عودة حمدى عبد الجواد وداود عزيز وزكى مراد ومصطفى طيبة ووديع وهيب ومحمد شطا بعد أن رفضوا عروض المصيلحى والجلوس على كرسى اعترافه المهيمن ، تأكيدا لنا بأن ماتصورناه فى البداية أمرا طبيعيا وهو الافراج عنا ليس بتلك البساطة •• وكان تأكيدا فى نفس الوقت لمغزى ظل ملازما للمرحلة كلها وهي أن الهوة بين الاقوال والافعال ستظل موجودة ومتسعة مهما تغيرت أفكار القيادات التي ترسم السياسه ، فالاجهزة المنفذة هى نفسها لم تتغير •

وقد ثبت كما تأكد بعد ذلك بسنوات ان الحديث عن تغيير جذرى فى المجتمع بنفس أجهزة الدولة القديمة يظل دائما مجرد أماني رومانسية قد تدور في عقل احد القادة ولكنها لا يمكن أن تتحول الى واقع فعلى •

وفرض الواقع الجديد نفسه حتى على أكثرنا تفاؤلا ••

ولكن الامور لم تعد مثلما كانت .. فلقد كانت التغييرات السياسية التى تجرى فى الخارج تعطينا المزيد من الاحساس بالثقة والغريب أيضا ان المزيد من الزهد فى أى افراج يلونه أى شرط ..

ومضت وتيرة الحياة فى الصحراء بعد أن استعادت نبضها الهادىء . الجامعة الشعبية تحتفل بتخريج أول فوج فى جميع الفروع والتخصصات .. والندوات السياسية والثقافية مزدهرة بل وبدأت تصدر كتب ومؤلفات ومجلات مكتوبة «بخط اليد طبعا» .

وحركة الترجمة تتسع .. ومكتبتنا عامرة . وبين الحين والآخر تقام سهرة فنية على المسرح الرومانى تقدم فيها عروض مسرحية جيدة ..

وفرقة العمل فى المزرعة برئاسة المهندس حسين طلعت وعبد المنعم شتلة تتحفنا كل أسبوع بمنتجات المزرعة من طماطم وخيار وخص وبطيخ وأنواع من الخضر المختلفة لتعوض بعض الشيء النقص الواضح فى التغذية وفى الكالسيوم والفسفور الذى نعانى منه .

ولكن ظاهرة أخرى بدأت تبرز ..

فلقد بدأ عدد متزايد من الزملاء يسقطون فريسة أمراض مختلفة ابتداء من الدوسينتاريا حتى أمراض المثانة والكلى والمعدة .. والعيون . ويبدوا أن فترة الاضراب عن الطعام الطويلة قد قضت على بعض المقاومة لدى البعض فهاجمتهم الامراض بعنف .

ورحل العامل على زهران الى القصر العينى بعد اكتشاف بولينا حادة ولكن على فارق الحياة بعد يومين فى القصر العينى .

وكذلك أسعف أحمد البيكار من نزلة معوية قاسية وأرسل الى القصر العينى ، ولكنهم أفرجوا عنه هناك بعد أن إكتشف الاطباء ان حالته ميئوس منها .. ومات البكار بعد أسبوع من الافراج عنه ..

ولقد أحسست فى تلك الفترة بشىء ما فى عينى ..

كان يجتاحني أحيانا صداع عنيف اعانيه في صـــمت ثم يعقب نوبات الصداع ضعف ملحوظ في ابصـــار عيني وقد كتمت المسألة بيني وبين نفسي لفترة ، فلقد حسبنها مسألة عارضة لاتستحق وانها سرعان ماتنتهي فلم أكن لأريد أن أزيد متاعب الزملاء وخاصة ونحن نواجه كـــل يوم بعض حالات المرض الشديد ٠٠ ولكن الصداع استمر كما استمر تدهور الابصار بشكل ملحوظ ٠٠ وفي هدوء توجهت الى أحد الزملاء الاطباء وشكوت له مما أعاني ٠٠ واستمع الزميل في هدوءثم قام يكشف أولا على عيني وقال وقد امتلئت ملامحه بجـــدية غريبـــة ٠

ــ : منذمتى تحس بذلك

ــ : منذ شهور

ــ : ولماذا سكت

ــ : أحسبها مسألة بسيطة

ــ : ان ضغط العين مرتفع جدا ٠٠ ولا بد من علاج سريع

وفي اليوم التالي كنت أعرض على طبيب السجن الذياتفق مع الزميل في التشخيص وفي خطورة الاصابة وكتب تقريرا بترحيلي الى مستشفى القصر العيني فورا ٠

وطوال الاسبوع الذى انتظرته حتى جاءت الموافقة بالسفر الى القاهرة كان يتزايد لدى الاحساس بخطورة الاصابة ٠ ٠ انعكس ذلك في اهتمام الزملاء الاطبــاء وفي نظرات الزمــلاء ورعايتهم واصرارهم على ألا أزاول أى عمل ٠

وكم كان ذلك يضايقني بل ويحز في نفسي كثيرا ، فحتى أسبوع مضى كنت واحد من المجموعات التي شكلت لخـــدمة المرضى ولرعاية الزملاء الذين يعانون من بعض الازماتالنفسية والخاصة ٠٠ ولقد كنت سعيدا وفخورا بهذا العمل الذى كان ينمي بداخلي قدرة هائلة وطاقة غريبة على هضـــم المشـــاكل ومحاصرتها حتى أن سيد البكار كان يقول دائمـــا انني أكثر الناس تفاؤلا في العالم وأن لدى قدرة غير محدودة على تحويل الدمعة الى ابتسامة ٠

لهذا كنت أتألم ٠٠ ليس فقط للصداع القاتل الذى يهاجمني يوميا وليس لآلام العين وتدهور البصر ، بل واكثر من هذا لانى كففت عن الدور الذى كنت أقوم به باستمتاع بل وتحولت أنا الآخر الى حالة ٠

وفى صباح ٦ مايو حملت أمتعتى ولبست بدلتى وودعت الزملاء الذين حرصوا كلهم على الخروج لتوديعى واتجهت ومعى الحرس الى الاتوبيس فى الطريق الى أسيوط ومنها الى القاهرة ٠

كانت الرحلة على الطريق الصحراوى الجديد الذى انفتح هذا العام ويصل الواحات بأسيوط يستغرق حوالى ست ساعات قضيتها كلها نائما او شبه نائم فطوال الليلة الماضية ظللت وسط الزملاء والاصدقاء الذين أصروا على أن يقضوا معى تلك الليلة ، ربما لاحساس بعضهم انني قد لاأعود ونظرا لخطورة الحالة ، وربما لاشفاق بعضهم من التجربة ٠٠ وقضينا الليلة كلها نروى ونحكى ونسترجع الذكريات ونحاول ان نتخيل صورة الغد ٠٠

ووصلنا الى أسيوط وانتظرنا فى المحطة بضع ساعات أخرى حتى جاء قطار السابعة مساء واحتللت أنا وحراسي ديوانا فاخرا ٠٠ كان هناك بعض المظاهر المتكررة والتى رأيتها فى رحلتى السابقة الى أسيوط ٠٠ الحرس الذين يملأوا المحطة ليبعدوا أي انسان من الاقتراب منك ، ثم صف الحراس الذى تقف عند كل محطة يمر عليها القطار ليطمئنوا الى أن الراكب الخطير قابع فى ديوانه ٠

ولكن الرحلة هذه المرة الى القاهرة ٠٠ الحبيبة ٠

ومضى القطار يقطع الليل والارض مبددا سكون الوادى بصفيره وعجلاته بينما التزمت بشباك فى الممر أتطلع منه الى الحقول النائمة فى حضن أضواء القمر المكتمل ٠

ومرت ملوى ومنفلوط والمنيا وبنى سويف ، مدن لم أرها من قبل ربما فقط سمعت باننا مررنا عليها عندما رحلت من الفيوم الى الواحات فى سبتمبر ١٩٥٩

وكانت علامات مضيئة ومشعة فى الطريق الى القاهرة .

لم أنم لم أستطيع ان أجلس لحظة واحدة ، كنت اجهز نفسى لاستقبال القاهرة اكثر من ثلاث سنوات مررت على هذا الطريق بعيدا عن القاهرة .

وحينما لمحت على ضوء القمر اهرامات الجيزة تطل من بعيد كاد قلبى يذوب فى الدقات العنيفة التى اجتاحته .

نسيت عيني ونسيت ألامي وكف الصداع أو لم أعد أحس به شيء واحد كان يجتاحني والقطار يدخـــل الجيزة ثم يدور حولها من خلف الجامعة وبين السرايات وبولاق الدكروروامبابة ليدخل فى احضان قاهرتي الدافئة .. مدينتي العظيمة .. الصامدة ، الغارقة فى الاضواء .. هاأنا أعود .. وامتـلأت عيناى بالدموع .

وبالرغم من اننا وصلنا فى ساعة متاخرة من الليل الا أن ميدان المحطة كان كعادته حيا زاخرا ، والقيت نظرة على بوفيه المحطة .. هو نفسه لم يتغير وكانى كنت أجلس عليه بالامس .. وتعود الحياة كلها فى لحظات على نفس المقعد كنت أجلس أتناول افطارى أحيانا واقرأ جرايد الصباح ، ومن هذه البوابة كنت أخرج فى الطريق الى الجريدة .. وعلى بعد مئات الامتار فقط يقبع بيتى .. أختى وأولادها .. وعلى بعد مئات الامتار يوجد الآن الكثير من الاهل والاصدقاء والرفاق .. كنت أحس بهم وبقربهم منى .. رغم آنهم ليس لديهم فكرة على الاطلاق بأننى هنا .. اخيرا .. فى القاهرة .

وكان البوكس فى الانتظار . وركبناه فى الطريق الى القلعة حيث قضيت بضعة ساعات فى زنزانة مغلقة

وفى الصباح كنا فى الطريق الى القصر العيني .
معتقل وضابط .. وثلاث عساكر .

- ٢٠ -

الموسيقى تاتى عبر النهر والمظلم
وتنـــادينى واحترق قلبى ألم
أوم ٠٠ ٠ دلنى على الطـــريق

طاغور الناسك

مايو سنة ١٩٦٢

النيل يجرى فى هدوء وعلى سطحه الرقراق ومياهه الصافية التى لم تشبها بعد حمرة الفيضان ، تنعكس الانوار المنبعثـة من الجانبين ٠

ومن شرفة العنبر الواسعة تقف بعض العمارات العملاقـة على الجانب الآخر ٠٠ فى الجيزة ٠ معظم نوافذها وشرفاتها مفتوحة بعضها يغمره النور والبعض الآخر يكتنفه الظلام وبعض منها غارق فى أضواء برتقالية خافتة ٠

وموسيقى تنبعث من مكان ما يصعب تحديده ، تتضـــح أنغامها وتعلوا أحيانا ثم تخفت وتتوه الالغام أحيانا كثيرة مع صوت احدى العربات التى تمـــرق فى خفة علـى كـوبرى الجامعـــة ٠٠

وتحت العين والفدم ، وعلى الشاطىء المجاور عند كازينو «البل فى» يضم ثنائيات عاشقة او رباعيات ساهرة تنعم بليل القاهرة ونيلها وتصل الى اذنى احيانا ضحكة عالية متموجـة تثير داخلى تيارا فائرا متفنحا للحياة يوقظ مشاعر واحاسيس مضى عليها وقت طويل دون ان تمارس حتى كدت انساها ٠٠ ودقت ساعة الجامعة المجاورة اثنى عشر دقة تتبعتها واحـــدة واحدة ٠٠ كل دقة كانت تلقى بحجر فى بركة الداخل فتثير العديد من التموجات المتلاحقة وتعصف بالسكون المفتعل الذى

كان يخيم ، ويمتد شريط الحياة متحركا ملونا ٠٠ فى كافيتريا الاداب ، والطريق لم يتضح بعد والعقل منفتح على استعداد لان يفهم ويستوعب ؛ وقضايا كثيرة نفرض نفسها عليه ومناقشات صاخبة وهادئة فى البوفيه وفى المدرجات ومع الاساتذة والبحث عن طريق لمصر الحرة مصر المستقلة مصر الديمقراطية مصر التى هى ملك لكل ابنائها وبناتها ٠

وشاب ريفى يحمل فى عينيه ورأسه مآسى كثيرة رآها وعاشها فى قريته ، البؤس والفقر والتخلف ٠٠ والخوف ، ثم يدرس الادب الاوربى والفلسفة ويقارن بين أحوال قريته وبين كل كلمة يسمعها من أستاذ أو يقرأها فى مسرحية مقررة او قصيدة شعر يدرسها ويسأل ويناقش ويختلف مع بعض الاساتذة ويعجب ببعضهم ٠ ويحك رأسه بعنف ويواصل مسيرة الفهم والاستيعاب ٠٠ ويتضح أمامه الطريق ، انه ماجاء الى الجامعة لكى يصبح مدرسا أو موظفا يتقاضى أجرا بمقدار الليسانس بل يغمره وعى غريب بأنه مبعوث قريته بكل مشاكلها الى المدينة وأن عليه أن يقنع تلك المدينة بعدالة قضية قريته ٠٠ ويخطو خطواته الاولى نحو الادراك والوعى الحقيقى ٠٠ بذاته ومجتمعه ٠

ـ : حيلك ٠٠ دانت مش هنا خالص ٠

قالتها الحكيمة السهرانة التى كانت قد تسللت دون أن أدرى ٠

ورميت بنفسى على كرسى فى الشرفة بينما وقفت «سحر» بقوامها الممتد والمتناسق وقد أسندت ظهرها الى جدار الشرفة وساهم ضوء القمر مع امتداد أضواء الشارع والكازينو فى رسم صورة مجسمة لها لاتبين تفاصيلها مثل الهة الاغريق وعادت تقول فى رقة أكثر

ـ : تشرد كثيرا ٠٠

ودون أن تنتظر ردا ، راحت كعادتها تحكى فى سخرية ضاحكة عن «الحرس» الذين نام أحدهم على باب العنبر بينما

ارتمى الآخر على سرير خال ، وانها أصبحت الآن مسئولة عنى ليس فقط من ناحية العلاج بل ومن ناحية الحراسة ٠٠٠ ثم انتقلت من موضوع الحرس الى موضوعات أخرى كثيرة ،ابتداء من شكواها من ارهاق العمل الى ظروف والدتها المريضة الى الخطاب الكثيرين الذين ترفضهم الى قطة صغيرة سوداء فى بيتها الى استعراض ساخر للاطباء والذين تعمل معهم وكيف يغازلها كل على انفراد ويحذرها من الآخر ، واقترحت سحر أن نشرب كوبا من الشاى وقامت تعـده بنفسها ٠٠ كانت تلك الليلة الثالثة لوجودى فى عنبر ١٣ «عيون» فى القصر العينى بعد أن استقبلنى فى اليوم الاول الدكتورعصام توفيق الاستاذالمساعد للعيون وكتب لى بالدخول فورا «لاجراء عملية جلوكوما»وبالرغم من أن الدكتور عصام قد أبدى انزعاجه لتدهور الحالة الا انه طمأننى وفى عيونه بريق انسانى وهو يتأمل القيد فى يدى ٠

ـ : معلهش ٠٠ جت سليمة لم تتأخر كثير ٠٠ سأجرى لك العملية بعد خمسة أيام ٠٠

وخلال اليومين الماضيين اللذين قضيتهما فى غرفة خاصة فى عنبر ١٣ كانت كل ساعة بل كل دقيقة مليئة بما يمكن أن يكون تعويضنا عن السنوات الثلاث فى الصحراء ٠

فى اليوم الاول ٠٠ جاءت أختى وأولادها ٠٠ وكانت واحدة من تلك اللحظات المليئة بالانفعال حين أخذت تضمنى وتبكى ومعها سامح الذى كبر واقترب منى فى توجس فى البداية ثم اندفع نحوى بعد ان تعرف على «خاله»

وفى اليوم الثانى ٠ جاء أبى من القرية وعلى لسانه كلمة يرددها :

«الحمد لله ٠٠ رأيتك مرة ثانية ٠٠ الحمد لله ٠٠»

وبالرغم من الاوامر التى كانت لدى الحرس بمنـع الزيارة أو الاختلاط بالمرضى الا أن ذلك لم يكن من المـمكن تنفيذه فالعنبر ملىء بعشرات المرضى الذين يزورهم ذويهـم كل يوم كذلك كان من السهل تدبير بعض المظاهر الشكلية حتى لا يضار

أحد من الحارسين الذين كانا على استعداد لتقديم أى الخدمات ٠ كنت أقضى النهار كله غارقا مع مشاعر الاهل أحكى القليل وأسمع الكثير ٠٠٠ أخى الاكبر رشدى ويعمل مدرسا راح الى مبنى المباحث بعد اسبوع من الاعتقال يسأل عن مكانى فكان نصيبه علقة محترمه مع حجز فى المباحث لمدة ٢٤ ساعة وأكبر اخواتى تزوج ، وأختى أصبح لها أهداب وهانى الى جانب سامح ٠٠ وابنة عمى دخلت كلية الآداب قسم انجليزى ٠ ٠ وابنة الجيران تزوجت وأهل القرية يبعثون السلامات الحارة ٠

وكان أبى يجلس النهار كله يتأملنى ويتحسسنى كما لو كان قد عثر على شىء افقده منذ زمن طويل

«الحمد لله ٠٠ رأيتك مرة ثانية ٠٠ »

وحكى أبى كيف انه بعد اعتقالى بفترة ذهب الى الاستاذ محمد نصر ــ والد صلاح نصر مدير المخابرات ــ وكانا زميلين فى الدراسة بالاضافة الى انه ابن قريتنا

وحاول الأب ان يدفع صلاح ابنه ليتدخل للافراج او على الاقل لنقلى الى القاهرة بعيدا عن التعذيب الذى كانوا يسمعون عنه ٠

ولكن صلاح قال :

مستحيل ٠٠ ان أمرهم فى يد الرئيس شخصيا ولايمكن لأحد منا أن يتدخل ٠

وأحيانا ماكان يمر الدكتور عصام ونائبه الشاب الدكتور أحمد فيجلسان قليلا ليسألان عن صحة ماسمعوه وقرأوه فى الصحف الاجنبية والتعذيب الذى تعرضنا له ٠

ولكن الدكتور عصام كان يقطع الحديث فجأة وهو يتطلع حوله قائلا :

ــ : المهم عينيك ٠٠ احنا هنا للعلاج ٠

ويمضى بابتسامة جانبية ذات معنى ٠٠

أما «الطيور الجارحة» من المباحث العامة فقد كانت تحوم

دائما حول الغرفة وقد كان من السهل على ان أكتشفهم بالحاسة الخاصة التى تمت عندى بعد طول معاشرتهم حتى اننى أزعم انه أصبحت لدى القدرة على ان أشم رائحتهم ·

كانوا يكتفون بالمراقبة ورصد حركة من يزورنى ولكن أحدا منهم لم يتدخل ·

مرة واحدة فى صباح اليوم الثانى جاء شاب مهذب لم أستطع ان أشمه من البداية ، وقدم نفسه على انه ضابط المباحث العامة وأنه موفد من قبل «المصيلحى بك» للاطمئنان على صحتى وحالة عينى وللتأكيد بأن « المصيلحى بك » حزن جدا حينما عرف بمرض عينى وانه يتمنى لى الشفاء سريعا ·

وقال الشاب المهذب وهو يسلم

— : ان شاء الله تخرج من القصر على بيتكم ·

وخرج · واعتبر أبى أن ذلك تأكيدا بأنهم سيفرجون عنى · وتركت الرجل الطيب يملأ صدره بالآمال ولكنى أحسست بضيق غريب وأنا أسمع عبارة الضابط المهذب واجتاحنى احساس بأن وراء الكلمات معنى آخر ·

وأحيانا ماكنت أنزل — ومعى الحرس — الى عنبر المعتقلين فى الدور الاول ، حيث خصص لنزول المعتقلين القادمين للعلاج سواء من الواحات أو من زميلاتنا المعتقلات فى سجن القناطر أو من القلعة ·

كان فى العنبر حوالى ثمانى معتقلين وستة من المعتقلات · ولقد كنت دائما أتساءل بينى وبين نفسى ، لماذا لم يدخلوننى عنبر المعتقلين والمعتقلات فى القصر العينى ·

ولكن سؤلا آكثر الحاحا كان يثور ·· ماذا يجرى داخل الغرف الثلاث المغلقة على ١٤ زميلا وزميلة ؟

ولماذا يوضع الجميع فى مكان واحد ·

ولم يكن من الصعب على أن أعرف السبب بعد أن نزلت اليهم مرتين وجلست الى بعضهم عدة ساعات ·

كان عنبر المعتقلين فى القصر العينى أحد الخطط الذكية لأساتذة «القتل المعنوى» فلم يكن يسمح بالبقاء فى هذا العنبر

سوى لبعض من الزملاء «الذين أبدوا استعدادا للتفاهم» بعضهم كان يعاني مرضا خفيفا ولكن غالبيتهم كانوا من اصحاب الحظوة لدى الاجهزة كذلك فآن ابقاء بعض الزميلات معهم يمكن أن يؤدى الى قصص تصلح بأن تكون سلاحا يستخدم ضد الاشتراكية والاشتراكيين ٠

حيققة انه حدثت بعض التجاوزات ، ولكن الحقيقة الاكثر والمشرقة انه بالرغم من كل تلك الظروف الصعبة التى صنعت باحكام لانزلاق الزميلات الا أن غالبيتهن استطاع أن يتماسك بل ويقدم القدوة والمثل العظيمة لكيف تكون أخلاقيات الفتاة الاشتراكية ٠

وجاءت سحر بالشاى ٠٠

ولكنها جاءت بشيء آخر اكثرسخونة ٠٠ فلقد غيرت ملابسها وارتدت روبا من الشيفون الاحمر لايكاد يخفى شيئا ٠

وناولتنى الفنجان وعطرها يملأ أنفى ومنبت النهدين يشدان كل ما لدى من ابصار ٠

ــ : شاى يعجبك قوى

هكذا قالت وهى تشد كرسى وتجلس جانبى ٠

ــ : أين الحرس ٠٠

قلتها بدون وعى وأنا أشد الكرسى بعيدا عنها ٠

ــ : واحد نام أمام العنبر ٠٠ والثانى نايم على سرير فى العنبر ٠

قالتها وهى تقترب بالكرسى منى ، وقبل ان احاول نا أبتعد بمقعدى أمسكت يدى بعنف

ــ : ٠٠ كله نايم ٠

وتهت المحظات ٠٠ كانت يدها أشبه بتيار كهربائى صاعق لم أكن لأحتمله ٠٠ بل لم أكن لأحتمل منذ رأيت سحر فى الليلة الاولى ٠٠ كانت ببساطة شديدة جميلة جذابة ، من من النوع الذى يدعوك ويدافعك من أول لحظة لان تضمه بين يديك ٠٠ ولم يكن ذلك تخاريف معتقل قضى ثلاث سنوات فى

الصحراء فلقد أجمع على ذلك كل نزلاء العنبر وعلى رأسهم الشاويش عبد السلام الذى كان يقول لها دائما :

ـ : ليلة واحدة معاكى على سنة الله ورسولة ·· وبعديها أموت وأنا مبسوط ·

وكانت ترد بضحكة لينة وبخفة دم لاتبارى .

ـ : ياراجل انت عجزت ·· متستحملش ساعة ·

ومنذ ليلة أول أمس حينما مرت سحر على فى الغرفة وقدمت نفسها على انها «السهرانة» وأحاسيس جارفة تنطلق وتعربد داخلى ، مرت الليلة الاولى بسلام وبدردشات وتعاريف اشترك فى جزء كبير منها الشاويش عبد السلام وزميليه ·

ومرت الليلة الثانية بسلام صعب ·· فبعد ان انتهت سحر من توزيع الادوية ووضع القطرات فى العيون المريضة جاءت الى غرفتى وأخذنا ندردش بعض الوقت ثم قرأت لى فصلا من أحد الكتب وبعض المقالات فى مجلة روزاليوسف ، ونمت ليلتها مثلما نام شهريار على صوت شهرزاد الذى كان ينفذ الى النخاع ·

أما تلك الليلة فيبدوا ان الامور لايمكن أن تمضى بسلام ·

نام العنبر من العاشرة كالعادة وأغلق الباب الخارجى ولم يبقى سوى أربع عيون سهرانة ·

عينان يتهددهما الخطر لم تريا لمدة ثلاث سنوات سوى رمل الصحراء ووجوه الزملاء والعساكر المتكررة وعينان تلمعان بالجاذبية والدفء تنفذ نظرتهما ـ كأشعة اكس ـ الى الاعماق وتشد كالمغناطيس بنبضات قلبك ورعشات جسدك ·· وتحججت بالذهاب الى التواليت ·

وهرولت مذعورا ومسحورا الى الغرفة ·· وارتميت على السرير ·

وبعد قليل كانت خطوات الاميرة «السهرانة» تقترب من الغرفة وتدخل ·· ثم جلست على الفوتيل المجاور للسرير ووضعت ساقا على ساق فانفتح الروب وتعرت ساقيها تماما ·

ياكل قوة فى الارض ويا كل قدرة على التماسك والمقاومة ·

لقد واجهت الشومة الغليظة وهى ترتفع ثم تهوى على الجسد تلهبه وتمزقه وقاومت ، وواجهت الكرباج ينفرد ويطير ويلسع

وقاومت ٠٠ وواجهت الجوع ثمانية عشر يوما بلا طعام ،وكسرة الخبز تعنى الحياة ـ ٠٠ وقاومت ٠٠ وواجهت قلمـا وورقـة يمكن أن يكتبا شيئا يخرج بى من السجن ٠ وقاومت ٠٠٠ ولكن الساقين اللذين تنفتح عنهما غلالة الروب ، والجسد الملتهب الذى يشع ويضىء من خلف الشيفون ، والشفة السفلى المكتنزة والشعر الاسود المنسدل الى الخلف كموجات بحر أسود ٠٠ وذلك الصمت المنفجر الذى يلف العنبر بل والقصر العينى كله ليكمن خلف قنبلة متفجرة اسمها «سحر»

قالت فى ابتسامة هادئة :

ـ : عندك حق ٠٠ الغرفة افضل من الشرفة ٠

ياساحرات اوليس ٠٠ أيتها المنشدات الجميلات ٠ ٠ دعن أوليس يعود الى أهله ٠

عادت تقول :

ـ : هل أقرأ لك ٠٠ اشرب الشاى انه ليس سما ٠٠

ـ : أحس بارهاق ٠٠ سأحاول النوم ٠

ـ : تخدعنى أم تخدعك نفسك ٠٠ مش هتنام ٠

ياتاييس ، رفقا بالراهب ٠٠ لايملك الا ايمانا وعقيدة ٠٠

ـ : قوللى ٠٠ اوصف لى اول حب لك ٠٠

ـ : سحر ٠٠ اريد ان أنام ٠٠ عينى تؤلمنى وصداع قاس فى راسى ٠٠

ـ : ألف سلامة ٠

قالتها فى رقة وعذوبة ثم فتحت الكوميدينو وقامت تضع بعض قطرات «البيلوكارمين» فى عينى

ولم أعـد أحتمل ونهديها يكادا يفران مـــن فتحة الروب ويلامسان أنفى واحتضنهما بعنف ٠

ولكنى سرعان ماعدت ودفعتها بعيدا وهى شبه مخدرة ،وقد لمعت الفكرة فى ذهنى وتجســدت فى ســـور كبير يفصلنى عنهـــا ٠ ٠

كانت تلك الفكرة هى التى جعلتنى أعانى الليلتين السابقتين

.. وهى التى أربكت كل تصرفاتى وجعلتنى أستـــطيع مرة أخرى ان أحاصر عواطف الحرمان والطبيعة التى كادت تنفجر .
ومن يدرى .. ربما دفعوا بها اليك للقضاء عليك .

ومن لم يسقط بالتعذيب البدنى والنفسى يســقط خـرقة بالية فى حضن امرأة .
وصرخت فى وجهها وقد تمثلت أمامى مثل « عروسة الجلد»
ــ : اخرجى من فضلك .. قولى لهم أنا مش مراهق ساذج .. أنا صاحب رأى وعقيدة .. أخرجى .

ونظرت اليها تماما مثلما كنت انظر الى ادوات التعـــذيب الاخرى . ، ولابد إن وجهى قد اكتسى بتغيرات حادة ، اذا ظلت سحر تنظر الى فى استغراب شديد ثم لملمت نفسهاوهى تقول فى صوت مبحوح مبلل بمشروع بكاء :

: ــ انت مجنون .. مجنون .

وتكورت فى السرير أكاد أمزق الغطاء ، ثم نهضت الى الباب وكدت أصرخ اناديها بكل الرغبة المتفجرة ، ولكنى عدت لأرتمى على السرير مرة أخرى وأنا أصارع «ذات» خطيرة جائعة بدرجة وحش بوهيمى لم يأكل لسنوات طويلة ، لقد طلب أوليس البطل المنتصر من حرب طروادة ان يقيده زملاؤه ويربطـــوه رباطا وثيقا فى صارى المركب وهو يمر بجوار جزيرة الساحرات الهامسات وللآن لم يكن ليستطيع أحد أن يقاوم اغـــراءهن وصرخ أو ليس وبكى وهو يطلب من زملائه أن يفكوا وثاقه فلقد كان السحر أقوى من ان يقاوم ولعلى فى غمرة الصراع تهت أو نمت وربما فقدت الوعى لفترة . وكل ماأذكره اننى حينما فتحت عينى وجدت كل شىء ساكن هادىء ونائم ليس فى الغرفة وحدها بل وفى العنبر كله ، بل وأحسست بهدوء نفس غريب مع قطرات من العرق البارد على جبهتى ثم احســـاس شامل مبهج ، وفرحه داخلية هادئة .
لقد انتصرت فى معركة قاسية كان لابد وأن أخسرها بكل الشواهد المنطقية والانسانية .
وأخذت أستعرض الاحداث مرة أخرى ولكن بطريقة العرض

البطيء وأحس بمزيد من الثقة بالنفس · قد اكون دون كيشوت حاربت أوهاما وأشباحا لا توجد الا في ذهني ·

وقد أكون قد تجاوزت الحقيقة وتصرفت بغباء ·

وقد تكون « سحر » مظلومة من التهمة التي تصورتها ·

وقد أكون خسرت «ذكرى» جميلة كان يمكن ان تتحول الى نقطة مضيئة وسط سنوات من الظلام الكفيف مع الصحراء والألم ·

قد يكون كل ذلك صحيحا ، ولكني حينما أتذكر تلك الليلة، فانى أتذكر على الفور أقسى معركة دخلتها كنت فيها معاديا على طول الخط لذاتي ومشاعرى ولغريزتى ·

لقد كان انتصارا يساوى ان لم يفق بكثير متعة ليلة جميلة مع أحلى امرأة اشتهيتها فى حياتى ·

- ٢١ -

ليست العبرة فى قتل لحسين
العبرة فيمن قتلوه .. ولماذا
قتلوه .
أنا ثار الله ان مت شــــهيدا
فاطلبوه
الحسين ثائرا ــ عبد الرحمن الشرقاوى

يونيو ١٩٦٢ :

صاح الصديق محمد عى عامر او شيخ العرب كما نسميه وقد بأنت الدهشة على وجهه ، فلم يكن العم العجوز يتصور أن يرى في تلك الساعه المبكرة من الصباح حيث يحرص على الخروج من العنبر ليشم هواء الصحراء قبل بزوغ الشمس ..

كنت قد وصلت الى سجن الواحات بعد رحلة استمرت خمسة عشر ساعة وكان الارهاق والمرارة لايتركان فرصـة لمتابعة الاجراءات الروتينية التى تتبع عند حجرة البوابة كما لم يكن عندى رد على الدهشة التى اكتست وجه الرفيــق الطبيب .

ودخلت العنبر وبعض الزملاء يتثائبون ويتركون اعينهم للتأكد من اننى أقف امامهم مرة أخرى .. والدهشة والحيرة تملأ العيون وتطرد النعاس بسرعة .. وعشرات الاسـئلة تحاصرنى وتتجمع كلها حول البرش الذى ارتميت فوقه .. كيف حدث هذا ؟ لماذا عدت هكذا بسرعة ؟ وعينيك ؟ لم يمض على رحيلك للقاهرة سوى اربعة ايام !! ماذا حدث ؟ وكلما زادت الاســـئلة وكلما تكاثر الزملاء حـــولى يمطروننى باستفساراتهم واحســـاسى بالمرارة والالم ويزداد ويعمق ، فلقد كان اكثر مايثيرنى أن احس اننى أصبحت « حالة » تثير الشفقة والاهتمام .

وكدت اصرخ فى وجه الزملاء بأن يتركونى وحدى ، بــل

تكورت قبضة يدى وكدت الكم أمير اسكندر وهو يهزني بعنف ويقول في عصبية .

ـ : تكلم .. ماذا حدث .. لماذا عدت بسرعة .. وحالة عينيك .. ولكنني عدت أجتر الالم والمرارة ولما لم يكن هناك مفر امام مئات العيون المتساءلة والاذان المتلهفة .. فلقد حكيت ماحدث .. كان قد مضى على في القصر العيني ثلاثة ليالي آخرها ليلة الحكيمة السهرانة وفى صباح اليوم الرابع جاء الضابط المهذب مبعوث مصيلحى بك مرة أخرى .. ولكنه في هذه المرة كف عن ارتداء ثوب الرقة الزائف الذى كان يرتديه في المرة السابقة .. حقيقة كان ناعما ولكن كلماته كانت موجهة بعناية كطلقات مسدس كاتم الصوت .

حدثنى فى البداية عن الزيارتين اللتين قمت بهما لعنبر المعتقلين والمعتقلات في الدور الاول وحرص على أن اعرف أنه كل كلمة قلتها هناك وصلتهم بما فى ذلك كلمات التحذير التى قلتها لبعض الزميلات هناك من الوقوع في الفخ المنصوب لهم وضبط تصرفاتهم .

ثم قال وهو يطلق رصاصته الاولى .

ـ اجدر بك أن تقبع فى عنبرك دون تدخل فى امور الاخرين .. هذا اذا كنت تريد أن تعالج عينيك .

وتركتها تمر فلم اكن ابحث عن معارك .. ولكنه عاد يطلب أمرا غريبا .. فبعد أن أكد اهتمام الجهاز كله ـ وعلى رأسه مصيلحى بك بحالتى وحزنهم في نفس الوقت اقترح .. أن اكتب التماسا بالافراج نظرا لحالة عينى المتدهورة .. والى هنا والامر مقبول .

واستطرد .. وان يكون الالتماس مشفوعا بتأكيد من عندك بأنك لن تعمل بالسياسة ولن تعود مرة أخرى الى ماكنت تعمله .

واتسعت ابتسامته المفتعلة وهو يقول :

ـ بس ياعم .. تكتب الكلام ده دلوقتى وانشاء الله بعد يومين ولا اسبوع بالكثير تكون بره .. ومبروك مقدما !!

قلت وانا احاول قدر استطاعتى ان ابلور الكلمات واهدئها حتى لاتخرج بانفعال أو عصبية .

ـ انا جاى اتعالج ·· مش جاى اكتب استنكار ·
وكسى وجهه بعلامات دهشة مصطنعة ·
ـ استنكار ·· بلاش الكلام الكبـــير ده ·· وده برضه معقول نطلب منك انت بالذات حاجة زى كده ·· ده مجرد كلمتين روتين مع الالتماس ·

وصمت قليلا اضبط نفسى وايضا كلمات الرد فقد كنت حتى هذه اللحظة لا أريد خنـــاقة أو انفعالا ·· ويبـــدو ـ كعادتهم دائما ـ أنه فهم صمتى نوعا بين الحيرة والبلبلة ·· فأخذ يزيد من طلقاته ··
ـ أيه ·· مش كفاية اكثر من ثلاث سنين ضـــاعت فى الصحراء ·· احنا شباب ونفهم بعض ·· صـــدقنى مفيش حاجة تستاهل ·· أخرج بجلدك وشوف عينيك ومستقبلك ·
وأدركت أن عل أن أوقف على الفور هذا السـيل ، فقلت بحزم اكثر ·
ـ لو سمحت انا جاى القصر علشان اتعالج مش علشان اتناقش فى الخـــروج أو عدمه ·· والمفروض انى هعمل العملية بكرة ·
وكانت لهجتى فيما يبدو قاطعة والعكس ذلك على وجــه الضابط المهذب باحساس بخيبة الامل ثم رمقنى بنظرة طويلة غريبة وهز رأسه قائلا :
ـ انشاء الله تعمل العملية بكرة وتنجح ·
وخرج ·
وعند الظهر اخذت المرضة أوراق علاجى من الغرفة بناء على طلب الدكتور أمين زيد ·
ـ ومن هو أمين زايد ؟
قالت التلميذة الطيبة :
ـ مدرس فى قسم ٢١ رمد ·

وابديت دهشتى وخاصة واننى أتبع قسم « ١٣ » وهــو القسم التابع للدكتور عصام توفيق ··
ولم تستطع المرضة أن تفسر لى السر وراء طلب اوراقى ولكنها خمنت واعتقد انها لم تكن تعرف ، بأنه من المحتمل

أن يشترك الدكتور امين زايد مع الدكتور عصام فى اجراء العملية غدا .

وكنت على استعداد لتصديق ما قالته الممرضة فلم تكن هناك اى احتمالات أخرى ونسيت الامر كله حينما جاءت أختي بأكلة سمك طلبتها فطوال فترة المعتقل السابقة لم اتذوق هذا الطعام الذى كنت احبه ولقد سـألت أحد الفلاحين من سكان الواحات الذى كان يساعد فى اعمال المزرعة عن السمك فقال الفلاح الفقير الطيب باللهجة السريعة المضغومة ..

ــ مابنزرعش الشجره دى هنا .

وقبل أن انتهى من الوجبة الشهية جاءت الممرضة وطلبت منى أن اصحبها لان الدكتور أمين زايد يريد أن يرانى .

وانتقلنا انا والممرضة ومعى الحرس ــ الى العنبر المقابل .

وكان يجلس فى غرفة الحكيمة .. وجه عادى مثل كل الوجوه ليس هناك مايميزه سوى التواء بسيط فى الفك الاسفل وشد واضح فى عضلتي الفك كما لو كان يقرض اسنانه وبادرنى فى صوت جاف :

ــ انت المسجون الشيوعى .

ــ أنا معتقل مش مسجون ..

هكذا وجدت نفسي ارد على الفور وقد اخذت بأسلوبه الخشن فى الكلام بالاضافة الى انه لم يكلف نفسه الرد على تحيتى .

وقام من الكرسى وانفرد امامي ماردا طويلا عريضا واخذ يتطلع الى بنظرات لم استطع تفسيرها .. واكتشفت حركة عصابية واضحة فى عينيه اليسرى ثم انفجر بصوت اعلا :

ــ متقرفش .. يعنى غلطت فى البخارى ياخى .. مانتو معروفين دايما مسحوبين من لسانكم .. عارف افكاركم المهببة .. هذا الطبيب .. اهى قضية عين بتهددها الخطر أم الافكار مهببة كما يقول . ماذا يعنى ؟

وصمت ، فلقد تعودت ان استوعب أى استفزاز مقصود المهم العملية .. وعاد يقول وهو يشير بأصبعه كما لوكان يوجه اتهاما .

ـ عينك سليمة ، مفيش حاجة ٠٠ ومفيش داعى لوجودك فى القصر ٠٠

قلت فى هدوء ولم اكن قد ادركت ابعاد الموقف بعد :

ـ الدكتور عصام توفيق كشف على وقرر اجراء عملية غدا لانى مصاب بجلوكوما حادة ٠

وانتفض امامى انتفاضة عنيفة وصاح فى صـــوت غليظ مشروخ :

ـ هتفهم فى الطب كمان هتعلمنى شغلى ، انا قلت عينيك سليمة ٠٠ ادينى ورق سعادة البيه الفليسوف ٠٠ اتفضل خروج اليوم ١١ مايو ١٩٦٢ ٠٠٠ امضاء ٠٠ أمين زايد ٠

كان يكتب على اوراقى وهو يؤكد على الكلمات بغيظ شديد وغير مفهوم !! أهو تاربايت ٠٠ ولماذا ؟ اننى لم أعرف ابدا أحدا فى حياتى بهذا الاسم ، لم اسىء له ، ولماذا هذا الموقف الغريب ٠٠ حقيقه أن صوته وكلماته جافة خشنه ولكنه على أى حال طبيب ، وقد كنت حتى هذه اللحظة اعتقد ان احد لا يمكن ان يمارس تلك المهنة العظيمة دون ان يكون انسانا اولا واخيرا كما أنه ليس الطبيب المعالج ، فأنا فى عنبر الدكتـــور عصام ولست فى عنبره والدكتور عصام استاذ مساعد وهو مدرس ٠ انه لم يكلف نفسه بالكشف على ٠٠ ومع ذلك يكتب بخروجى من المســـتشفى ٠٠٠ وبصرى الذى يذهب !! وعينى التى دخلت مرحلة الخطر كما اجمع كل الاطباء الذين كشفوا على !! ماذا يعنى هذا ؟ ماذا يهدف بالضبط الدكتور أمين زايد ؟

وعدت احاول معه ، وأكلم فيه الطبيب ٠

ـ يادكتور ٠٠ معنى ذلك أن اعود الى الواحات ، ويضيع بصرى ، فلننتظر الدكتور عصام ٠٠٠ يادكتور ٠

ولكن أمين زايد فر هاربا من الغرفة ومن العنبر كله دون أن يكلف نفسه بالنظر وراءه وهو يعطى اوامره للممرضة بأن تبلغ الادارة فورا بتأشيرته ، ووقفت فى الغرفة ومعى الممرضة منكسة الرأس والشاويش عبد السلام وزميله وقد انعكس الموقف على وجههما ٠

وقال الشاويش عبد السلام :

ـ داه دكتور بيطرى ده ٠٠ مش بنى ادم ٠

وتهت لفترة واجتاحنى شعور بالحيرة الشديدة مع احساس زاحف بالضياع ولكن سرعان ما استعدت نفسى وقررت أن أقاتل دفاعا عن عينى ٠

عرفت من الممرضة ان الدكتور عصام توفيق كان موجودا فى الصباح وأنه اعطى اوامره باعدادى للعملية غدا ٠ وطلبت الدكتور عصام فى البيت وفى العيادة بعد ان اعطتنى الممرضة ارقام تليفوناته ولم اجده وجاء الدكتور أحمد النائب الشاب وسمع الحكاية واعلن اعتراضه واحتجاجه على تصرف الدكتور أمين واكد لى اننى تحت مسئولية الدكتور عصام وأن احدا أخر لايملك اخراجى كما اكد لى ان حالة عينىّ خطرة فعلا ٠

وأحسست بالراحـــة وبشيء من التعويض وانا أرى أحمد الطبيب الشاب يقف الى جانبى بحســـم فيتصـــل بمدير المستشفى ثم حاول الاتصال بالدكتور عصام ٠

أحمد نموذج آخر لا أعرفه ولم اراه سوى مرتين حينما كان يمر فى العنبر خلف الدكتور عصام ويســـتمع الى توجيهاته وملاحظاته على الحالات كنت اراقبه وهـــو يضرب التليفون بعصبية بعد ان ينهى حديثة مع احد المسئولين فى المستشفى ثم يقول فى مرارة :

ـ مش ممكن ٠٠ دا كلام فاضى ٠٠٠!!

واخيرا عثرنا على الدكتور عصام فى منزله ، وحكى أحمـد ماحدث بنفس الطريقة التى كان يمكـــن أن احكيها وناولنى السماعة لاسمع صوت الدكتور عصام وهو يقول بعصبية :

ـ ازاى دا حصل ٠٠ مش ممكن ٠٠ دا كلام فاضى ٠

ووعد بأنه سيتدخل وطمأننى الرجل على قدر مايستطيع وان كنت قد احسست من صوته أنه فى وضع ليس أفضل من وضعى كثيرا ٠

أما اختى فقد وقفت المسكينة ترقب الجهود التى ابذلهـا ويبذلها معى الدكتور احمد وهى الاخرى تكرر فى هلع ٠:

مش ممكن ٠٠ دا كلام فاضى ٠

ساعتين تزيدان قليلا ضاعا فى غمرة معركة الانقاذ التى كنا نمارسها ٠

كان كل المسئولين في المستشفى يبدون استنكارهم في البداية ولكن هذا الاستنكار كان يتحــــول الى صمت أو تعليقات مبهمة حينما يسمعون اسم أمين زايد ، ولكن الذى لم يكن ممكنا من وجهة نظر اختي والدكتور احمد والدكتور عصام اصبح ممكنا ٠

وحدث الكلام الفاضي ، وفي حوالى الرابعة وصلت فرقة الترحيلة « ضابط وثلاث عساكر » ومعهم الاوامر بترحيــلى الى سجن الواحات ٠٠ ووقفت اختي والدكتور احمد والممرضة والشاويش عبد السلام وزميله يرقبون الموقف في صمت مثير وأنا الملم حاجاتي وأعتصر كل طاقاتي حتى لا أضعف امامهم وحينما وضع الضابط القيد الحديدى في يدى صرخت اختي ودخلت في نفس الحالة التى مرت بها ليلــــة الاعتقال ٠٠ مسكينة لقد رأت المسيح يصلب مرتين ٠٠ أما الطبيب الشاب الذى وقف الى جانبي حتى آخر اللحظة كان هو الوحيد الذى لم يبلع استنكاره ولم يمضغ الكلمات المبهمة حينما كان يسمى أسم أمين زايد ٠٠ والتفتت عيوننا ، كان وجهه يمــــوج بأنفعالات متداخلة بمزيج من السخط والضــــيق واليأس والتمرد ٠٠ كان فيما يبدو يمر بالصدمة الاولى ٠٠ وباحساس بأنه في حاجة ربما اكثر مني لمن يسانده ، امســـكت بيده بقوة وقلت وانا احاول الابتسام ٠

معلهش بسيطة ٠٠ بكرة هرجع تاني ٠

ولم أكد انتهى من حكايتي التى سمعها اكثر من مائة زميل التفوا حولى حتى سمعنا صرخة ملتاعة :

ــ انهضوا ٠٠ داود عزيز ٠٠ مات ٠٠ بيموت ٠٠ عنــده ذبحــة ٠

وهرول الكثيرون من الزملاء ، وقام الاطبـــــاء بمحاولتهم المستميتة لكى يظل النبض الخافت لواحد من اكبر الفنانــين التشكيليين في بلدنا ٠

ولم اعد احتمل الموقف كله ، وتركت الزملا وداود والاطباء يتشبثون بالحياة ويحاولون قهر الدبحة التى اسقطت الزميل وخرجت الى السور ٠٠ كنت في امس الحاجة لكى اجلس مع

نفسى .. وحيدا ، وحالة من حالات الضعف واليأس يجتاحنى وأخذت اردد اغنية احيانا ما كان يهمس بها محسن الخياط وكثيرا ماكنت الومه لترديدها .

مدى ايدك ليه .. فى المنفى البعيد
مدى ايدك ليه .. من بين الحديد
وافرديهـــا
واحضنى بنورك جروحى
قبل ماتميل بروحى
للغروب
قبل ماتدوب الامانى
وتشـــــوفيها
لحن تايه
لحـــن انغامه فى دموعى

ووجدت صـــوتى يختنق والدموع تتساقط ويجد بعضها طريقة الى شفتى ثم انفجرت فى بكاء عميق .

آه لو تنكشف الغمة عــن
عيني كي ابصر ابعاد الطريق .
ماعسى ان تبصر العينان في
ليل بهيم طمست فيه النجوم .
ماعسى ان يبصر المحزون من
خلف اللدموع .

عبد الرحمن الشرقاوي ــ
الحسين ثائرا

يونيو ١٩٦٢ :

مرة اخرى في القصر العيني .

البوكس يعبربنا البوابة ، وعند الاســـتقبال يتوقف .. ويبدأ الموكب التقليدي .. الضابط في المقدمة وأنا خلفه احمل امتعتي وعلى اليمين واليسار حارسان يحملان التومي جن كنت قد وصلت الى القاهرة يوم الخميس بعد ثلاثة اسابيع قضيتها في الواحات .

وفيما عدا اليوم الاول لوصولي للواحات والذي كان يوما مريرا وحزينا حقا ، فانني وبمساعدة الزملاء سرعان ما استعدت معنوياتي بل وعدت امارس مهمتي كرئيس تحرير لمجلة الطريق واستكمل مشروع مسرحية كنت قد خططتها .

كنت قد ادركت ابعاد اللعبة التي مورست معي ، واشترك فيها الضابط المهذب والدكتور أمين زايد .. لقد كان المطلوب تأديبي وترويضي .. ولهذا اندفعت في مقالاتي في المجلة نحـو مزيد من فضح وكشف اساليب التصفية ولكي ارد برســـالة واضحة لمن رسموا اللعبة بأني لست ممن يروضون ... وفيما عدا بعض الام العين وحالات الصداع الشديد احيانا فلقـــد حاولت ان انس الموضوع كله .. ولكن الزملاء لم يستطيعو أن ينسوا ، فبعد ترحيل داود عزيز للعلاج بعد وقف تدهور حالته واصل المسئولون عن الاتصال بالادارة بالضغط من اجل سفري

للعلاج وبالتهديد باتخاذ اجراءات تحمل الادارة المسـ
قام الاطباء المعتقلون بكتابة تقرير بحالتى وخطورته
الى كل الجهات المعنية بما فيها نقابة الأطباء وانضم
السجن الذى أراد ان يتخلى من مسؤليته : وأثمرت
وبعد عشرين يوما جاء الأمر بالترحيل الى القاهرة ..
غريبا حدث لدى وصولنا الى محطة مصر فبدلا من
القصر العينى مباشرة ، ذهبوا بى الى مستشفى سـ
حيث قضيت الخميس والجمعة والسبت .. وفى صبـ
كنت فى الطريق الى اســـتقبال العيون فى القصر
جلست على الاريكة بين الحارسين بينما ذهب الضابـ
فترة عاد ليصحبنى الى الطبيب الذى سيكشف على
ودخلت الغرفة .. ورايته .

أمين زايد ، يرتدى البالطوا الابيض هـــــذه المو
يتحرك .

لم يفاجأ ، كأن يعرف فيما يبدو ، بل ولم ينظر
موجها حديثه للضابط :

– حالته ميئوس منها .

وسأل الضابط فى سذاجة الذى اشترك فى لعبة

– سيادتك مكشفتش عليه .. انت عارف الحالة

– عارف ياسيدى .. بسلامته كان هنا من ثلا
ومش عاجبه التشخيص .

وتدخلت بعد ان افقت من صدمة المفاجأة وســـ
اعصابى جيدا .

– يادكتور امين انا صحفى لا أفهم فى الطب ..
بتقول دلوقتى أن حالتى ميؤوس منها ومن ثلاث اسـ
أن عينى سليمة .. يعنى ايه .. مش فاهم .

ورد فى برود غريب :

– ولاعمرك حتفهم .

ويبدو أنهم قد حذروه هذه المرة من الانفعال بعد
نفسه فى المرة الاولى .. وصحت بعد ان كدت أفقد
وفهمت السبب الذى ركنونى من اجله فى مستشفى
مصر الايام الثلاثة الماضية .

ــ عاوزني أفهم ايه ٠٠ انا لحد دلوقتي اعاملك كطبيب مش ضابط مباحث ٠

ويبدو انني قد نلت منه في مقتل فصرخ

ــ : ولد ٠٠ بلاش قلة أدب

وكنت على استعداد للذهاب الى آخر مدى فماذا بعد العين ولوحت بيدي في وجهه

ــ : أنا مش ولد واحترم نفسك ومهنتك ٠٠ واللي بتقوله ده مش بس قلة أدب دا اجرام ٠٠ عملت فيه ايه !

ويبدو ان انفعالي كان يزداد ويضطرد وأنا أقترب منه فالتفت بسرعة وجعل الضابط بيني وبينه بينما أخذ الضابط يهدئني برقة وقد أدرك الموقف وقادني الى كرسي وهو يربت على كتفي

ــ : اهدأ ياأستاذ ٠٠ هنشوف حل ، اهدأ ٠٠ امسك أعصابك ٠٠ ثم التفت الى أمين زايد

ــ : والحل يادكتور ٠٠

ــ : عينه اليسرى وصلت الى حالة ميئوس منها ، لابد من استئصالها ٠

ــ : استئصالها ٠٠ مش ممكن ٠٠ انت جزار ٠

هذا الوحش الكريه ٠

منذ ثلاث أسابيع كان يصرخ في وجهي ليقول ان عيني سليمة واليوم يريد استئصال عيني لانها وصلت الى حالة ميئوس منها ٠٠ وقبل ان انفجر بشحنة أخرى من الغضب أسرع الضابط يقول وهو يضغط على يدي

ــ : استئصال استئصال ٠٠ المهم اكتب له دخول دلوقتي ٠

وعاد الضابط يضغط على يدي وهو يهمس منتهزا فرصة ذهاب أمين زايد الى المكتب ليؤشر على الاوراق ٠

ــ : اعقل المهم تدخل القصر ٠٠ وبعدين تتصرف ٠

بعد يومين في عنبر ١٣ في القصر العيني اكتشف فيها أن نصيحة الضابط كانت في محلها ، فقد كنت محتاجا لاجراء بعض الاتصالات ٠. فأرسلت مجموعة من الخطابات باسم

الدكتور عبد المنعم عبيد المدرس فى القصر العينى والمعتقل فى الواحات الى كثير من أساتذة كلية الطب ·· كذلك كلفت أبى بارسال خطابات تحكى مايجرى معى على يد الدكتور أمين زايد بايعاز من المباحث الى كل المسئولين ·

وفى نفس الوقت الذى كنت أنشر فضيحة أمين زايد على الملأ وأسجل سقطته ، كنت أرفض بالاتفاق مع الممرضة على استخدام القطرات والادوية التى قررها الى بعد أن اكتشفت انها «تقتل العين» · كنت فى البداية أحسب أن اللعبة ستنتهى عند هذا الحد ، وأن ماحدث فى المرة الاولى وفى البداية هذه المرة لم يكن سوى محاولة للانذار ، ولكن لم يدر بفكرى أن أمين زايد سيمضى فى اللعبة الى هذا الحد ·· الاستئصال ·

والغريب انه كان جادا متحمسا للغاية ·· بل كان يأتى كل يوم الى العنبر ليكشف وليطمئن ان أدويته القاتلة تقوم بمفعولها وفى كل مرة ينظر الى الممرضة ويسأل

ــ : متأكدة انه يأخذ القطرات والمراهم ·

وتضطر المسكينة ان تكذب ، وشجعها على ذلك الدكتور أحمد نائب عنبر ١٣ والذى كان يحظى باحترام كبير بين الممرضات رغم انه مازال نائبا شابا ·· وقد حرصت بالطبع أن أسألها عن سحر وكان مالديها من معلومات عنها انها نقلت الى عنابر الجراحة وانها فى أجازة للزواج من ضابط بوليس ·

كان أول شىء فعلته هو الاتصال بالدكتور احمد الذى سهر معى ليلة كاملة ، وقد سعدت بهذه السهرة «العنبرية» ليس فقط لانى رأيت مرة أخرى صديقا شريفا كسبته من خلال معركة قاسية ، ولكن الاهم ان أحمد الذى رأيته هذه المرة يختلف عن احمد منذ ثلاثة اسابيع ·· حقيقة ظل الانسان الشريف التقى ولكنه تخلص من كثير من أحاسيس الضعف والعجز والحيرة والشعور بالصدمة لقد كان ماجرى فى المرة الماضية مثلما فال صدمة هامة كان يجتاحها · ولقد عرفت أن الاحتجاج والسخط لايكفى لاصلاح الامور ·

واشترك أحمد معى من اليوم الاول فى رسم الخطة وتتلخص فى اظهار الرضوخ لرغبة أمين زايد وذلك فقط لكسب الوقت الى ان ننجح فى كشفه بعد الاتصالات المكثفة التى نقوم بها

يوميا مع أساتذة الكلية والنقابة والمسئولين .

وأحسست ان أحمد لايتحرك وحده بل ومعه مجموعة من النواب والمدرسين بل والاساتذة ، ... ويبدو انهم قاسوا على يد أمين زايد الكثير .

ولكن أمين زايد كان فيما يبدو مسنودا الى أقصى حد ..

ففى اليوم الرابع ، وبعد أن كشف على عينى وتأكد بالطبع اننى لم آخذ القطرات والمراهم التى قررها امر بتغيير الممرضة فورا وطلب ممرضة معينة بالاسم ثم قال لى فى حزم

ـ : أنا ألعب .. لقد دخلت هنا لكى نستأصل العين اليسرى، وسأجرى العملية غدا ..

ثم أخذ يلقى التعليمات المشددة للممرضة التى طلبها ،وقبل أن يخرج قال للحكيمة

ـ : لازم يمضى على اقرار بموافقته على الاستئصال اليوم ويرفق بأوراقه .

المسألة دخلت فى الجد ولم يعد هناك فرصة للمناورة وكسب الوقت .

وأسقط فى يدى وفى يد الدكتور احمد فرغم الجهود المكثفة التى بذلت فان رد الفعل لهذه الجهود تأخر وتعثر كثيرا .

الدكتور ابراهيم الشربينى ، وكان سكرتيرا لنقابة الاطباء فى ذلك الوقت ، قال لأبى ان مثل هذه الامور حساسة ولا يمكن للنقابة ان تتدخل بشكل رسمى . ووعد بمحاولة حل المشكلة وديا .

حسين فهمى ، نقيب الصحفيين أبدى انزعاجه واهتمامه الشديد بحالتى ولكن الظروف ، على حسب تعبيره لأخى حيث قابله ، لاتترك مجالا واسعا للحركة .

الدكتور عصام توفيق أخذ أجازة لعله يحل صراعا داخليا لابد وأنه كان يعانيه بين الرغبة والاقتناع والعجز وعدم القدرة .

وفى تلك الليلة وجدت نفسى وحيدا أمام قدر يبدو وأنه لا مفر منه .. حتى الحرس هذه المرة قد اختيروا بعناية ، حاولوا أن يلعبوا دورا فى تضييق الخناق على ، فبالاضافة الى وجوههم المتجهمة ورفضهم أن يتركونى للحظ فانهم لم يكفوا

بين الفترة والاخرى عن القاء بعض الكلمات والايحاءات بأنه ليس هناك من حل سوى «التفاهم وتليين الدماغ» .

كان المرضى في العنبر قد بدأوا ينامون ، بينما جلست مع سامى الطفل الصغير الذى لم يتجاوز السبع سنوات ، أحاول أن أنسى في بعض الحكايات التى ارويها له .

كان سامى هو الآخر سيجرى عملية الاستئصال فى الغد وكنت أحس بتعاطف شديد من سامى ، ليس فقط لانه على وشك أن يفقد عينا فى الغد وهو فى مثل هذا السن ، بل لان الطفل كان ذكيا لماحا ومن اليوم الاول لوجودى فى العنبر فرض نفسه على وأصبحنا أصدقاء ، لايترك غرفتى الا حينما يأتى والداه لزيارته ، بل كثيرا ماكان يصحبهما ويأتى الى الغرفة ويحكى لهما بطريقته الخاصة عن حكايتى .

ونام سامى بعد أن نهرته الممرضة ، وأخذت أتجول فى العنبر بين صفين من الاسرة يخرج من كل منها صوت خاص يتراوح بين شخير مزعج وبين أنفاس مسموعة ..

حتى النيل والقاهرة الساهرة واضوائها المنعكسة عجزت كلها من أن تشفى من ذلك الاخطبوط الذى عشعش فى رأسى وجعلها تكاد تنفجر .. كنت وبحركة تلقائية أتحسس عينى لأتأكد من أن شيئا لم يحدث بعد ، وأحلم وأنا واقف فى الشرفة فأرى أمين زايد وقد استبدل البالطو الابيض بثوب أسطورى فضفاض بينما برزت قرونه وقدحت عيناه بالنار وكشر عن أنيابه وفى يده سيخ محمى يقترب منى ويغرسه فى عينى ، وأكتم صرخة كادت تخرج ويسرى الارهاق فى جسدى ولكنى لاأريد أن أنام ولاأستطيع .. وقد كنت لاأطيق الغرفة حيث يجلس الحارسان يستمعن الى الراديو وبين حين وآخر يقذفونى بنظرات باهتة لاتختلف كثيرا عن تلك النظرات التى كنت اراها فى شبح أمين زايد كان مايحيرنى ويثير حنقى فى نفس الوقت هو ذلك الاصرار الغريب على الاستئصال . ولقد كنت مستعدا وأدرك مسبقا اننى وقد وقعت فى أيديهم وبعد اكثر من سنوات من الاعتزاز ورفع الراس فلابد وان يفعلوا شيئا لينفذوا داخلى

ولكننى لم أكن اتصور انهم سيصلوا بى الى طريق مسدود وليس أمامى سوى أن أختار واحد من الطرق التى يفتحوها أمامى فكل منها معتم مظلم ٠٠ أما الآن أكتب وأتفاهم ٠فيكون العلاج ٠٠

واما ان ارفض السقوط ٠٠ فيكون السفر الى الواحات مع مزيد من فقد الابصار وضياع فرصة العلاج ٠٠ وضياع العين نفسها ٠

وأما ان أستأصل عينى اليسرى لأكون مثلا وعبرة لمن يرفض الركوع ٠

اختبارات صعبة وأصعب منها ان تكون وحدك وأنت تختار وليس من رأى يساند فيما عدا الطبيب الشاب ومحاولاته البائسة ٠

وتمثلت الكثير من الشخصيات التى واجهت مواقف الاختيار الصعب ٠٠ عطيل وقد تمزق بين حب عميق لديدمونة وبين غيرة عاتية أثارها ياجو ٠٠ وهملت وقد شرد فى ردهات قصر أبيه المقتول يكرر كلماته (أكون أو لاأكون) وهو يتشبث بين أن يحبها ولكنها خائفة وبين اوقليبا المقدسة ولكنها ابنة واحد ممن اشترك فى قتل ابيه .

وأوديب بعدان اكتشف المأزق الخالد بزواجه بأمه ٠

ولكن كل هؤلاء الأبطال المسرحيون بكل ماكتب عنهم كانوا أسعد حالا فقد قتل عطيل ويدمونة وقتل نفسه وأنهى بذلك الصراع ، وقتل هاملت قاتل أبيه ومات بين أحضان أمه المحتضرة ، وفقأ أوديب عينيه وهام فى جبال اليونان ٠ ٠ ٠ كانت أزمات فردية خاصة ولكن القرار هنا لم يكن يتعلق بى فقط بل بالمئات الذين تركتهم فى الواحات يعانون ويتألمون ويثقون فى الغد والملايين من أبناء مصر الطيبين البسطاء الذين تصورت اننى أدافع عنهم وعن حقهم فى أن يكون لهم ارادتهم المستقلة ٠

وارتميت على السرير عند الفجر وفتح الشاويش عينيه يراقبنى وأنا اتقلب فى قلق

ـ : هتعمل ايه بكره ·
ـ : وصرخت
ـ : استئصال لآ ··
عاد يقول فى برود مدرب عليه

ـ : اذن تكتب لى ورقة أذهب بها فى الصباح اليهم فى لاظوغلى فتحل كل الامور

وعدت أصرخ بعصبية
ـ : لا ··· لأ ·· لأ ·· مش أنا

فاشعل الشاويش سيجارة وأخـذ ينفث الدخان الى أعـلا باستمتاع وهو يقول
ـ : اذن فقد اخترت سكة الندامة

— ٢٣ —

قال المدرس : هاأنت ترى أيها
الأب المبجل أننا لم نحدث
تغييرا ‥ فالمسيح أصبح
الشعب ٠
وقاطعه القسيس : الشعب
ليس الله يامصيبتنااذا كان الامر
كذلك ٠
قال المدرس : الشعب هو الله
يامصيبتنا اذا كان الامر غير
ذلك ٠

كازانتزاكس — الاخوة الاعداء

أغسطس ١٩٦٢

كان الامر قد تحول الى مليو دراما سخيفة ‥
وهذا ماقررت أن أضع له حدا أيا كان الثمن ٠
وعندما عدت الى الواحات هذه المرة بعد أن رفضت «الاستئصال» كان لى رجاء واحد للزملاء ‥ هو ان ننسى الموضوع كله ٠

فلقد كنت اخشى أن تتحول عيني الى قبر معتم يزوره الزملاء تعطفا وشفقة ٠ واحترم الزملاء رغبتي أو على الأقل تظاهروا بذلك، كذلك فلقد حاولت أنا الآخر أن أبدو متماسكا ‥ على الأقل من الظاهر ‥ حتى آلام العين والصداع المدمر الذى يلح بين حين وآخر تحملته في صمت ‥ وحينما كنت احس ببوادره أسارع الى «البرش» لأتظاهر بالنوم ‥ ولقد كان ذلك يعطيني على الاقل احساسا بالرضا عن ذاتي وعن قدرتي فى تحمل قدرى بوعي وتجلددون أن يكون له انعكاس على اقدار الآخرين، وقد ساعدني على الاستمرار فى عمليات الهروب التى كنت امارسها كل يوم ان المعتقل «غرق» مرة أخرى فى مناقشات

سياسية لاتخلو من سخونة أحيانا وخاصة بعد صدور
العمل الوطني في يوليو والمناقشات التي سبقته ..
كان الميثاق بكل المعايير الموضوعية وثيقة هامة وخط
فلأول مرة يقدم تحليل تاريخي علمي لنضال الشعب
طوال القرن الماضي منذ ثورة عرابي حتى ثورة ١٩٥٢ باء
حلقة متصلة من نضال الشعب من أجل الاستقلال والت

ولأول مرة يجرى الحديث عن الصراع الطبقي وعن
أن يحل هذا الصراع لصالح الغالبية من الجماهير العامل
رأسها العمال والفلاحون بل ويذكر الدور الطليعي لل
العاملة في اجراء التغير الاجتماعي .

بل ان الميثاق يتحدث عن الاشتراكية كطريق حتمي
بل ويذهب الى مدى ابعد وينص على الاشتراكية العلمية
أفكار وآراء ليست جديدة علينا بالطبع ولكن الجدي
صدرت من القيادة التي كانت وما زالت تتحفظ علي
السجون والمعتقلات .

وكان السؤال الطبيعي الذي فرض نفسه .. اذا كان
صحيحا فلماذا ينبقي في المعتقلات فالميثاق بالمبادىء التي
بها هو حتما أقرب الى تفكيرنا من أى انسان آخر من
الذين كانوا يصفقون له وهو يتلى في قاعة الاحتفالات ال
بجامعة القاهرة او هؤلاء الكتاب الذين كانوا بعد مايكو
تلك المبادىء ثم يتولون مهمة شاقة بالنسبة لهم في مه
تفسيره والدفاع عنه .. ولقد كان من الضحك أحيانا أن
مقالا عن الاشتراكية لكاتب لم يقرأ في حياته كتابا واحدا
أو كان يعدها كبيرة الكبائر التي لاتغتفر وكان يثير الاشم
بقدر مايثير السخرية حين ينبرى أحدهم في أحد الصح
ليتكلم عن العمال والفلاحين وحتمية الحل الاشتراكي وهو ا
لم يكن يعرف أن يتكلم سوى عن القصور وخباياها ولم يش
نفسه يوما بمن كان يسميهم الغوغاء والدهماء ، ونكتشف
خواجة يتحدث عن أمور غريبة عنه فيخرج الكلمات م
كادت تخرج عن الخواجات الذين يحاولون التحدث بالعربي
(يحيا العمال والفلاحين)

وحــدت ترحيب جماعى بالطبع بالميثـــاق ٠٠ وان كادت النفسيرات قد اختلفت وتباينت ٠

وكان رأى مجلة الهواء ان الميثاق جاء تأكيدا لفكرة ان هناك فى السلطة «مجموعة اشتراكيين» وأن هــويتها بدأت تبين بوضوح وأنه لابد من تلاحم صفوف جميــع الاشــتراكيين» والاندماج فى بوتقة واحدة ٠

وكان رأى مجلة الطريق وكنت أحد رؤســاء تحــريرها ان الميثاق يعتبر وثيقة وطنية ديمقراطية هامة وانه يصلح كأساس لجبهة وطنية ديمقراطية بين جميع القوى مع التأكيد بأن استمرار اعتقال «الاشتراكيين» وعدم وجود حركة وتنظيمات سياسـية وجماهيرية قوية يمكن ان تفرغ الميثاق من كثير من مضمونه ٠

والتقيت بعاشور السجين الاخوانى زميل الدراســة وكان عاشور فى السنتين الاخيرتين مع مجموعة من الاخوان قد بدأوا يشكلون تيارا متميزاً داخل المسجونين من الاخوان المسلمين يمكن تسميته بالتيار الاشتراكى الاسلامى ٠٠ وكان هذا التيار يتفق مع الماركسيين تقريبا فى معظــم المنطلقات الوطنيــة والطبقية مع محاولة لوضع كل ذلك على أرضية اسلامية ٠ ٠. وقد أطلق الاخوان على هذا التيار النامى وصفهم بأنهم «جماعة المؤيدين» وحاولوا عزلهم واتهموهم بأنهم متأثرين بالفــكر الشيوعى ٠٠ أما بقية الاخوان فلقد ظلوا يعيشون عــلى أمــل تحقيق شعار واحد ٠٠ الانتقام من عبد الناصر

كان عاشور متحمسا للغاية للميثاق بل ومنفعلا بدرجــة كبيرة ولكن السؤال الذى كان يحــيره هو ٠ ٠ لمــاذا يبقى الماركسيون والاشتراكيون فى السجون والمعتقلات ٠

وحاولت ان أشرح له وجهة نظرى من انه بالرغم من أن الميثاق والاجراءات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة التى سبقته تمثل حقيقه «نقلة» فكرية تقدمية الا أن الامر يتم ببطء بل ويتهدده الأخطار لانه ليس هناك حركة جماهيرية منظمــة ولان نفس الاجهزة هى التى تشرف «فى التطبيق» على هذا التحول ٠

ولكن عاشور الذى لم يكن قد تعود بعد على المنهج العلمى كان يرى ان «الامر غير مفهوم» وكان يحتد فى مناقشة أحيانا

وهو يقرأ نصوصا من الميثاق ويقول فى حيرة تامة

- : قل لى .. كيف يتسنى ان يكون ذلك هو السياسة الرسمية ثم تبقون فيالسجون .. لقد سمعت منك منذالجامعة نفس التعبيرات والشعارات والاهداف فلماذا تبقى انت على الأقل داخل الاسوار لكى يمرح أمثال المصيلحى وغيره أو يتحولون بقدرة قادر الى اشتراكيين .!

وكان أمرا محيرا حقا (تلخبط اللخبطان) على حد تعبيرعدلى عزيز وهو زميل مدرس عرف بخفة الدم خرج بنظرية تقول أننا سنقدم فى القريب العاجل الى المحاكمة باعتبارنا من القوى الرجعية المعادية للتقدم والاشتراكية والديمقراطية .

كنت طوال النهار أغرق مع الآخرين فى هذه المناقشات واللامعقوليات التى تحيط بها .. أما فى الليل وحينما تهدأ الحركة فى المعتقل فقد كنت الجأ الى بعض الكتب وخاصة تلك التى تقدم نماذج للمقاومة أستمد منها عونا كنت أحتاجه لاراحة أزمتى الخاصة التى لم استطع بالطبع أن أنساها . ومن بين الكثير من الكتب من هذا النوع التى تتحدث عن استشهاد بول ايلوار الشاعرالفرنسى العظيم على أيدى القتلةالفاشيست، وآلام فرتر «ولمن تدق الاجراس» واشعار ناظم حكمت وبابلو ناردا ولويس اراجوفن ، كان كتاب تقرير من المقصلة ليوليوس فوتشيك هو اقرب كتاب الى قلبى .

بل استطيع أن أقول انه تقمصتنى لفترة روح فوتشيك وحفظت الكثير من كلماته الانسانية القوية التى كانت حقا تلعب دور الاكسير المقوى لمعنوياتى ولقدرتى على هضم وتحمل أزمة عينى .

بل وتعمدت قبل أن أنام أن القن وصاياه العشر كما لو كنت أتلو كلمات من كتاب مقدس .

(اننا أناس من معدن خاص صنعنا من مادة خاصة .. اننا نحب الحياة ولذلك فاننا لانتردد فى المخاطر ، بحياتنا لكى نشعل ونمهد الطريق نحو حياة حقيقية حرة كاملة مرحة ، اننا لانتردد مطلقا فى التضحية بمصالحنا الشخصية لكى

نفوز بمكان لائق تحت الشمس من أجل انسان حر سليم مرح لايتعرض لارهاب او استغلال .

اننا نحب الحرية ولذلك فاننا لانتردد لحظة واحدة فى اخضاع حريتنا من اجل حرية البشرية كلــها .

اننا نحب العمل الخلاق نحب النمو البناء ولذلك فلن نضن بجهدا او تضحية فى النضال من اجل تحقيق نظام نجد فيــه كافة القوى الخلاقه فى البشرية وكل فرد فيها مجالا وتطويرا كاملا .. اننا نحب السلام ولذلك فنحن نكافح .

كنت فى حاجة ماسة ليوليوس فوتشيك ذلك الشــاب الصحفى التشيكى الذى ارتبط بآلام واحلام شعبه وحينما قاده الجلادون النازيون الى غرفة الاعدام كان اخر كلماته « ايهــا الشعب .. انى احبك .

وسأظل مدينا لروح فوتشيك قبل اى انسان اخر فى تلك الطاقة التى كان يشعها داخلى لأتحمل مصيرا كان يتراقص امامى كالشبح الاسود لينذر بالظلام وانطفاء النور والى الابد .

بل لقد كان فوتشيك هو الذى يجعلنى اقول وانا اتقلب على البرش وسط الزملاء الذين استغرقوا فى النوم (فلتذهب العين اذا كانوا يريدون ذلك ولكن سأظل أحبك .. ايهــا الشعب) .

كان قد مضى حوالى الشهرين منذ عودتى الاخيرة من القصر العينى وكان الزملاء الاطباء [illegible]

فى عينى اليسرى التى بدا[illegible]
اما العين اليمنى فلقد كان الخطر [illegible]
طوال الشهرين على ان اتعاطى بعض
تقلل من الاخطار بقدر الامكان .

وذات مساء جاء الى غرفتى الزميل ابو سيف يوسف والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وفوجئت بهم يعرضون عــلى بعض الصحف والمجلات العربية والاجنبية وفيها موضوعات تحت عنوان « انقذوا عين الصحفى الشاب .. » وقد كانت لحظــة تعويض لاتقدر .. اذن فلم يكن هناك سكون وصمت طوال الشهرين الماضيين كما كنت اتصور بل كان هناك عمل عظيم من

جانب الزملاء ٠٠ وفى صمت وانعكس فى كل تلك النداءات التى امتلاءت بها الصحف العربية والاجنبية ٠

وقال ابو سيف

ـ كنا نقدر الظروف ، ولم نريد ان نعمق الاحساس بخطورة حالتك ، ولكن الوقت الان يختلف ٠٠ ان هناك حملة واسعة من اجل انقاذ عينيك ، ولقد حان الوقت لنتخذ موقفا حاسما ٠

كم هو جميل ان تضمك روح الجماعة وتثير فى قلبك مشاعر سامية تهبك قدرة شمشون وحاولت ان اقول شيئا فلم استطيع كانت المفاجاءة اقوى واعظم من اى كلمة يمكن ان تقال ذلك واجتاحنى احساس باننا أقوياء فعلا قادرون على الحب والدفاع عن الحياة .

وتذكرت الحملة التى نظمناها فى جريدة المساء منذ سنوات من أجل انقاذ جميله بوحريد وكيف نجحنا فى هذه الحملة بأن يذهب اكثر من مليون خطاب الى الحكومة الفرنسية والى همرشلد سكرتير الامم المتحدة فى ذلك الوقت من أجل انقاذ المناضلة الجزائرية من حكم الاعدام الذى صدر ضدها ودركت ساعتها وبشكل علمى احد معانى النظرية التى كنت أومن بها وهى ان اى دفاع عن حق الانسان فى الوجود والتحرر فى اى مكان فى العالم هو دفاع ذاتى ايضا ٠

وحينما كنت اقرأ برقية لاتحاد الصحفيين العالمى فى براغ واخرى لاتحاد الشباب العالمى وثالثة من لجنة الكنائس و ٠٠ وكلها تطالب بانقاذ عينى غمرنى احساس بأنى جزء من جسد كبير يسعى كله الى لفظ الافات والجراثيم من داخله ٠

واحسست ان كل شيء يمكن ان يهون مقابل لحظة مثل هذه تتجسد فيها كل تلك المعانى الانسانية معنى تتجسد فيها وتتوحد قوى الخير الكامنة فى البشرية كلها ٠

وفى صباح اليوم التالى كانت هناك مفاجاءة ثانية ٠

لقد اضرب اربعة من الزملاء عن الطعام حتى يتم نقلى وعلاجى فى القاهرة ٠٠ وقد اختير الاربعة من ذوى الاسماء المعروفة على

النطاق المحلي والعربي والعالمي وهم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ونبيل الهلالي وعبد المنعم شتلة وحلمي يس .

وحاولت ان اعترض وان اوءكد انني في حالة جيدة ولست اريد لاحد ان يضار من اجلي وخاصة أن امامنا مهام ونضالا اكثر الحاحا من قضية خاصة مثل عيني .

وصرخ في وجهي الزميل ابو يوسف ربما لاول مرة في حياته

ــ ياأخي هذا ليس دفاعا عنك وانما دفاعا عن كل الزملاء .. انك لم تتخلص بعد من الحساسيات البرجوازية الزائفة .

وبقدر ماآلمتني كلمات او سيف بقدر ما احسست بصدقها وحقيقتها .. الحساسيات البرجوازية الزائفة ربما قلتها قبل ذلك عشرات المرات ولكني لم اكان ادرك معناها الحقيقي تكون في وضوح تام مع النفس ومع الاخرين وحتى لو كنا اننا ابناء مجتمع منافق كذاب مخادع .. ولاتعرف كيف نزعم لانفسنا اننا نحمل افكارا وقيما جديدة .

لقد كنت بالفعل وكنت اخسر كل يوم جزءا من قدرتي على المقاومة ولقد كنت في حاجة ماسة احيانا لان اصرخ :

ــ عيني تذهب .. عيني تذهب .

ولكن النفاق البرجوازي الزائف كان يجعل الامور تمضي من السطح كما لو كان كل شيء على مايرام كم كان صادقا ورائعا هذا الرفيق ابو سيف الذي فجر في داخلي دملا آخر من دمامل النفاق كان يختبيء في اعماقي .

وفي اليوم الرابع من الاضراب جاءت الاوامر من القاهرة بترحيلي الى القاهرة .

وطوال الطريق كانت معي اشعار ناظم حكمت وهذا الدفء الغريب الذي يعكسه وهو يعاني السنوات الطوال داخل السجن .. كنت اقف بجوار نافذة القطار اردد بصوت مسموع على حقول القطن الفارقه في ضوء القمر

ايها الاخوة

في اوربا وآسيا وامريكا

لست في السجن ..
بل أنا مستلق على مرج اخضر ..
وفي مساء يوم من الايام
ارى عيونكم فوق راسي
تلمع مثل النجوم
تلمع مثل عيني امي
ويدحبيبتي
أيها الاخوة
انكم لم تهجروني ..
وكم انا سعيد ..
وقد كنت حقا سعيدا في تلك الليلة

وعنـــدما تغلق الزنازين فى
سكون الليل ويغلب النعـــاس
جفون المساجين يتجه قلبى الى
منزل صغير .

ناظم حكمت

اكتوبر ١٩٦٢

واحد ياورد .. اثنين يافل .. ثلاثة يا ياسمين .
ويصرخ شاويش العنبر
ـــ انت ياواد يابتاع زنزانه ١٥ .. انخمد ناه الساعه بقت ١٢ .. ويواصل الصوت بعد مساء الليل على غفر الليل .. شنجى وكنجى وبرنجى .

ويعود شاويش العنبر ليحتج بلهجة اكثر عنفا :
ـــ قلت انخمد احسن ما يحصلكش طيب .
ولكن الصوت يستمر
واحد ياورد .. اثنين يافل .. ثلاثة يا ياســـمين اربعة يا اجدع ناس مقلمين .
ـــ طيب والله يابن الرفضى لاوريك بكره .. الصباح رباح .
ويعلو الصوت
خمسة ياكركية .. وبقيت الدور لومانجيه
ستة يازهرة الشباب والحركة الوطنية
سبعة ياقرانات ولومانجية
ثمانية يارجالة حى البطلية .
نشيد غريب كل ليلة تقريبا من احد الزنازين المغلقه كمقدمة للاعلان عن الافراج عن احدهم وينتهى عاده

نعرفكم ياخواني ان « فلان » من اعيان روض الفرج خـــارج افراج بكرة .. وعقبال عندنا وعندكوم يا حبايب .
وغالبا ما يكون هذا الفلان الذى هو احد اعيان روض الفرج نشالا محترما او هجاما او لص خزائن أو تاجر حشيش .

ولقد كنت كثيرا احاول ان اهدىء من ثائرة الشاويش السهران فى العنبر حين نقلقه هذه الاصوات وتوقظه من نومه فيحاول ان يتوعد صاحبها بالويل والثبور والتأديب .
وغالبا ما كان الشاويش بعد ان يكون النوم قد طار من عينية يأتى الى زنزانتى لنتحدث سويا .. ولقد كانت المصالح المشتركة .. فأنا ازوده بالسجائر وبعض ماصرفته من الكنتين بينما يزودنى بالشاى وبعض الخطابات والحواديت عن سجن مصر .. وارامیدان .. او القصر العالى كما وصفته بهية وهى تنعى ياسين .
كانت هذه اول مرة ابقى فيها لفتره طويلة فى سجن مصر لاستكشف عالما غريبا ومثيرا يختلف تماما عن العالم الذى يحيط به ولايفصلها سوى اسوار السجن .
حقيقة اننى تنقلت فى معتقلات كثيرة كمازرت سجن اسيوط ولكن أراميدان الذى يقبع على بضع خطوات من حى القلعة اقدم احياء القاهرة، كان استكشافابالنسبة لى على طول الخط .
ان اشهر سجن فى مصر والذى كان من اول ثمار « التعمير البريطانى » لايختلف كثيرا فى مبناه عن بقية السجون المصرية التى بنيت هى اخرى على النظام البريطانى .. عنبر او ثلاثة يحتوى كل عنبر على اربعة ادوار ويحتوى كل دور على خمسين زنزانة تطل ابوابها على ممر دائرى .. نفس نظام سجن اسيوط .
ولكن المحتوى هنا يختلف .
فاذا كنت فى اسيوط قد رأيت فلاحى مصر الطيبين الذين دخلوا السجن فيما يمكن ان يسمى بجرائم القيم القديمة مثل الثأر والعار والشرف او نتيجة للصراعات الطبقية والاجتماعية بين فقراء الفلاحين وكبار الملاك .
فان سجن مصر ملىء بما يمكن ان يطلق عليهم «حرافيش القاهر » .
النشالون والهجامون بمختلف تخصصاتهم المهنية .
والسماسرة والقوادون وتجار المخدرات
ثم المختلسون والنصابون والمزيفون .
اى انها تلك الفئات التى تخرج عن اطار اى تصنيف طبقى والتى تحولت ، رغم انها فى النهاية ضحية ظروف وعلاقات

كان من الطبيعي ان تتوطد العلاقة بيني وبين النورس ولقد كانت المصلحة مشتركة ايضا .
فالنورس هو قائد العنبر الذى يضم نوعيات ليس هناك من طريق لاقامة علاقات معها من نشالين وقوادين وبورمجية .

ومن ناحية اخرى كان يهم « النورس » ان يتعرف على الاستاذ الغريب في هذا العنبر والذى يحترمه الشاويش ويسكن في زنزانة منفردة وتمتلىء زنزانته ببعض منتجات الكانتين من سجاير وخلافه .
كان النورس حالما يفرغ من مهام القيادة في العنبر يأتى الى زنزانتي فأنفخه سيجارة وينجز يدخنها بشبق وهو جالس على باب الزنزانة ثم يبدأ حواديته .
ــ ولماذا سموك النورس ؟ ..
ــ النورس ده يا بيه طائر بحر .. ذكى سريع .. زيى بالضبط هو يطير فوق البحر ويلمح سمكة وبسرعة ينزل ينقرها ويطلع .. وأنا أبقى ماشى في الشارع المح « الزبونة » وبسرعة أخد الشنطه واختفى .. كان النورس متخصصا في خطف شنط السيدات ، والسيدات الجميلات بشكل خاص .
ــ ليه بقى ؟ ..

ــ شوف يابيه .. لازم « زبونتى » تبقى حلوه ومدندشه وباين عليها العز .. لسببين ، من ناحية تبقى الخطيفة تستاهل ومن ناحية اخرى أنتقم لنفسى
ــ : تنتقم من مين ؟
ــ : مرات أبويا .. كانت حلوة ودلوعة وحطت أبى في جيبها . أنا كنت بتعلم ووصلت لغاية ثانوى وكان في دماغى حاجات كثيرة وكبيرة زى حضرتك كده .. انما مرات أبويا .. والدلع والحرمان والفلوس وخيانتها لأبى مع كل واحد في العمارة . وأبويا يغفرها ويضربنى انا ويحرمنى أنا .

ويسرح « النورس » أحيانا وتكتسى بوجهه سحابات كثيفة منذرة سرعان مايعود الى ضحكه وسخريته .
ــ : ماأنا برضه ثائر .. بس على قدى .. مش كده واللا ايه .. كان من الممكن أن يكون فيلسوفا أو كاتبا أو حتى موظفا

كبيرا لاأقل من رئيس مجلس ادارة ٠٠!
ـ : ألم تفكر فى التوبة والاستقامة ؟
ـ : التوبة ٠٠ انت تقول هذا ٠٠ أتوب من ماذا ؟ ٠٠ من ظلمهم من جبروتهم ، من تعسفهم ، من تملكهم لكل شيء ٠ ٠ الفرق بينى وبينك انك حالم تعيش فى الخيال ٠٠ شاعر ٠٠ تبنى قصورا فى الهواء ، انما أنا واقعى ٠٠ أنتقم لنفسى وبطريقتى ٠

ـ : ولكن السرقة لاتحل المشكلة حتى بالنسبة لك ٠
ـ : ومن قال لك اننى أريد ان أحل مشكلة ٠٠ اننى ألعب معهم لعبة القط والفار ٠٠ هم بالطبع القطط يحصلون على كل شيء ٠٠ ولكنى اشعر بسعادة بالغة حينما أتمكن من حرمانهم من قطعة جبن صغيرة ٠
ـ : ولكنك فى النهاية فار ٠٠ تقع دائما فى المصيدة ٠٠
ـ : ولو ٠٠ ولكنى أحرمهم أحيانا من قطعة جبن ٠٠ هـــذا يكفى فلست على ستعدد لتكوين اتحاد عام للفئران ٠

وننهى بالطبع مناقشتنا الى لاشيء ٠٠ فهو مقتنع بأنه يعيش فى غابة من الوحوش والحشرات ، وهو مقتنـــع بأنه حشرة وليس وحشا وبالتالى فهو قانع بالفتات الذى يسرقه ٠
ومع ذلك فلم يكف النورس عن ممارسة عادة سيئة على حد تعبيره وهى قراءة الكتب ولقد اكتشفت انه قرأ لكتاب مصريين وأجانب كثيرين وأنه أتى على كل كتاب فى مكتبة السجن ٠

وحينما سألته اذا كان قد قرأ كتاب ارسين لوبين وشرلوك هولمز نظر الى فى عتاب

ـ : لقد قرأت لهمتجواى وطه حسين وشكسبير وتشيكوف ٠
حقيقة انا فار ٠٠ ولكن فار مثقف ٠٠ آكل الجبن والكتب الدسمة ٠٠ وذات يوم كنت قد ذهبت الى الحمـــام وتركت الزنزانة مفتوحة ، وحينما عدت اكتشفت اختفاء بعــض علب السجاير والسلمون وكوزين حلاوة كنت قــد اشتريتهما من كانتين السجن ٠
وأبلغت النورس بالحادثة وأبدى استغرابا وانزعاجا شديدين

وخاصة وقد لمح فى نبرات صوتى رنة اتهام له ولم يعلق ولم ينطق بكلمة واحدة وانسحب فى هدوء مثير .

وقبل التمام ولدى عودتى من دورة المياه ، اكتشفت ان المسروقات قد عادت وليس هذا فقط بل وكميات أكثر من تلك التى اختفت .

وعبثا حاولت ان اعثر على النورس فى ذلك اليوم بل وأختفى تماما لعدة أيام عرفت انه طلب خلالها ان يذهب للعمل فى المكتبة .. وحينما التقيت به بعد اسبوع وبعد الحاح من جانبي على الشاويش عبد الستار لمحت على وجهه انفعالات غريبة ومحاولة من جانبه بألا التقى بعينه اللتين امتلأتا بالدموع .

— لماذا قاطعتنى كل تلك الفترة ؟ ..

— لم اقاطعك ، ولكن كنت حزينا للغاية حينما احسست بأنك تتهمنى .. حتى انت تعاملنى كفأر .. وطيبت خاطره وأقسمت له اننى لم اكن اعنيه هو ..

وحكى لى كيف انه بعد ان تركنى مر على كل زنزانة وأخذ يلعن النزلاء لهذه الجريمة الشنعاء ..

— من الذى سرق الاستاذيا أولاد الـ .. الا تعرفون انه فى السجن هنا من أجل الغلابة .. لازم قبل التمام تروح له كل الحاجات .. ولازم اعرف من الذى عمل العملة السودة دى ..

والذى حدث انهم جمعوا فيما بينهم تلك الحاجيات وأرسلوها الى الزنزانة فى محاولة لاسترضائى .

— ألم تعرف من الذى فعلها ؟

— عرفته .. وقد ندم بشدة وهو يريد أن يأتى ويعتذر لك ..

كانت الامور تجرى من السطح وطوال ذلك الشهر الذى قضيته فى سجن مصر فى علاقات وحكايات مع النورس والشاويش عبد الستار ولكن ذلك لم يكن سوى الصورة من السطح ..

فمنذ رحلت الى القاهرة بعد اضراب الزملاء الاربعة فى

الواحات جاءوا بى الى سجن مصر وبعد أربعة أيام وبالتحديد فى يوم الاحد ، ذهبوا بى الى القصر العينى لاعرض مرة اخرى على .. امين زايد .. ورفضت بالطبع ان اعرض عليه فلم اكن فى حاجة الى معرفة رأيه .. وطالبت بأن اعرض على الدكتور عصام توفيق أو أى طبيب آخر ..

والحقيقة اننى فقدت اعصابى تماما فى ذلك اليوم فلم اكن اتصور بعد كل ما حدث بينى وبين امين زايد وبعد كل تلك الضجة التى اثيرت وشهرين قضيتهما فى الواحات افقد كل يوم جزء من بصرى نتيجة موقف هذا الطبيب ان أركن فى السجن لكي اعرض فى نفس اليوم الذى يكون فيه مسئولا عن استقبال العيون .

وأخذت وأنا فى حالة هياج شديد أوزع الانفعالات والشتائم دون معايير أو ضبط ..

وعدت الى سجن مصر بعد ان اشر الضابط المرافق والذى كان مختارا بعناية ، باننى رفضت العلاج !!

اكثر من شهر ونصف مضيا على فى تلك الزنزانة فى دور سته فى سجن مصر احتج وأكتب المذكرات وأقابل المسئولين فى السجن ابتداء من مدير السجن حتى الضابط وطبيب مستشفى السجن ولا أجد ردا محددا سوى تعاطف مع حالتى مع عجز عن أى تصرف وحينما التقيت بمدير السجن وقد كان حقيقة انسان طيب ، وهددت بأنه يتحمل مسئولية تدهور حالتي وبقائى فى السجن دون علاج قال الرجل فى لحظة صدق هادئة .

ـــ اسمع يابنى .. انا عندى ولد زيك طالب فى الجامعة ومريض .. ومقدر حالتك تماما وأود ان افعل شيئا ولكنك تعرف انك « وديعة » عندنا فقط .. المسؤل عنك هى المباحث العامة ولست إنا .. وعلى أى حال فلقد تحدثت معهم مرارا بشأنك وسيأتى أحدهم لمقابلتك غدا ولم يأت المسؤل المباحثى فى الغد ولكنه جاء بعد يومين .. كان نفس الضابط المهذب الذى التقيت به فى القصر العينى وفى غرفة وكيل السجن كان الصراع ....

جاء مهاجما هذه المرة ومتخليا عن كل الشكليات التى كان يحرص عليها .

ـــ ماذا تريدنا ان نفعل .. جئنا بك للعلاج ثلاث مرات وأنت الذى ترفض العلاج ؟ ..

ـــ اننى لم أرفض العـــلاج وأنت تعرف هذا جيـــدا .. ولكني أرفض أمين زايد ..

وما دخلنـــا نحن .. انه مدرس في القصر ويمارس عمله كطبيب ؟

ـــ هناك عشرات غيره .. هناك عصام توفيق واساتذة آخرون لماذا رفضتم تشخيص عصام توفيق ولماذا تصرون على عرضى كل مرة على امين زايد .. ليه .. ليه .. ؟

ودار الحوار هكذا فى طريق مسدود وهو يحتد احيانا ولكن بحســاب وأنا أحتد دائما وبدون حســاب ، ووكيل السجن يتدخل بين الحين والاخر لتلطيف الجو ..

منطقه أن مسؤليتهم تتحدد فقط فى عرضى على الاخصائى وأنهم قد أخلوا مســـؤليتهم بترحيلى ثلاث مرات الى القصر العينى ..

قلت : اذن فهناك اصرار من جانبكم على أن افقد بصرى ، ليكن .. فلماذا تضعوننى هنا فى سجن مصر ..

ـــ هنا أفضل بعيدا عن الصحراء والشمس والرمال ..

ـــ هذا ليس مكان للمعتقلين فاما ان اعـــالج فى احـــد المستشفيات أو ارحل الى الواحات ..

ـــ ترحـــل للواحات لتثير زملاءك مرة اخرى .. بصراحة نحن لا نريد صداعا ؟

ـــ ولكن سجن مصر ليس مكانا للعلاج ؟ ..

ـــ على أى حال فهذا أفضل بالنسبة لنا من أى مكان اخر حتى نصل الى قرار فى أمرك ..

ـــ حضرة الضابط ، الامر لا يحتاج الى قرار ودراســـة ومماطلة .. كل شىء واضح ، اما ان أرسل للعـــلاج فى أحد مستشفيات الجامعة أو أعود الى الواحات .

ـــ يا أخى .. لماذا تعقدها هكذا .. يمكن قعادك هنـــا خير .. الطريق لبيتك أقصر ..

قال هذه الكلمات وهو يعود الى طريقته المهذبة القديمة ·
ورفضت ان التقط الطعم الذى رماه وعدت اطالب أما بالعلاج أو بالعودة الى الواحات ·· ؟
ولكنه عاد يتحدث عن الافراج وعن دراسة حالتي والمشاكل التي اسببها لهم وبانهم يريدون ان يرتاحوا منها ··
ثم قال وهو يغادر الغرفة :
ـــ مالك كده مش زى عوايدك ، خلى نفسك طويل البال دانت راجل رئيس تحرير ·· يمكن يا سيدى تطلع من هنا على بيتكم ·· المسألة سهلة زى ما أنت عارف ··
وترك الغرفة بسرعة حتى قبل ان افكر فى الرد عليه ·· وتأكد لى ، ولاول مرة ، اننى وقعت فى فخ حقيقى ·· بعيدا عن العلاج ، بعيدا عن الزملاء وروح الجماعة ·· فى زنزانة مظلمة معتمة وسط أناس لا يمكن ان تعايشهم ·· والعين تضيع فى كل لحظة ·· والطريق الى بيتك قصير ··
كان فخا محكما ··

دع المصـــباح يشـــتعل لأرى
وجهــك والزهور تنتظم لتتوج
جبهتك قبل ان اذهب ، دعنى
أردد نغمتى الاخـــــيرة لاتم
موسيقاه ٠

« طاغور »

نوفمبر ١٩٦٢ ٠

ليست المشكلة فى أن تعانى طالما تعرف لماذا ، وتظـل فى النهاية قادرا على ان تحسم المعاناة والالم بقرار داخلى حاسم يغمرك بسلام نفسى عميق ٠

ولكنها تصبح مشكلة حقا حـين تعجز عـن تحقيق هـذا السلام الداخلى ، فتهتز الصورة أمامك ويتوه خيط التفكير فى

الرأس وتحاصرك ازمة المعاناة فى حلبة ضيقة فلا تعرف اين تنجه خطواتك وهل هى فى الطريق الصحيح لم لا ؟ ٠٠ وهنا يمكن ان يحدث اى شىء ٠

ولقد كنت طوال الاشهر الماضية ، اى منذ بدأت معـركة عينى ، قادرا على ان اتخذ القرار الداخلى الحاسم ٠

ولكن الامر فى زنزانة ٣٠ فى دور ستة ســـجن مصر لم يكن يشجع عـلى الاطلاق للاستمرار فى هـذه القـــدرة ٠٠ والغريب انى كنت أعن ذلك تماما ٠

ستون يوما مضت منذ جئت الى هذا السجن قابعا فى تلك الزنزانة التى لا تزيد عن ثلاثة امتار طولا وعرضـا وفتحتها المقبضة الى أعلا ٠٠ بعيدا عن العلاج بعيدا عن الزملاء بعيدا عن أى رقعه من اى نوع سوى نماذج مستهلكة مخربة فقدت أحساسها بأدميتها وتعودت ان تعيش مثلما تعيش الجرزان

تقاتل من اجل قطعة جبن وتلوذ الى جحورها هاربة مذعورة لدى صفارة الشاويش .

حتى « النورس » بما فيه من بعض بقايا انسانية رحل من سجن مصر الى طرة بعد ان صدر ضده حكم بالاشغال الشاقة المؤقته .

واخـذت امضـغ الوحدة والوكها بمرارة ، وكل يوم يمر أحس بأن بعض قطارات الامل والثقة تتبخر من داخلى ويزداد احسـاسى بالكآبة .

وبدأت أعزف عن التسلية الوحيدة التى كنت اهرب فيها بعض الساعات وهى القراءة بعد ان استنزفت تقريبا كل مـا يمكن أن يقرأه فى مكتبة السـجن وبدأت ايام تمر دون ان اتبادل كلمة مع انسان حتى شاويش العنبر الجديد كان مملا الى السـدرجة التى لا تغرى بضياع دقيقة واحدة معه .. بل وبدأت افقد الاحساس بالفرق بـين الليـل والنهار او بـين الاستيقاظ والنوم ، وكثيرا ما كنت أسـتلقى على السرير الحديدى وعينى مفتوحة وهمهمات السجن فى اذنى ، ورأسى تدور فى أماكن اخرى تماما ، أحيانا فى الواحات بين الزملاء وأحيانا فى القصر العينى وكثيرا ما أنسى الحاضر كله واستسلم لشريط باهت مـن ذكريات ما قبـل الاعتقال .. وفى بعـد الاحيـان أقف وسـط الزنزانة والقى خطبة طويلة بصـوت مسموع او اقوم بتمثيل بعض المشاهد المسرحيـة أو اؤلف لنفسى دورا خاصا امثل به على نفسى ..

وتحولت الدقائق الى ساعات والساعات الى ايام حتى القلم لم يعد يجدى وفقد سحره وعجزت لاول مرة عـلى ان اكتب جملة مفيـدة .. حاولت ولليلة طويلة ان اكتب شيئا ولكن القلم لا يكتب والعقل شارد غير قادر حتى أن يحلق فى اجواء الزنزانة وكانت حصيلة ليلة كاملة عدة سـطور لا يمكن أن تكون فيما بينها جملة مفيدة .

أما لعبة السـيجة التى اسـتطاعت ان تشـغلنى ليـلة أو ليلتين وانا اقـوم بدور اللاعب والطرف الآخر معـا فسرعان ماسئمتها وألقيت بالكرات التى شكلتها من لبابة العيش فى

جردل البول ··· وبدأت اخاف عـــلى نفسى ·· نعم بدأت أخـاف ·

وأخذت اتذكر هؤلاء الزملاء الذين كنت اشفق بهم واحرص عـــلى مساندتهم ، حينما كانوا يترددون الى جانب الســـور يعيشون مع أزماتهم الخاصة فى وحدة وصـمت ·· وتذكرت ذلك الزميل الذى كنت اواسيه واشجعه عـلى تحمل مأساته وهو يقول لى بصوت مختلج ·

ـ : يدك فى الماء البارد ··· فأنت لا تعرف ·

ولكن يدى يا زميلى هى الآن فى الزيت المغلى وبدأت اعرف الخوف والقلق المدمر ·· وحينما كنت اقضى الليل كله اقطع الامتـار الثلاثة ذهابا وأيابا ويدى خلف ظهرى كانت رأسى تموج بتيارات شتى ·

رزق مكارى وهو يجوب عنبر الواحات يتساءل .. اخرج اولا أخرج ؟

والضابط الشاب وهو يقول فى اخر لقاء ·· انت قربت الآن من منزلك والمسألة بسيطة كما تعرف ·

وأبى يقول لى فى اخر مرة فى القصر العينى ·

ـ يأبنى ·· انقــذ عينيك وشــبابك وما فى القلب فى القلب ·· وأفعل ما أمر به رســـول الله بلال الحبشى حينما كانوا يعذبوه فى بطاح مكة .. والدكتور عبد المنعم عبيد هو يقول لى فى الواحات قبل السفر الاخير ·

ـ لابد من اجراء العملية وبسرعة ، لا ترجع هذه المرة دون علاج ·· وابو سيف يوسف يقول فى صوته الهامس ·

قلوبنا معك ·· انهـا ليست قضية عينيك وحـدك ، انها قضيتنا جميعا · ومحسن الخياط يغنى على البرش بجوارى ·

عشان انسان
أحب واثور وأتالم
واغنيله ..
وفجرى لو يطول ليله
اناديله
وأولع له قناديله

ما دام عندي امل بكرة ·· اشوف الفجر

بكره الفجر هينور ·

ولكن اكثر من فجر يمر يا محسن وقلبى حزين ودائرة الكآبة تضيق الخناق على القلب .. متى يأتى هذا الفجر بدون اسوار وحراس، متى يأتى هذا الفجر الحر، متى ··· متى كنت قد كففت عن الاحتجاج بعد أن أدركت متأخرا انه كلما كان يبلغهم ضيقى بسجن مصر واضطراب اعصابى كلما كان ذلك يفتح شهيتهم للاستمرار فى اللعبة ·

ولكنى وبالرغم من كل مظاهر التمسك الخارجى التى كنت احرص عليها وخاصة أمام المسئولين فى السجن الا ان اعصابى بدأت تخوننى وبوضوح فى مرات كثيرة ·· ففى أحد الليالى اخذت ادق بعنف متواصل على باب الزنزانة ·· وفى يوم اخر القيت بالاكل فى وجه الحارس المساعد للعنبر ، وفى يوم آخر رفضت بأصرار اغلاق الزنزانة عند التمام واضطر الشاويش ان يستنجد بوكيل السجن ·

كانت كلها انفعالات تلقائية وغير مجدية ولكنها تعبر فى النهاية عن العجز والاحباط وعدم القدرة على التصرف والتحكم ·

ولقد كان يعقب كل هذا استدعاء من جانب وكيل السجن الذى كان فيما يبدو موصى على لكى يعيد على مسامعى استعداده لبذل مساعيه الحميدة لدى المباحث بشرط ·· ان اكون مستعدا للتفاهم ·· أى تفاهم يا حضرة الضابط !! ·· ان اعيش خرقة بالية ! ان اشرخ كيانى كله لاظل بعد ذلك فاقد الثقة بالنفس وبالحياة وبكل شىء ·· ان اتحول الى « اغا » جديد فاقد الطعم واللون والرائحة ، والعمى ·· اليس هو الاخر بديل مزعج ·· ان تحتفظ بلونك الداخلى وتفقد القدره على تمييز الالوان الخارجية ·· ان تعيش فى ليل دائم فى سجن ابدى من الظلمة والظلام ·· واصبحت الواحات أملا لى فى صحراء سجن مصر ··.ابتسامة الرفاق ودفء الامال فى الصدور رئة المستقبل التى ما زالت تتردد فى كلماتهم ···

الانسانية المتفجرة فى القلوب ، كم انا محتاج لكم ، كم أنا في اشد الاحتياج لكم .. لماذا لا نمددا ايديكم الطويلة لتخطفوني .. اني اختنق ، اتعذب ، كأنه حائر .. انني أضعف واصبحت اخاف على نفسي .. عيني تذهب ، صبري ينفذ . والامل كريه لاول مرة يتراقص على وجه ضابط المباحث وايحاءاته .

لو كانت القضية مجرد ايمان بفكرة لهان الامر فلن نخسر الفكرة كثيرا اذا فقدت واحدا ولكن القضية أنا ... انسانيتي ، احساسي بذاتي .. كيف أشرح نفسي بنفسي .. كيف يمكن أن أعيش محني الرأس يلازمني احساسي بالعجز والضعف امضي على رصيف الشارع واخاف الظل .. لا أستطيع .

بالله عليكم يا بنات اورشليم هل رأيتن فتى كان جبينه الاسمر ينضج بالحب والحياة .. لا تتركوه يتوه منكن في شعاب الحيرة والتردد واليأس .. وماذا يفيد الانسان اذا كسب العالم وخسر نفسه ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب نفسه وخسر العالم ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب عينيه وخسر حريته ، وماذا يفيد الانسان اذا كسب حريته وخسر عينيه .. ماذا يفيد وماذا لا يفيد .. ؟

لا أحد يجيب .. ولكن اشارات كثيرة .

الضابط المهذب يشير بأصبعه ليعطيني قلما وورقة ، والزملاء من بعيد يفتحون اذرعتهم ، وابى الصامت وعيني تذهب والسجن كئيب كئيب .. والجو ثقيل كالرصاص وانا أصرخ .. اصرخ تعالوا معى .. وقابلت وكيل السجن ، وقلت له انني اريد ان التقي بمسئول من المباحث العامة ، ولم يخف الرجل فرحته فلقد احس انه نجح في مهمته .. وبعد ساعة واحدة كان الضابط المهذب في غرفة وكيل السجن وعلى وجهه ابتسامة الانتصار واسعة .

— : يبدوا أنك قد عقلت أخيرا ..

— . . . .

— انت تعرف الصيغة .. اعطه ورقة وقلم .

— . . . .

ـ لماذا لا تكتب ٠٠ المسألة لا تحتاج الى تفكير ٠٠ بعد اقل من اسبوع ستنتقل الى القصر العيني لتعالج ٠٠ وغالبا سيتم الافراج هناك ٠

ـ حضرة الضابط ٠٠ انا لم اطلبك الى هنا لكي اكتب شيئا ٠٠ ولكني اريد ان ابلغك انني اطالب بترحيلي فورا الى معتقل الواحات واحملك مسئولية اى تأخير ٠

قلت هذه الكلمات وسكت فلقد أخذت الليل كله اختارها كلمة كلمة لكي لا ابدو منهارا ولكي لا تشير كلماتي بالاحساس الكامل بالضياع ٠٠ ولن انسى نظرة الضابط الملتهبة الغامضة وهو يخرج فى عصبية والدهشة التى ارتسمت على وجه وكيل السجن الذى كان يمنى نفسه بترقبه والذى استدرك نفسه وخرج مهرولا وراء ضابط المباحث ٠

وظللت وحدى فى غرفة وكيل السجن استعيد المنظر واستعيد من خلالة جزءا من الثقة التى افتقدتها ، ولكن ذلك لم يدم طويلا فلقد عاد الوكيل بوجهه مفكرا وهو يصرخ حسرة على الترقية ٠

ـ ايه اللى انت عملته ده ٠٠ هو شغل عيال ٠٠ اتفضل على الزنزانة ويكون فى علمك انك لن ترحل من هنا الى اى مكان اخر ٠٠ وهناك تعليمات جديدة بشأنك ٠٠ الكتب ممنوعة الجرائد ممنوعة ٠٠ الفسحة ساعة واحدة والزنزانة مقفولة طول الوقت ٠٠ اتفضل ٠٠ اتفضل ٠٠ اسحبه يا عسكرى ٠

وعدت الى الزنزانة التى اصبحت مغلقة طوال الوقت ، ولكن ذلك ليس هو المهم ٠٠ فلم اكن لاحفل بقائمة التهديدات والممنوعات التى حفل بها حديث وكيل السجن فلقد كفت هذه الاشياء الصغيرة من ان تصبح شيئا مغريا الى منذ فترة ٠ للكتب والجرائد والكانتين والفسحة ، كلها تحولت الى اشياء بلا معنى فى ظل احساس متزايد يستبد بكيانى من انه لابد وان يحدث شيء ، شيء حقيقى يغير الصورة كلها ٠٠ حقيقة لم اعد احتمل وجودى يوما واحدا فى سجن مصر ٠٠ ولكن كل الطرق الاخرى مغلقة ٠

وتذكرت الحسين بن على بعد ان فقد كل انصاره واهله ولم

يبق معه سوى حفنه من الاهل غالبتهم من النساء والاطفال ·
سدوا عليه كل الطرق ، حالوا بينه وبين المياه يروى عطشه ، وحالوا بينه وبين العودة الى مدينة جدة وحالوا بينه وبين المضى الى الكوفة ·· وحتى مقابلة الحاكم رفضوه اياها ·

وكان الرد قاسي : والله لا نتركك حتى تبايع ليزيد أو نجتز رأسك ·· لقد كان الحسين أكثر حظا ، كان معه سيف على الاقل ·· ولكن اين سيفي ·· ان جسدى كله ينهد واتكور كجرز كبير فى ركن من الزنزانة ·· اليس من حل ! ·· أدرك ، أدرك تماما اننى اصبحت ضعيفا واننى يمكن ان انهار ·· ابايع بطريقتهم الخاصة ·· ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا ، كيف امسك الورقة والقلم ·· ماذا اكتب ·· مستحيل اريد ان اظل لاخر لحظة انسانا حقيقيا وليس دمية مستهلكة ·· لقد آمنت بعظمة الانسان بحريته بقدراته وطاقاته ·· يا الهى ·· يا كل الالهة ، يا كل رموز الخير ·· أليس من حل ·

يا حسين بن على ، يافوتشيك يا ناظم يا كل من دافع عن الانسان والحياة يا كل من دافع عن قيم الحرية والعدالة ·

اننى فى حاجة اليكم ·· ماذا افعل ·· ؟

ودوامات عاصفة وتمزق كامل وعجز حتى عن الحركة ·· ماذا جرى ··· اين اشراقة الامل التى كنت دائما أتعلق بها اين البحار التى لم أعبرها بعد ، اين تلك الايام الجميلة التى لم اعشها بعد اين تلك الاحلام التى لم احققها بعد ·· اين يا ناظم ؟ ·· كم انا فى حاجة اليك ··

موجات سوداء قاتلة والخوف ·· الخوف ان تتحول الى لا انسان كل شىء ممكن الا ان نتحول الى لا انسان ·

واذا كان ولا مفر ·

وتناولت حبة نوفالجين ، واسترعى انتباهى وجود كميات كبيرة من النوفالجين واللومنيال فلقد كنت احرص على أن تتوفر لى اكبر كمية من المسكنات والمنومات فى الفترة الماضية ·

ولمعت الفكرة فى العقل المكدود ·· ايمكن ان يكون هذا · ولم لا ·· ليس هنلك من سيف تدافع به عن انسانيتك

سوى ·· ولكنه هروب من الحيـاة ، ولم لا يكون دفاعا عـن الحياة ··· ولكنه احساس بالعجز والضعف ·· نعم ولكنه ايضـا انهاء للعجز والضعف قبـل ان يصـل بك الى حظيرة الحيوانات ·

ماذا يقول الزملاء خاف وانهار ·· بل سـيقولون خاف أن ينهار ·

لقد استشهد الحسين ، بل انه قد انتحر في واقـع الامر حين جرد سيفه وحيدا في مواجهة جيش بالالاف وقد رفض ان يبايع ·

وأعدم فوتشيك وقـد رفض ان يبيع انسانيته ·· الامر لا يختلف ·· بـل الامر يختلف ·· الموت يمكن ان يـكون دفاعا عن الحياة ·

ولـكن الانتحار هروب ·· في بعض الاحيـان يمكن ان يكون شجاعة ·· هروب ، شجاعة ، خوف ، ثقة ·· كل هذه الكلمات المتناقضة تتداخل ·· ولكن لابد من قرار في النهاية قبل ان افقد القدرة تماما على اتخاذ القرار ·· ان يوما آخر قد يعقد المشكلة فقد يصل الخوف الى القلب ولحظتها لا يمكن التحكم ·

لابد من قرار ·

أكثر من أربع وعشرين ساعة وسط تلك الدوامة الكاسحة وفي الساعة العاشرة مـن مساء ٢١ نوفمبر اى نفس الليـلة والساعة التى ولدت فيها منذ ٢٦ عاما ·· استطعت ان اتخذ القرار ··

واحسست بارتياح من نوع غريب ·· ارتياح من استطاع ان يقول كلمة مفيدة في النهاية حتى ولو كانت تعنى الموت ·

وجلست في هـدوء وصـفاء ذهنى نادرين اكتب ثلاث خطابات ·· كتبت الاول الى ابى العزيز ·· وكتبت الثانى الى رفاقى العظام ·· وكتبت الثالث الى حسن المصيلحى · استعدت مع ابى في الخطاب ذكريات حلوة معه وقلت له في النهاية ·· لقد كنت دائما تقول : ان الرجل هو الذكرى ، واعتقد انك لن تفقد ابنا اخر فلقد تركت شيئا اعتقد انك يمكن ان تفخر به ·

وكتبت الى الرفاق اشرح الموقف باختصار وابرر موقفى موقفى وقرارى . بأنه ليس هروبا من الحياه بل دفاعا عنها .
أن المصيلحى فقد كتبت له عدة اسطر لازلت اذكرها بالحرف الواحد .

«خابت امانيك ومخططاتك اللاانسانية .. ولعلك تدرك الان من منا يستطيع أن ينتصر .. الانسان بعقله وقلبه أم الوحش بمخالبة .. فلقد انتصرت عليك حتى بالموت .. وجلست على السرير ، ادخن آخر سيجارة .. واتأمل جدار الزنزانة الداكن وارى ابى يخلع نظارته بهدوء ويمسح دمعه ونبيل ذكى بملابس الواحات يمد يده والمصيلحى يصرخ وامين زايد يمسك بسيخ محمى بالنار واختى تضع يدها على خدها فى استسلام .. وتتراقص وتتداخل صورهم بل وأحيانا أصواتهم وكأننى أشاهد احد افلام الموضة الجديدة .
فأفقت على الترانيم التى تسبق اذان الفجر من المسجد المجاور ، وتناولت انبوبة النوفالجين واخذت عشرة حبات اذبتها فى قدر قليل من الماء وشربتها .. واحسست بحصه فى الحلق فتناولت قدرا اخر من المياه ثم جلست على السرير مرة اخرى ارقب فى انتباه غريب أى تأثيرات سريعة يمكن ان أحس بها ومضت عدة دقائق لم احس فيها بشىء وبدأت المرحلة الثانية اخذت عشر حبات لومينال تناولتها خمسة خمسة مع كوب من الماء .. ثم القيت الكوب فى جردل البول .
اذن فقد انتهى كل شىء ولم يعد هناك فرصة للتراجع .. ومن قال انى فكرت فى التراجع .. وحاولت ان امشى قليلا فى الزنزانة ولكننى بدأت احس بدوار يلف رأسى تماما مثلما كنت أحس وانا صغير بعد لعبة « دوخينى يا ليمونه » وزاد الدوار وبدأ السقف يميل ويهتز وكذلك الجدران واسرعت ارقد على السرير واغمض عينى .. ولكن الدوار يزداد وعرق بارد غزير ينساب فى وقت حرج حبات منه الى شفتى واحس بطعم غريب .. كانت لدى رغبة جارفة فى ان أظل واعيا مدركا حتى اخر لحظة .. كنت اريد ان اسجل اللحظة الاخيرة .

ولكن رأسى تدور وجسدى يطير فى الهواء ، ما زلت ادرك انني فى الزنزانة .. اين .. لا أعرف .. هــذا سرير .. وهذا جردل البول .. كل شيء واضــح رغم هالة الغيم .. وماذا .. كل وماذا .. هــذه يدى .. وتلــك اصابعى .. خمسة .. للاتكلم .. ما هذا .. ستائر كثيفة الغيم تلف كل شيء .. بحر عميق .. خيالات .. شيء ينقص بقسوه . امعائى .. اين رأسى .. تلك الموجه العاليه .. انها تقترب تغمرنى .. عبثا احاول .. اين .. من .. لا ..

وضاع الزمان والمكان .

- ٢٦ -

انا متهم وقضائى ذئبان
الليل أنا لا أملك حتى صمتى
فبعض الصمت يدوى فى ارجاء
الارض ويعلن موقف صاحبه
برضاه المذعن أو بالرفض .

عبد الرحمن الشرقاوى —
الحسين ثائرا .

٢٢ نوفمبر ١٩٦٢ .

لحظات غريبة نادرة هى تلك التى تفتح فيها عينيك ولا تعرف اذا كان ما تراه حقيقة او خيال .. انها لحظات بلا منطق بلا توازن بلا مقياس ، لحظة تبدأ فيها طفلا رضيعا يرى ولا يعرف يسمع ولا يدرك ، وتنمو اللحظة فى دقائق يصل فيهاالطفل الى سن التمييز والنضج والادراك .

وعاد الزمان والمكان .. وبدات اعى ما حولى .

وظللت اتفرس بنظرات طويلة فى الوجوه المطلة حولى ، اتنقل من وجه لاخر وكانني امر على صفحات بيضاء ليس فيها كلمة واحدة ، ثم أتذكر فجأة فأعود الى الوجه الذى تركته .. هذا طبيب السجن وهذا مدير السجن وهذا ، آه انه ضابط المباحث .. ولكن هذا الوجه جديد تماما . فلأتذكر لا .. بالتأكيد انه جديد .

واترك الوجوه التى تطل على وتنظر فيما بينها واجول فى المكان حولى .. صفين من الأسرة ، بعضها مشغول والبعض الاخر خال .. والسقف عال على غير العادة .. ثم ان هناك شبابيك .. نعم شبابيك وليست فتحات .. بالتأكيد اننى لست فى الزنزانة .. أين أكون .. وماذا حدث .. صمت غريب .. لا أسمع .. ووقر شديد فى الاذن وسمعت صوتا

خافتنا قادما ·· من بعيد ·

ـ لقد انتظم النبض وبدأ يفيق ·

والوجوه الملتفه حول السرير تتقارب ·· يبدو أن بينهم حديث ·· ولكنى لا اسمع شيئا ·· ماذا جرى ·· وحاولت ان اقوم واجلس على السرير ولكنى احسست برأسى ثقيلة كما لو كانت كتله من الحديد ·· حتى يدى التى رفعتهاسرعان ما هوت الى جانبى فى وهن شديد ·· واسرعت اكثر من يد تسندنى واقترب طبيب السجن من اذنى وقال شيئا ·· ولم اسمع سوى موجات خافتة كانما تاتى من بئر عميق ·

قلت : لا اسمع شيئا ·

سمعت صوتى جيدا ، ولكن بطريقة غريبة ، لقد احسست ان الكلام يخرج من بطنى وليس من فمى ·· وقام الطبيب ببعض الحركات والاشارات وعرفت انه يطلب منى ان استريح تماما ثم ناولنى كوبا من اللبن الساخن · احضره التمورجى ·· ومتنعت البدايه ثم بدأت ارتشف بعض القطرات على مضض واحسست بأن حلقى ملتهب ومشروخ ، واخذ الطبيب يحثنى على استكمال الشرب ويشجعنى بحركات يده ·· ورغم مرارة الحلق والشعور بالتقزز الشديد من طعم اللبن الا اننى واصلت الشرب فلقد كنت احس بجفاف شديد فى عروقى ·

وبدأت أدرك اكثر ·

كان الانعكاس الاصفر الباهت على الشباك المجاور يوحى بان الشمس على وشك المغيب ، وحامل الجلوكوز والخرطوم الصغير الممتد يؤكد اننى كنت وطوال فترة تحت العلاج المستمر ·

واقترب الطبيب مرة اخرى وسمعت صوته هذه المره ولكن بصعوبة شديدة ·

ـ انت احسن دلوقتى ·· انقذناك باعجوبة ·

وحاولت ان انظف أذنى ·

ـ لا معلهش ·· ستظل اذنك ثقيلة لفترة ·

واقترب مدير السجن وقال شيئا ·· كما قال ضابط

المباحث شيئا اخر ولكنى اشحت بوجهى عنه ، وهـذا الوجه الاخر الجـديد قال بعض الكلمات ٠٠ لم استطع ان اسـمعها جيدا ولكن فهمت من طبيب السجن انهم سيتركوننى لفترة ٠

وبدأت أستعيد حواسى شيئا فشيئا ، كانت رائحة الادوية أول ممارسة لحاسة الشم ٠٠ بل وسـمت ضربات حـذاء التمورجى وهو يتحرك وانتقلت من مرحلة التعرف الى مرحلة الادراك ٠ وبدأت اعى الموقف ٠٠ وأتذكر تفاصيل ما حـدث فى الزنزانة ، النوفالجين ، واللومينال والخطابات الثلاثة ٠٠ وبدأ التمورجى يكمل لى الحلقة المفقودة منذ فجر اليـوم حتى مسائه ٠٠

لقد أكتشـف شـاويش العنبر وهو يفتح زنزانتى فى الصـباح اننى لا أتحـرك من السرير وحينما اقترب منى ليهزنى فوجىء بأن جسدى بارد ويدى تقع الى جانبى فصرخ الرجل ٠٠ واتقلب السجن كله ٠

وجاء الى زنزانتى مأمور السجن والوكيل وكل الضـباط وكل المظاهر حولهم تؤكد اننى فارقت الحياة ، ولكن الطبيب اكتشفت انه مازال هناك نبضا خافتا للغاية فنقلنى فورا الى مستشفى السجن واجرى غسيل معدة مرتين مـع ملاحقتى بالجلوكوز وأدوية اخرى طلبها من خارج السجن ٠ وعرفت مـن التمورجى ايضا ان الدكتور كمال طبيب السـجن كان متوترا للغـاية وكاد يفقد اعصابه اكثر من مرة مـع ادارة السجن ومع ضابط المباحث الذى حضر بعد الحادث بقليـل وانه كان يحملهم المسئولية طوال الوقت ٠

وعرفت ايضا انه منذ السابعة صباحا لم يتركنى طبيب السجن لحظة وانه اصر عـلى ان يشرف بنفسه عـلى عمليـة الانعاش التى اعقبت عملية الغسـيل والانقاذ وكذلك مـدير السجن ٠

كما ابدى التمورجى دهشـة البـالغة ليس فقط لاهتمام طبيب السجن والمدير بل وايضـا والتليفونات الكثيرة التى تتوالى كل خمس دقائق تقريبا مـن جهـات رسـمية كثيرة تستفسر عن حالتى وقال الرجل الطيب وهـو يناولنى كوبا دافئا من عصير الليمون ٠

ـــ انت حاجة من اثنين .. يامهم قوى .. يا خطير قوى.

ولم آكن فى حالة تسمح بالرد على التمورجي فقد كان ذهني يشتغل مرة اخرى بالاحداث والصور ٠٠ كان يغمرني احساس مبهم بالسعادة لانني عدت للحياة مرة اخرى بل واحسست للحظات بمعنى ان يولد الانسان من جديد ، ولكن موجة عاتية ومكثفة تحمل كل معاناة الشهور الماضية تجتاح هذا الاحساس فتكاد تقتله وكان السؤال يغمرني بالكآبة والضيق ٠٠ وتسرى موجة باردة في الجسد كله ٠

وجاء الدكتور كمال وحده هذه المرة ، وقاس النبض والضغط ، وأبتسم مطمئنا ولكنه اكد ضرورة الحرص على الراحة وعدم مغادرة السرير اطلاقا واخذ يعتب على فيما فعلته مبتسما ٠

ـ لقد كنت ذكيا للغاية ٠٠ اخترت توقيتا جيدا ٠

ولم افهم ماذا يعنى الدكتور كمال وحاولت أن استفسر منه ولكنه قال ضاحكا ٠

ـ عقلك الباطن كان يعرف ماذا يفعل ٠٠ لقد اخذت الجرعة القاتلة قبل فتح الزنزانة بساعة : فقط ونصف ساعة اخرى قبل ذلك كانت كفيلة بالقضاء عليك ٠

وحاولت ان ارد فوضع يده غلى فمي ٠

ـ المهم ترتاح ٠٠ حققت غرضك وقلبت الدنيا كلها ٠

سأتركك الآن لارتاح انا الآخر ٠٠ وهناك اخرون يريدونك ٠٠ وكن هادئا ولا تنفعل ٠٠ وحيا الدكتور كمال ومضى ٠٠ وودعته بنظرة حب وتقدير حقيقي ٠٠ لقد اسأت فهمه طو الالشهرين الماضيين حينا كنت أشكو له حالى واطلب منه التدخل فيمد شفته السفلى ويشير بيده عجزا عن عمل اى شيء ، وفى فتره كنت احسب انه يكمل دور ضابط المباحث ووكيل السجن .. كم هو رائع ان تكتشف انسانا وسط غابه كهذه ٠

وجاء ضابط المباحث وجاء معه الوجه الجديد ٠٠ ووراءه اخر يحمل شنطه ومعهم مأمور السجن ٠ وحاول ضابط المباحث ان يقول كلاما ودودا ومره اخرى اشحت بوجهي عنه

ونظرت الى الناحية الاخرى فلم اكن على استعداد لان اسمع منه شيئا اخر ‥ وتقدم الوجه الجديد ٠

ـ وكيل نيابة الخليفة ٠

وفتح الكاتب المحضر ٠

وبدأت الاسئلة ‥ اسمك ‥ سنك ‥ عملك ‥ تهمتك ‥

ـ اى تهمة ٠

ـ الجريمة التى دخلت من اجلها السجن ومدة الحكم ٠

ـ لا أعرف !

ـ لا تعرف ‥ ارجوك هذا محضر رسمى ٠

ـ حقيقة لا اعرف ‥ لست مسجونا ، ولم توجه لى أى تهمة ولم يصدر ضدى اى حكم ٠

ـ استاذ ‥ لا تضيع وقت النيابة ‥ ما هى مدة الحكم عليك ٠

ـ قلت لك أنه لم توجه لى اى تهمة حتى الآن انا معتقل منذ اربع سنوات ولم يجرى معى تحقيق ‥ وسيادتك اول مسئول قانونى التقى به طوال تلك الفترة ٠

ـ مش ممكن ‥ اربع سنوات بدون تحقيق ‥ لماذا لم يقولوا هذا ‥ واخذت اتأمل وجه الشاب وكيل النيابة ٠

كان فيما يبدو خريجا حديثا لم يمض عليه فى العمل وقت طويل ليكتسب خبرة ودرايه ببواطن الامور ٠

كانت ملامح وجهه البسيطة والمعبرة وانفعالاته البكر تشى بطالب مثالى ظل يجد طوال اربع سنوات ليحصل على درجة تؤهله لتحقيق طموحه فى ان يصبح وكيلا للنيابة ‥ وفى غمرة الدراسة والتفانى من أجل تحقيق الهدف لم يكن لديه الوقت لينظر حوله ، وليدرك ان القانون الذى تفوق فى دراسته يوضع على الرف ببساطه فى كثير من الاحوال ٠

والتفت وكيل النيابة الى مامور السجن يساله الحقيقة ٠

واكد المامور : هو معتقل وليس مسجون ‥٠

وصرخ الشاب البكر وقد احس بان مقدساته تنتهك ٠

ـ كيف ياحضرة المامور ‥ كيف يوجد فى سجنك انسان

لم يحقق معه ولم يصدر ضده اى حكم وليس على ذمة اية قضية ... كيف ... افتح محضر حالا مع السيد مأمور سجن مصر .

يا ابن البساطة والحقيقة لا تكن ساذجا الى هذا الحد ...
وتدخل ضابط المباحث ليحاول ان يشرح لوكيل النيابة الشاب الموقف .

ـ الاستاذ معتقل بقرار جمهوري وفقا لقوانين الطوارىء .
اما مهمة سيادتكم فهى التحقيق فى حادث الانتحار فقط .
ضربة اخرى اصابت مثاليات الشاب المنفعل والذى لم يكن قد جرب بعد فيما يبدو سلطة ضابط المباحث .. لقد تعلم فى الكلية انه السلطة الوحيدة القادرة على تكليف التهمة وتوجيهها وان اجراءات وتحقيقات ضابط البوليس لا تتعدى كونها مجرد محضر اثبات قد لا يكون بعيدا عن الشبهات .. فكيف بهذا الضابط يكلمة بصيغة الامر وفى لهجة من يملك ويحكم .

وثار وكيل النيابة الشاب . واصر على ان يفتح محضرا مع مامور السجن لوجود انسان غير متهم فى جريمة ولم يصدر ضده حكم فى سجنه .. وعبثا حاول المامور ان يشرح له الموقف ، وصمت ضابط المباحث بعد ان ادرك مدى الجدية والاصرار لدى وكيل النيابة .
وكان كل ما يهمنى فى تلك المعركة الساخرة هى الانفعالات الجديدة والحية التى تموج على وجه الوكيل الشاب .. انه نموذج اخر للدكتور احمد نائب القصر العينى ولآلاف من الشبان الذين ابتعدوا عن العمل فى السياسة واغرقوا أنفسهم فى دراستهم وتفوقوا فيها ، ثم يواجهون الحياة والتجربة ليدركوا ان هناك هوة واسعة بين مادرسوه وبين ما هو واقع بالفعل .. بل هى فى واقع الامر ماساة لجيل كامل من الشبان توهموا واوهموا بان الطالب للدراسة فقط وان السياسة شيء آخر ، وحينما تخرج طلاب الامس اكتشفوا ان دراسة الطب والهندسة والقانون والكيمياء لا يمكن أن تكون بمعزل عن واقع بلدهم وان عليهم مع الصدمات الاولى التى يواجهونها

ان يختاروا بين طريقين .. اما التكيف مع هذا الواقع الذى يلغى تخصصاتهم واحيانا انسانيتهم ويصبحون أدوات طيعة فى يد النظام الاشتراكى أو الاصطدام معه والبحث عن طريق ليكون العلم فى خدمة الانســـان .

قلت رافعــا صــوتى وفى محاولة لوقف المهزلة اللامعقولة التى تجرى .

ـ ياحضرة وكيل النيابة ، بدلا من اضاعة الوقت فى قضايا لا تملك ان تحسمها ولا السيد المأمور فانى ارجو من سيادتك اذا كنت متحمسا حقا لقضيتى ان تأمر اما بعلاجى فى احد المستشفيات الخاصة او بنقلى الى سجن الواحات .

ـ لا .. بل سأصدر امرى بالافراج عنك فورا .

ـ يا حضرة !

ولكن صوتى تاه مرة اخرى فى موجة من الانفعال والحماس اجتاحت وكيل النيابة الشاب وهو يتكلم عن القانون وضرورة سيادة القانون و ...... و ......

وخرج ضابط المباحث .. وتبعه مامور السجن ..

واندفع خلفهم وكيل النيابة الشاب وهو يصيح .

ـ مش ممكن أسكت على الانتهاك ده .. مسجون بدون تحقيق أو اقرار اتهام او حكم محكمة مش ممكن ..

وعاد الهدوء مرة اخرى بعد ان خرج الفرسان الثــلاثة ليواصلوا معركتهم فى حجرة المأمور .. معركة غريبة حقــا تشترك فيها اجهزة السلطة .. اى اجهزة ؟!

واذا قلنا ان وكيل النيابة الشاب يمثل السلطة التشريعية ومأمور السجن يمثل السلطة التنفيذية .. فاى سلطة يمثلها ضابط المباحث .. انه كل شيء .. انه الخصم والحكم والقانون والتنفيذ .. انه فرعون مصر ـ وامبراطور روما وقائد التتار وهتلر المانيا وسالازار البرتغال .

كنت اعرف بالطبع من سينتصر فى تلك المعركة واشفق فى نفس الوقت على الشاب الذى قدس القانون .

واحسست برأس ثقيلة وبجفون منهكة ..

وغبت فى نوم عميق .

- ٢٧ -

أترى أمنحه بيعه ذل ؟
بعدها آمن فى بيتى وأهلى ...
مثل شاة فى قطيع !!
عبد الرحمن الشرقاوى ـ الحسين ثائرا

ديسمبر ١٩٦٢ .

مربوط العينين ارقد على السرير والموسيقى تنبعث من الراديو المجاور وصمت مطبق فى الساعة الاولى للعام الجديد .

أكثر من عشرين يوما منذ أن أجريت العملية فى مستشفى الدمرداش ومطلوب منى ان اظل راقدا على ظهرى بلا اى حركة قدر الامكان .

فقط منذ ايام سمح لى الدكتور فاروق حسنى الاستاذ بطب الدمرداش بالحركة وبالذهاب الى دورة المياه .
ولكنها لم تكن أياما قاسية .

لقد اجريت العملية اخيرا بعد اكثر من ستة شهور من المعاناة والمعارك المتصلة .. بالرغم من المصيلحى وبالرغم من أمين زايد وبالرغم من كل الخطط القاسية التى وضعت باحكام وكانت كلها تهدف الى أن تكون عينى ثمنا لعقيدتى .

كان الاحساس بالانتصار يلون كل شىء ويملؤنى بالاحساس بالثقة والقدرة .. واكتشف من خلال تجربتى الاخيرة ان الذى يملك القدرة على التضحية بحياته ويتخذ القرار وينفذه ، يملك وبنفس الدرجة القدرة على أن يحب الحياة ويلونها بطاقة امل لا تنفذ ..

كان القرار بترحيلى الى مستشفى الدمرداش بعد اسبوع واحد من حادث الزنزانة هو بكل المعايير هزيمة لكل اعداء الحياة الانسانية والانسان ولكل اساليبهم التى مارسوها معى ..

وكان قرار الدكتور فاروق حسنى الاستاذ بطب عين شمس وزميلته المدرسة فى نفس الكلية فضحا وكشفا لما سبق أن ردده أمين زايد بأن حالتى ميئوس منها وبأنه لا مناص من الاستئصال ..

حقيقة نجحوا فى تعطيل ستة أشهر كان المرض خلالها قد استبد بالعين واجرى فيها وفى ابصارها أكبر قدر من التخريب .. وحقيقة ايضا فرضوا على معركة قاسية مريرة خضتها اعزل من أى سلاح سوى الايمان بالانسان .. وحقيقة أيضا مرت على فترات احسست فيها بالضعف والخوف والقلق ولكن لم استسلم ، وكان أقصى ما وصلت اليه هو ان تنتهى حياتى قبل ان تنتهى قدرتى على التمسك بانسانيتى .

وعدت اسرح مع لحن جميل جاء معبرا تماما عن اللحظة التى اعيشها فى تلك الساعات الاولى من العام الجديد .

كان اهتمام الدكتور فاروق حسنى بل وهيئة التدريس فى طب عين شمس بحالتى تعويضا انسانيا عن المآسى التى عانيتها على يد امين زايد الذى كاد يفقدنى الثقة فى الاطباء .

وبالرغم من ان الدكتور فاروق حسنى لم يعلق على ما سمعه منى عن الظروف التى مرت بى خلال الاشهر الماضية الا انه كان يؤكد دائما ان العملية لو اجريت قبل ذلك بعدة شهور لامكن انقاذ عينى تماما ... ولقد عرفت أن العملية التى أجريتها هى فقط لوقف المرض وتدهور الحالة أما ما فقدته من ابصار العين اليسرى فلم يعد من الممكن علاجه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليقلل من قيمة احساسى بالانتصار ، ولقد كان ذلك واضحا فى تصرفات الطرف الاخر ..

فمنذ ذلك اليوم الذى نقلت فيه الى مستشفى سجن مصر بين الحياة والموت لم أر ضابط المباحث ولا أى مبعوث

آخر منهم .. لقد عرفت بعد ذلك ان الخبر قد انتشر وذاع بين كل الاوساط المحلية والعربية والعالمية وخاصة بعد ان نشرت جريدة الاخبار بناء على مبادرة من أحد الصحفيين الشرفاء ـ الخبر في اليوم التالي للحادث ٠

بل واستطيع ان اقول ان تلك الحادثة نبهت المسئولين الى ما يجرى داخل المعتقلات في الوقت الذى كان هناك تفكير جدى فى الافراج ٠٠

وقد تأكد لى أن الاوامر الخاصة بنقلى الى مستشفى الدمرداش جاءت من الرئاسة ٠٠ وبعد اجراء العملية بيومين جاءنى أبي بخطاب رسمي وصله من الرئاسة فيه :

« نجلكم قد نقل الى مستشفى الدمرداش واجريت له عملية في عينه كما انه يحظى بالرعاية الطبية الكاملة ٠٠ مع تمنياتنا بالشفاء ٠٠ »

وكان الخطاب ممهورا بامضاء على صبرى رئيس المجلس التنفيذى في ج ٠ ع ٠ م ٠٠

والحقيقة ان الفترة التي قضيتها فى مستشفى الدمرداش كانت فترة سلام نفسى رائع ٠٠ ورغم أننى قضيت غالبية الفترة معصوب العينين الا أن قلبى كان ينبض بالحب والثقة والامل ٠

وجاء لزيارتي هذه المرة وفود من اهل القرية بل وبعض الاصدقاء الصحفيين والمثقفين ٠٠ وكانت احاديثهم الدائمة تنبض باحاسيس جديدة ٠٠ لم يكن هناك ذلك الخوف الكامل الذى كنت المسه حتى فى احاديث الاهل فى الزيارات السابقة ٠

واذكر ان شابا من قريتي من طلبة الجامعة جاء لزيارتى ومعه عدد اخر من زملائه الطلبة ، وطوال الحديث كنت احس بلهجة التقدير العالية التى يحدثوني بها وفى المرة الوحيدة التى حاولت ان اتدخل كان ذلك لحرصي عليهم ولخوفى من ان يمسهم اى ضرر ٠٠ ولكنهم مضوا فى حديثهم غير آبهين بالمخاطر التى ذكرتها ٠

انتم الرواد ٠٠ لقد تحملتم عنا الكثير ٠

ـ لابد أن تخرجوا فورا من المعتقلات .. لانقبل ان تبنى الاشتراكية بدون الاشتراكيين الحقيقيين .

وحينما كنت أختلى الى نفسى ولم يكن ذلك متاحا الا بعد منتصف الليل ، حين يتركنى الزوار .. كنت استعيد تلك الصور الجديدة لاتأكد ان هناك شيئا جديدا بالفعل يجرى فى المجتمع .

فى الزيارات السابقة كان الخوف والقلق يسيطر .. حتى كلمات ابى كان يختارها بعناية .. كان اقسى ماكنت اسمعه ويمزقنى كلمة كان يقولها ضابط المباحث ويكررها الحرس واحيانا يقولها ابى :

ـ لماذا لاتخرج .. ان احدا لا يحس بك .

لقد كانت كل المظاهر السابقة توحى بأن هذا صحيح ، ولقد كان احساسا قاتلا ينفذ كالسكين الحاد يعبث بكل المقدسات التى تحرص عليها وتضحى من أجلها .. لااحد يحس بك وانت الذى تتحمل كل هذه المعاناه من اجل هؤلاء الذين لايحسون بك .. ولكن هذه المرة اعادت كثيرا من الثقة بمغزى التضحية .. فقد يفرض الخوف ستارا من الصمت لفترة ، ولكن اى بذرة خيرة لابد ان تنبت فى النهاية بل ويمكن ان تزهر وتثمر .

لقد كان ما سمعته من الاهل والاصدقاء والمعارف والزوار واطباء المستشفى كفيلا بتجديد الثقة بالنفس وباهمية اعطاء المثل والقدوة .

وعادت الموسيقى تسحبنى بأنغامها الهادئة .

لعلها اول بداية لعام جديد منذ اربع سنوات تفتح امام القلب صفحات جديدة ناصعة بالحب .

واصوات العربات فى شارع رمسيس تمرح بعد منتصف الليل والاغانى المتقطعة التى تشدوا بها المجموعات السهرانة .

كنت اسمعها واعيشها باحساس من يشاهد ويسمع فيلما سينمائيا جيدا يستغرق فى احداثه لحظات او ساعات ولكنه سرعان ما يفيق ليدرك ان هذا العالم الملون المتحرك حوله ما زال بعيدا عنه تفصله اسوار عالية وصحراء ممتدة .

ولكنها كانت ليلة عيد ميلاد سعيد حقا .

ففي صباح ذلك اليوم امتلأ العنبر الصغير بمجموعة من اهل القرية جاءوا ومعهم سلال البرتقال والفطير المشلتت وعسل النحل واخذوا يوزعون على الممرضات والمرضى ويملأون العنبر بمرحهم واصواتهم العالية .

قال عم عبده ابو حجاج وقد جرب السجن في المظاهرات التي اجتاحت مصر في الثلاثينات في عصر الطاغية صدقي باشا .

ـ ولا يهمك يا استاذ .. السجن للرجالة ..

اما أنور شرف ابن خالي والفلاح الشاب فقد شغل نفسه بالحراس وراح يتقرب اليهم وينفحهم السجاير ومن حين لاخر يؤكد لهم ان من يحرسونه هو ابن عمته وكان ذلك مصدر فخر له .

بينما راح عمي ، وكان يعمل تاجرا للقطن ، يذكر اسماء عدد من زملائي في الواحات من ابناء قرى المركز ويعطيني بعض رسائل من ذويهم ثم يقول ضاحكا :

ـ ياه .. في كل بلد رحتها فيها واحد واللا اثنين .. انتو لكو شجره في كل بلد .

واختي وقد صحبت معها ابنة الجيران الطالبة في الجامعة وزوجتي بعد ذلك ، والتي لم اكن اعرفها حتى ذلك اليوم ثم وهي تهمس لاختي :

ـ عامل زي فيلم في بيتنا رجل ..

ثم اصرار الجميع على ان احكي كل شيء طوال السنوات الاربع الماضية وتعليقاتهم الساخرة احيانا وصمتهم الحزين احيانا اخرى .. وقد سمعوا من الشاعر الحديث معصوب العينين قصصا لم يقلها لهم شاعر القرية بربابته وبفرسانه العديدين .

كان يوما من ايام التعويض .. سيظل يذكره العاملون في مستشفى الدمرداش .

أما بالنسبة لي فلقد كانت بداية مشرقة لعام جديد .

وسمعت صوت الممرضة

ــ استاذ ... انت لسة صاحى .. تعبان واللاحاجة

وقلت واذا اسحب الغطاء وفي صوت بين النوم واليقظة

ــ لا أبدا .. بس بفكر امتى هقدر اشوفك .. صوتك بيقول انك حلوة قوى . قالت بمزج من المفاجأة والسخرية .

ــ بكره تشوفه لما الدكتور يشيل الرباط .. بس اوعى تتصدم ..

ولم يكن هناك شيء يمكن ان يصدمنى بعد ذلك .

عدت الى سجن مصر بعد شهر قضيته فى الدمرداش فى اعقاب العملية ، وكان تقدير الدكتور فاروق حسنى ان العملية نجحت تماما فى وقف المرض وان كنت ساحتاج الى الاشراف والرعاية لمدة شهور وكان ذلك يعنى ان اظل فى المستشفى تحت المراقبة والعلاج .

ولكن الذين اجبروا على ارسالى لمستشفى الدمرداش بعد كل ما حدث لم يكن ليوافقوا على ان ابقى شهورا فى المستشفى وسط الاهل والاصدقاء .. فبعد اسبوع من فك رباط العين نقلت الى مستشفى سجن مصر وفى طريق العودة حدث شيء لا اعرف اذا ما كان مخططا ام لا .

فعندما انطلق بنا البوكس من مستشفى الدمرداش فوجئت بأنه يعبر نفق العباسية فى اتجاه مصر الجديدة بدلا من الاتجاه جنوبا وقبل ان اسأل وجدت البوكس امام مبنى السجن الحربى وتوجست اول الامر وخاصة بعد السمعة السيئة للغاية التى اكتسبها هذا السجن واخذت امهد نفسى لمرحلة جديدة مـــن التعذيب البدنى .

ودخلنا البوابة وفوجئت بمنظر اخر .

عشرات من الزملاء الذين غادروا الواحات منذ عدة اشهر بعد ان « كتبوا المطلوب منهم » يمرحون داخل فناء السجن ... وكانت المفاجأة لوجودى بينهم لا تقل عن مفاجأتى بهـذا الامر وقال أحد الزملاء :

ــ : انت .. كنت آخر واحد نتوقع حضوره هنا .. واين

مقالاتك الملتهبة فى مجلة الطريق .

قلت فى حسم :

ـ انا لم أكتب شيئا ولن اكتب شيئا

ولكن غالبيتهم هزوا رؤوسهم غير مصدقين .

لقد كانت اخر المعلومات التى وصلتنا عن هؤلاء الزملاء « المستنكرين » منذ شهور انهم فى القلعة تمهيدا للافراج عنهم ، وعرفت منهم انهم كانوا فعلا على وشك الخروج ، ولكن اساتذة « غسيل المخ » الذين كانوا يعطوهم المحاضرات اليومية رأوا بعد امتحانهم أنهم لم يتكيفوا بعد وأنهم يحتاجوا الى « كورس جديد » لكى يكونوا أكثر استعدادا وتأهيلا لمساعدة الأجهزة بعد ذلك فجاءوا بهم الى الحربى .

واخذت اقلب وجوه الامر ومجيئى الى الحربى .. هل تصور الاغبياء اننى قد أصبحت على استعداد المجتارب ؟ أم انهم لعبة لتشويه مرقفى لدى الزملاء فى الواحات ..

لم تدم الحيرة طويلا .. فبعد اقل من ساعة جاء قائد الحربى ونادانى فى حوش السجن ثم قال :

ـ آسفين ، لقد جاءوا بك الى هنا عن طريق الخطا .

وجاء البوكس .. واتجهنا الى سجن مصر .

وادرك الزميل الذى قال ملاحظته حقيقة الموقف ، فحرص على ان يصحبنى حتى البوابة الخارجية وشد على يدى قائلا :

ـ احنا فى داهيه .. معلهش ، قدراتنا كده .. البركة فيكوا انتوا .. خليكوا جدعان .

انتوا الامل .

- ٣٨ -

أنتم نور العالم ، ولا حفاء
المدينة قائمة على رأس جبل
وما من سراج ليوضع تحت
المكيال لكنه يرفع على المنار
ليرى به جميع من فى الدار •
الدار •

- المسيح -

مارس - يوليو ١٩٦٣

كالطفل التائه العائد لاحضان امه ، كعامل الترحيلةالمغترب وقد لاحت قريته من بعيد ، كالحمل الوحيد الذى انفردت به الذئاب فى اعلى التل ثم فجاة ارعدت السماء وامطرت ووجد نفسه سالما فى النهاية فى الوادي •• كالحبيب الغائب الذى امضه الشوق والمت به النوائب فى الغربة ثم اقترب منأرض الحبيبة وشم رائحتها •• مثل او ليس وهو على اعتاب طيبة بعد حروب طروادة ومشاق العودة ينادى على بنيلوب ••

هكذا كانت مشاعرى وانا أقف على بوابة سجن الواحات •

آخذ الرفاق بالاحضان واجول بعينى فى المكان وكل مترفيه ينبض بذكريات حية ولاتاكد اننى مرة اخرى مع رفاق الامل فى واحة الحب •

غريب هذا الشعور الذى اجتاحنى منذ غادرت القاهرة فى طريق العودة الى الواحات بعد حوالى خمسة شهور من المعارك الفردية المتصلة •• فاعطى ظهرى للقاهرة باضوائها وبكل مافيها من مظاهر الحياةووجدانى كله معلق بحياة اخرى تفيض بالصدق وتحلم بالغد رغم الاسوار ورغم الصحراء المترامية الممتدة ••

وايقنت لحظتها اننى طوال تلك الشهور الخمسة ووسط دوامة المعاناه القاسية قد استطعت ان اتخلص من ادران النفاق

والمظاهر السطحية وانني باليقين سأظل أبحث عن الامـــل الحقيقي حتى ولو كان وسط صحراء قاحلة .

كان الرفاق يسالونني عن الاخبار وعن القاهرة التى خلفتها ورائى وكنت انا مشوقا لان اتلمسهم واســــمع اخبارهم واحاديثهم .. اى نشاط قاموا به في تلك الفترة ، وما هى اخبار المجلة والمسرح والمزرعة والاشياء الصغيرة التى خلفتها قبل ان اسافر ، والقصة التى لم تكتمل ومشروع دراســة القرية الذى خططت له .

كانوا قد عرفوا كل شىء بالتفصيل ولم اعد بحاجة لان احكى .. بل سمعت منهم تفصيلات لم اكن اعرفها .

عرفت انه في الوقت الذى كنت ادخل المعركة وحيدا فى سجن مصر كانوا هم في الواحات لايكفون عن تقديم مذكرات الاحتجاج والتهديد باتخاذ اجراءات عنيفة من اجل انقاذ عينى .

وعرفت انهم اقاموا احتفالا كبيرا ليلة ٢١ نوفمبر اى ليلة عيد ميلادى ورسم الفنان سعيد عارف صـــورة كبيرة لى علقت في طرقة العنبر وانهم قصدوا بتلك الحفلة مظاهرة أمام الادارة .

أكد الزملاء ايضا ان موقفى فى سجن مصر والضجـة التى اثيرت حوله في الداخل والخارج قد اوقفت نهائيـــا حملة التصفية وان الاوامر قــد صدرت من القيادة السياسية العليا للمباحث العامة بوقف اى عمليات من هذا النوع .

كان كل هــذا يعطيني المبررات الكافية لانسى لحظـــة الضعف القاسية التى قررت فيها التخلص من الحياة ، ان تلك اللحظة لم تات بكل هذه النتائج فحسب سواء انقاذ ما امكن انقاذه من عينى او انقاذ زملاء آخرين من التعـــرض لنفس الاسلوب ــ بل لعل أهم نتيجة استخلصها لنفسى هى اننى لن استطيع ان اكون كاذبا مع ذاتى حتى ولو كان الثمن هـــو الموت .. ولعل الآخرين قد استخلصوا نفس النتيجة .

وبعد حوالى اسبوع من المشاعر المتدفقة بينى وبين الزملاء كنت امر فيها كل ليلة على غرفة من الغرف احكى التجربة ونخرج بالاستخلاصات بدات امارس حياتى من جــديد مثلما كنت امارسها طوال السنوات الاربع الماضية، اعداد لمجلة الطريق

الاستماع الى عدد من الاذاعات العربية والاجنبية وتقـــديم التحليلات السياسية الخاصة بالوضع الداخلى والعالمى ثم الغرق فى القراءة ليلا ومحاولة استكمال بعض المشروعات والخطط الخاصة بالقصص او بالدراسات .

اما الموقف السياسى فقد كان محيرا حقا ..

فمنذ ميثاق العمـــــل الوطنى وقبله الاجراءات الاجتماعية الواسعة التى اتخذت وتم خلالها تاميم أكثر من ٨٠٪ من المرافق الصناعية والتجارية ، ثم مايعلن كل يوم من اجراءات أخـرى مع اللهجة الشديدة المعادية للامبريالية التى اتسمت بها الصحف واجهزة الاعلام ، كل ذلك كان يعمق من احساســـنا بالحيرة حقاً .

اننا نوافق على كل هذه الخطوات ، ولسنا فى حاجة حتى لأن نعلن ذلك .. فلماذا نظل فى المعتقل ؟ .

عامان مضيا منذ تلك الانعطافة الهامة فى السياسة الداخلية والخارجية ونحن مازلنا فى المعتقلات وكأن شيئا لم يحدث .

هل حقيقة لأن هناك صراع داخل السلطة بين عبد الناصر وعدد من قادة الثورة من ناحية وعدد آخر من ناحيـــة أخرى؟

ام ان الاجهزة ، وبالتحديد المباحث العامة ، طلبت تاخير الافراج عنا حتى لانخرج بشعور الابطال ؟

ام ان كل ما يتم ويعلن من اجراءات لايعدوان يكون تغييرا على السطح دون اجراء تغيير فى جوهر السلطة ؟

ان الصحف المصرية مليئة بالحديث عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والتحالف بين قوى الشعب العاملة وبالذات بين العمال والفلاحين بل وبالدور القيادى للطبقة العاملة .

وهى مليئة ايضا بالهجوم على القوى الاستعمارية والرجعية ليس فى المنطقة العربية وحدها بل وفى العالم كله .

ان ما كنا نكتبه فى جريدة المساء واعتبر فى ذلك الوقت انحرافا اقل بكثير مما يكتب اليوم فهل هى قضية شخصية اذن ؟ .

هل يمكن ان يكون مصطفى امين وعلى اميس وصالح جودت

وغيرهم ممن كانوا يأخذون صف الملكية وصدقى ومحمد محمود من اعداء الحرية والديموقراطية قبل يوليو ١٩٥٢ هم أنفسهم الذين يدافعون عن الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العامل ويفضحون الاساليب الاستعمارية .. بينما نبقى نحن فى المعتقلات وشعاراتنا تتردد فى كل مكان ·

وعرفنا ان الكتاب الشرفاء فى الخارج كانوا يطرحون نفس القضية ويطالبون بسرعة الافراج عنا ·· عبدالرحمن الشرقاوى نجيب محفوظ والدكتور محمد انيس ولطفى الخولى الذى كان قد أفرج عنه منذ سنوات ·

كانت تصلنا من بعضهم رسائل شخصية توحى بقرب الافراج ·· ولكن احدا لم يستطع ان يفسر لنا تماما الحقيقة وراء كل هذا التاخير ، انه ليس فى صالح احد ، فلا يمكن أن تكون فى معركة شرسة مع الاستعمار والرجعية وأعدى اعداء الاستعمار والرجعية ما زالوا فى السجون والمعتقلات ·

وجاء الصيف بحدثين هامين ·

اولهما : محادثات الوحدة التى جرت بين قيادة حزب البعث التى وصلت الى السلطة فى كل من سوريا والعراق وبين القيادة المصرية ·

جرت المحادثات لعدة شهور ثم اعلن فجأة عن توقفها وفشلها ·· وبعد ذلك بقليل بدأت الاذاعة المصرية تذيع محاضر المحادثات ·· ولقد كشفت المحادثات عن بعض الجوانب الخفية التى كنا نجهلها ·· كان من المعروف أن هناك التقاء جذرى فى منطلقات البعث والفكر الناصرى الجديد كما عبر عنه الميثاق ·· فكلاهما يعبر عن اتجاه وطنى تقدمى فى حركة التحرر العربى، وكلاهما يعبر عن امانى البورجوازية الصغيرة فى بناء مجتمع مستقل تتوفر فيه بعض ملامح العدالة الاجتماعية ··

والغريب أن كلا من عبد الناصر وميشيل عفلق كانا يستخدمان فى تلك المحادثات التعبيرات الماركسية بل ويرجعون الى نصوص من لينين وستالين وماوتسى تونج ·

ولكنهم اختلفوا رغم كل هذه الالتقاءات الموضوعية ، بل

وبدأت اجهزة الاعلام فى البلدين تتبادل الشتائم والهجوم مرة أخرى .

لقد كشفت لى تلك المحادثات عن حقيقة هامة ولعلها فسرت الكثير من الموقف المحير الذى كنا نتساءل حوله .

أن افتقاد الحركة الجماهيرية الواسعة فى العالم العربى جعل القيادات الوطنية حتى وهى تتطور وتنضج ، يتم ذلك بطرق علوية وذاتية دون وجود روابط وثيقة ودون اشراك جماهيرى واسع .. والنتيجة أن تظل هناك هوة واسعة بين الاقوال والانفعال من ناحية ، وايضا ان يظل الخلاف والانفاق مرتبطا الى حد كبير بالزعامات الفردية وليس بالالتقاء الموضوعى .

ولقد كان ذلك فيما أعتقد هو السبب الرئيسى فى تأجيل الافراج عنا وفى الخلافات التى نشبت بين البعث والقيادة الناصرية .

أن كل المعايير الموضوعية كانت تؤكد أن البعثيين والناصريين والماركسيين يقفون فى ذلك الوقت على ارضية مشتركة بغض النظر عن بعض الخلافات الفكرية والتفصيلية .

ولكن الصورة الواقعية كانت عكس ذلك تماما .

الناصريون يهاجمون البعثيين بشراسة والبعثيون يردون الاتهامات بنفس العنف .. والماركسيون غائبون فى اعماق سجون الواحات والمزة وبغداد .

فى الوقت الذى كان فيه الاستعمار الامريكى متعاونا مع الرجعية العربية يعمل بكل طاقة وجهد على استنزاف طاقات الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن .

والحلف المركزى يواصل مؤامراته على سوريا والعراق بتفجير مشكلة الاكراد والمساندة الايرانية لهم وايضا بمحاولة أنشاء دولة عميلة للبريطانيين فى عدن والقضاء على الشخصية العربية لامارات الخليج .

أما الحدث الثانى فقد تمثل فى الافراج عن الزميلات المعتقلات فى سجن القناطر وكانوا حوالى ٣٥ زميلة .

ولقد كان للخبر دوى واسع بيننا ٠٠ فهذه أول مرة منذ أربع سنوات يتم فيها الافراج عن مجموعة كاملة وبذلك الشكل الواسع ودون أى شروط أوقيود ٠٠ وقد استخلصنا جميعا من ذلك أن الباب قد افتتح اخيرا وهو وان كان للسيدات فقط الا أنه لا يمكن أن يكون مجرد اجراء «شرقى» ، بالرغم أن مجموعة من الزملاء وعلى رأسها الزميل نور غنيم أو نور اعدام كما كنا نسميه قد سخروا من استخلاصنا وراحوا يبررون الافراج عن المعتقلات بأنه شيء خاص بمجتمع الحريم ٠٠ وحيث أن هذه أول مرة تعتقل فيها سيدات فانه لامر طبيعى ان يفرج عنهن بعد اربع سنوات ٠

وكانت هذه المجموعة الصغيرة لاترى أى أمل فى الافراج فى القريب .. كذلك فلقد كان للافراج عن الزميلات مغزى خاص لدى الكثيرين من الازواج والاخوة ٠

فمن بين حوالى ٤٠ معتقلة كان هناك حوالى العشرين منهن زوجات أو شقيقات أو قريبات للزملاء المعتقلين .

فهناك اسماء حليم زوجة اسعد حليم ، وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى ، وثريا ادهم زوجة حلمى ياسين ، وثريا ابراهيم زوجة الدكتور مختار السيد، وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى، وسماد بطرس زوجة شكرى عازر وشقيقة سعد بطرس ، وسميرة الصاوى زوجة أحمد طه ، وانتصار خطاب زوجة صلاح خطاب وزينات الضباغ زوجة اسماعيل المهداوى وليلى شعيب خطيبة رجاء طنطاوى وانجى افلاطون خطيبة الدكتور فوزى منصور ٠٠ ونوال الحملاوى زوجة عبد السلام مبارك ٠٠ وليلى عبد الحكيم شقيقة طاهر عبد الحكيم وعايدة بدر شقيقة أحمد بدر ٠

وكم كان احمد طه سعيدا للافراج عن زوجته بعد ان اطمان الى أن ابنه عبد القادر الذى تركوه ولديه من العمر بضع سنوات لدى الجيران ، كذلك فوزى حبشى واسعد حليم الذى ولد ابنه فى السجن وقضى عاما مع امه فى زنازين القناطر ٠٠

وليلتها سهرت مع أحمد طه وقد كان سعيدا حقا وهو يحكي عن عبد القادر الصغير الذى حرم من الوالد والام فى ليلـــة سوداء ·· ثم يسرح بفكره الى شبرا ويتصور لقاء عبد القادر مع امه بعد غيبه طويلة وبعد ان اصبح شابا فى الثالثة عشر من عمره ·· ثم بين الحين والاخر يؤكد :

ـ لقد انكسرت الحلقة ·· ســـــنخرج كلنا بالتاكيد ·· قريبا ·

- ٢٩ -

وكان بحـرا يندفع ، فوق
الزمان وترتفع ..
ايديهم العليا فى ســـاحة
الدنيا ، ويكذبون الموت .

بابلونيرودا

يناير ١٩٦٤ :

ايام خطرة بل ربما كانت اخطر ايام الاعتقال على الاطلاق.. نلتف حوله فى صالة القسم الخارجى فى المساء وهو يحكى لنا عن تجربة اعتقال سابقة له فى أوائل الخمسينات .

واتذكر هذه الكلمات للزميل الذى فقد حياته هذه المرة دون ان يجرب وللمرة الثانية تلك الايام الخطرة .. أيام يكون فيها الافراج على كل لسان وتشير كل الدلائل اليه بالمنطق البسيط ولكنك مازلت فى المعتقل .. وأعود الى وصف جميل .. انها أيام تفقد فيها التوزان ، فالشعور بالاستقرار الذى اكتسبته طوال ٥ سنوات فى المعتقل يتحطم ويحل محله شعور جديـد يتعلق بالامل الذى لاح فوق الشجرة .

ومن هنا تاتى خطورة تلك الايام حين تظل عينيك معلقة على العصفور فوق الشجرة وتتحول مشاعرك الى حرص وخـــوف وقلق على مصير ذلك العصفور ، فقد يطير وقد تقتله رصاصة رش من يد صبى .. وقد تنقض عليه حدأة كاسرة تســـكت اغانيه الصغيرة قبل أن يتحول الى واقع حى ..

وتتعقد المشكلة وتدخل فى دائرة اكثر تعقيدا حينما تتحول هذه الايام الى شهور بل والى حوالى العام..

هكذا قضينا الصيف والخريف من ذلك العام ، صـــوت العصفور على الشجرة يغنى بالافراج .. ويزداد سماعنا لتلك

الاغانى يوما بعد آخر .. ولكن عواصف الخريف بكل ماتخلطه من أوراق وتثيره من رمال تنقضى ويدخل الشتاء وتضطرف المساء لان نتدثر بأكبر قدر من البطاطين ، فشتاء الصحراء قاس بقدر قسوة صيفه .

اصبح الافراج على كل لسان بعد ان اصبحت كل المعايير والمقاييس الموضوعية للسياسة الخارجية والداخلية المعلنة تؤكد أن الشاذ الغريب هو بقاؤنا في المعتقلات..

وأيريك رولو الصحفى الفرنسي المشهور والمسئول عن قضايا الشرق الاوسط فى جريدة ليموند الفرنسية ، وهو بالمناسبة مصرى بالمولد والنشأة ، يأتى الى مصر ويلتقى بالرئيس عبد الناصر ويجرى حديثا هاما وخطيرا حول الاوضاع الداخلية والخارجية وتصورات عبد الناصر عن المعركة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية .

ويسأل رولو فى آخر الحديث عن « المعتقلين الشيوعيين » فى الواحات :

ويجيب عبد الناصر بوضوح هذه المرة .. أننا بصدد تصفية المعتقلات وفى القريب ..

وربما كان ذلك أول اعتراف رسمي منذ سنوات بوجود معتقلين .. قبل ذلك بعدة شهور وفى مؤتمر صحفى عالمى قال الرئيس عبد الناصر أنه ليس هناك في مصر معتقلات.. !! وفسرنا هذا الحديث يومها بانه دليل جديد على قرب الافراج رغم تجاهل وجود اكثر من ٦٠٠ معتقل فى ذلك الوقت غير حوالى مائتى مسجون سياسى .

ولكن القيادات السياسية في المعتقل كانت تعرف ومنذ فترة أن هذا التأخير ليس مجرد تناقضات داخل اجهزة الحكم .. ولكن وراءها سبب آخر .

وقد ظلت القيادات متكتمة على هذا السبب فى اضيق الحدود ..

بل لقد كانت هناك مراسلات طيلة الوقت بين القيادات السياسية داخل المعتقل وبين عبد الناصر والقيادات السياسية

فى الخارج ، وكان يقوم بدور الوساطة عناصر يسارية محترمة تؤمن بضرورة التلاحم بين الماركسيين والسياسة الناصرية الجديدة ‥ وكانت غالبية هذه العناصر اليسارية ممن لم يعتقلوا معنا اما نتيجة ارتباطات سابقة بتنظيم الضباط الاحرار أو لانهم ابتعدوا فى الخمسينات عن وجود أى علاقات تنظيمية مع الماركسيين ٠

ولم يكن احد يشك فى اخلاص هذه العناصر وهويتها التقدمية والوطنية ٠

باختصار كان المطلوب حل التنظيمات الماركسية قبل الخروج من المعتقل ٠

ولقد ظلت تلك المراسلات تدور فى تكتم شديد طوال اكثر من عام ٠

كانت الاتصالات تدور احيانا بصفة فردية واحيانا بصفة تنظيمية مع كل قيادات التنظيمات الموجودة أو بمعنى اصح التنظيمين الموجودين ٠

احدهما يقوده فؤاد مرسى وأبو سيف يوسف واسماعيل صبرى عبد الله ، والثانى يقوده ابراهيم عبد الحليم وزكى مراد ومحمد شطا ٠

كان موقف التنظيمين قد اقترب كثيرا من الناحية السياسية خلال عامى ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ٠

فكلاهما اعلن مساندته للميثاق وللاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى الخارج ٠

وكلاهما فى عدة بيانات صدرت اكد مساندته للتحولات الاقتصادية والتقدمية التى تجرى ٠

بل أن كلاهما اتفق على أن هناك ضربا لقطاعات من الرأسمالية ولكن الخلاف فى هذه القضية انحصر فى موقفين اساسيين ٠

موقف تنظيم الاغلبية وكان يرى ان التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تجرى ضربت فى الاساس الرأسمالية الكبيرة

فى الزراعة والصناعة والتجارة كما ضربت قطاعات من المتوسطة ذاتها وبذلك تفتح الطريق أمام بناء غير رأسمالى .

وموقف تنظيم الاقلية وقد كان يرى أن على رأس السلطة فى مصر (وبالتحديد قيادة عبد الناصر) مجموعة اشتراكية وان الاجراءات التى اتخذت هى ضرب لكل قطاعات الرأسمالية وتحول نحو البناء الاشتراكى .

على أن هناك مجموعة ثالثة كانت تتشكل داخل التنظيمين فى شكل معارضة سياسية ، وكانت افكار هذه المجموعة الثالثة التى لم يكن يربطها تنظيم واحد تتلخص فى ثلاث نقاط رئيسية :

* ان الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت ورغم طابعها الوطنى والتقدمى الا انها لا تلغى قوانين المجتمع الرأسمالى ، وضرب الراسمالية الكبيرة فى الصناعة والزراعة وخاصة تلك التى كانت تتخذ مواقف معادية من قيادة الثورة لايعنى ان هناك نمو غير رأسمالى وأن قوانين الاستغلال قد الغيت .

* ان التاميم فى حد ذاته ليس اجراءا اشتراكيا أو غير راسمالى ولكن العبرة بعلاقات الانتاج القائمة .. فالتاميم تلجأ اليه دول رأسمالية ودول اشتراكية ويظل الفرق بين الاثنين هو من المستفيد فى الواقع من التاميم !.. فاذا كانت علاقات الانتاج القائمة مازالت علاقات رأسمالية واذا لم يكن هناك ذلك القدر من الديموقراطية التى تتيح للطبقة العاملة قيادة وتوجيه الاستثمارات المؤممة ، واذا ظلت القيادات البيروقراطيةوالقديمة هى التى تقود هذه المؤسسات فان الامر لايعدو ان يكون تنظيما رأسماليا لدفع الانتاج والتصنيع ولمواجهة متطلبات العصر .. وبالتالى فان حركة التاميمات الواسعة التى تمت لا تعدو كونها رأسمالية دولة .

ويؤكدون آراءهم هذه بكثير من الامثلة فى تاريخ الحركة الثورية وخاصة بعد ثورة فبراير سنة ١٩١٧ واقدام حكومة كيرنسكى فى روسيا فى ذلك الوقت على تاميم عدد من

المؤسسات الاقتصادية وتعليق لينين عن ذلك بأنها « رأسمالية دولة وان العامل الروسى لن يستفيد كويكا واحدا .. » .

ويسوقون امثلة اخرى كثيرة من تأميمات تحدث وتتم فى مجتمعات راسمالية بل واحتكارية ..

★ النقطة الثالثة هى فيما يتعلق بالديمقراطية بأعتبارها من وجهة نظرهم هى حجر الاساس فى الحكم على كل ماحدث من تطورات .. فوجود ديموقراطية واسعة واعطاء الحق للطبقات الوطنية فى تشكيل تنظيماتها الجماهيرية والسياسية مع الغاء القوانين الاستثنائية والمحددة للحريات هى فقط الضمانة لدفع التطور الاجتماعى ولاعطاء الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت فاعلية حقيقة وعمقا يمكن بواسطتها اجراء تحولات جذرية فى علاقات الانتاج والتطور نحو مجتمع لا رأسمالى .

وفى اواخر عام ١٩٦٣ وفى مؤتمر علنى ، اعلن قادة تنظيم الاقلية حل نفسه تمشيا مع افكاره بضرورة الاندماج ووحدة العمل التنظيمى مع « القيادة الاشتراكية على راس السلطة » واعطى توجيهات لاعضائه فى الداخل والخارج بالانضمام الى الاتحاد الاشتركى باعتباره الوعاء السياسى الذى يمكن أن يتحول الى تنظيم ثورى قائد بزعامة عبد الناصر .

واثار هذا القرار ردود فعل واسعة داخل المعتقل .

فقد اعلن بعض الافراد من داخل هذا التنظيم ، وبينهم عناصر قيادية رفضهم لقرار الحل وان كانوا لم يقدموا بديلا تنظيميا ..

ولكن رد فعل القرار كان اكثر دويا بالنسبة للتنظيم الاخر (الاغلبية) .. فبالرغم من الاتصالات السرية التى كانت تجرى بين قيادة تنظيم (الاغلبية) وبين ممثل السلطة فى الخارج ، وبالرغم من أن هذه القيادة فى غالبيتها لم تكن ترفض بشكل حاسم فكرة الحل طالما تتوفر هناك ظروفا موضوعية لذلك الا انها تمسكت على الاقل بفكرة ان قرار الحل لايمكن أن يتخذ داخل المعتقل تحت تأثير العزلة والتهديد .

كان أقص ماوصلت اليه القيادة هو « الوعد » بعقد مؤتمر موسع بعد الافراج يناقش القضية .

وهكذا كانت الصورة فى الايام الاخيرة من عام ١٩٦٣ .

فريق اعلن بوضوح حل التنظيم والعمل تحت قيادة عبد الناصر ..

وفريق لم يرفض تماما فكرة الحل ولكنه رفض أن يكون ذلك ثمن الخروج وبالتالى أجل المناقشة التنظيمية .

ومجموعات كانت اصلا تنتمى الى الفريقين ، رفضت الحل وتمسكت بضرورة أن يظل هناك منبر مستقل للماركسيين وان هذا لايمنع الدخول فى تحالف او جبهة مع الاتحاد الاشتراكى باعتباره تنظيم السلطة الوطنية وأى تنظيمات أخرى ترفع شعارات وطنية ديمقراطية .

ولكن الجميع وقفوا فى ذلك اليوم من أيام ديسمبر فى صفوف مهيبة فى حوش المعتقل ونحن نودع جثمان رفيق عزيز لفظ انفاسه الاخيرة بعد كفاح استمر اكثر من ٧٥ عاما ظل فيها يحلم بمصر الاشتراكية ومصر الديمقراطية .
ووراء جثمان عم شعبان حافظ الذى لف فى علم مصر مشينا فى جنازة مشحونة تلف به حول عنابر السجن ويمشى معنا الحرس والضباط وبعض المسجونين من الاخوان المسلمين .. وقبل أن يضعوا الجثمان فى البوكس تمهيدا لترحيله الى أهله فى الاسكندرية اخذنا ننشد ـ بصوت حزين نشيد الوداع لذلك الرفيق البطل .

كان عم شعبان يمثل بالنسبة لنا جميعا تاريخا ثوريا ونضاليا .
فمنذ العشرينات وحياة شعبان حافظ سلسلة من النضال والتضحيات من أجل مصر ، من أجل المطحونين والمسحوقين ، من أجل العمال والفلاحين .. فقد شارك مع حسنى العرابى وسلامةموسى وعبدالله عنان والشيخ صفوان أبو الفتح والشيخ عبد اللطيف نجيب ـ من مدرسة القضاء الشرعى ـ وأنطون

مارون وغيرهم من أبناء مصر المخلصين أول تنظيم سياسى يتبنى الاشتراكية العلمية ويدعوالى الغاء الفوارق بين الطبقات والى مصادرة الملكيات الكبيرة وتوزيع الارض على الفلاحين وخلق مجتمع يعطى لكل حسب عمله ويأخذ من كل على حسب طاقته .

وظل ذلك الحلم يراود شعبان حافظ طوال اربعين عاما لم يكف فيها لحظة واحدة عن العمل من اجل تحقيقة .

ومنذ اصدرت محكمة جنايات الاسكندرية فى إكتوبر ١٩٢٤ حكمها على شعبان حافظ وزملائه بالسجن ، وهو يخرج ليناضل من أجل افكاره ويعود الى السجن مرة أخرى .

ولكن عم شعبان ، الوحيد الذى كان رمز الاتصال نضال الاجيال ، شاء هذه المرة ان يموت فى السجن مخلفا وراءه ٧٥ عاما من المعارك المتصلة من اجل عمال وفلاحى ومثقفى مصر . ومنذ اسبوع واحد فقط وكنت اجلس اليه كعادتى مثلما يجلس التلميذ الصغير اسمع من فمه الخالى من الاسنان صورا من تاريخ نضال شعبنا الحى .. وقد قال يومها فى ضحكة الشيخوخة البريئة :

ــ كل امنيتى فى الحياة ان أموت فى المعركة .. اما انتم فستشهدون انتصار الحلم .. وستعيشون الاشتراكية .

نفس الامنية التى جالت فى ذهن القائد الكبير خالد بن الوليد .. لقد كافح خالد وناضل بسيفه المسلول من أجل القيم الجديدة والانسانية التى بشر بها الدين الجديد .. وكم كان حزينا أن يموت على فراشه .

ولكن شعبان حافظ مات فى المعركة .. وبين أيدى ابنائه واحفاده .

وفى مساء نفس الليلة ، والمعتقل يخيم عليه رنة حزن عظيم ، فوجئت بهم يطلبونى فى الادارة لاجهز نفسى للسفر الى القاهرة وكنت قد نسيت تماما ان الدكتور فاروق حسنى فى مستشفى الدمرداش قد اصر على أن يتابع الكشف على عينى كل شهر ، ولما كان ذلك يعنى أن ابقى فى سجن مصر فلقد

طلبت منه أن يزودني بكل التعليمات والعـــلاج اللازم على أن اعرض عليه كل ستة شـهور .

وكانت اكثر من ستة شـــهور قد انقضت منذ أن اجريت العملية .

وسافرت ليلتها الى القاهرة .. ومعى الحرس .

ومعى أيضا جثمان الاب العظيم شعبان حافظ .

- ٣٠ -

فلتـــذكرونى بالنضـــال ..
فلتـــذكرونى عنـــدما تغـــدو
الحقيقة وحـدها حيرى حزينة .

فلتـــذكروا ثارى العظيم
لتاخـــذوه من الطغاة ، وبذاك
تنتصر الحياة .

عبد الرحمن الشرقاوى
الحسين شهيدا

٤ ابريل ١٩٦٤ :

أصبح الافراج أمرا مؤكدا .. ولكن متى ؟ .

اكثر من ثلاثة شهور وانا اعيش فى مستشفى سجن مصر .. وكل يوم اسمع انباء عن قرب الافراج .

فبعد ان انتهيت من الكشـــف مـــرة أخـــرى فى مستشفى الدمرداش والاطمئنان على حالة العين لم ارحل ثانيـــة الى الواحات .

وحرصت المباحث العامة على أن ترســـل هذه المرة احد ضباطها ليفسر لى الموقف خوفا من أى مضاعفات أخرى .

قال أن ابقائى فى سجن مصر هو فقط لان كشوف الافراج تعد ولم يعد هناك حاجة لترحيلى الى الواحات .

أبى واخوتى يحرصون على أن يرسلوا لى خطابات تؤكد أن الافراج وشيك ، بل وحضر أبى اكثر من مرة ووقف عند احدى التلال البعيدة التى تطل على مستشفى السجن واســـتجمع الرجل كل مالديه من صوت ، مثلما كان يفعل اهالى وزوجات

المسجونين ، ليبلغني أن صلاح نصر نفسه قد اكد الافراج عنا جميعا •

والصحف هي الاخرى توحى من خلال عرض الاحـــداث والاخبار بأن الافراج سيكون وشيكا •

فالانتخابات الجـــديدة لمجلس الامة قد تمت ، وهنـــاك تصريحات عن الغاء الاحكام العرفية وكل الاجراءات الاستثنائية المترتبة عليها •

والكل في انتظار خطـــاب عبد الناصر فى ٢٥ مارس فى افتتاح مجلس الامة ••

كل المؤشرات تنبيء بأن الابواب المغلقة على وشك أن تفتح •

حتى الدكتور كمال وضباط السجن بل والمسجونين انفسهم يعاملونني كضيف على وشك الرحيل •• وعم محمد الممرض العجوز يحجز معي موعدا للمرور على في المنزل لكي اكتب عن مشكلة ابنه في الجرائد !! ••

وتمر الايام ، واحاول جاهدا أن اخلق احساسا بالهـدوء والاستقرار الداخلى وسط كل تلك الدوامة التي توشـــك أن تقذفني مرة أخرى الى عالم آخر •• عالم يعيش بعيدا عـــن الاسوار والحرس والاوامر والقيد الحديدى ••

وكانت الظروف هي الاخرى قد تغيرت فى مستشفى السجن منذ تركتها فى العام الماضى •• معظم نزلاء المستشفى من طراز جديد •• غالبيتهم يشغلون مناصب كبيرة فى الخارج ودخلوا على ذمة قضايا جديدة بدأ معدلها يزداد فيما يبدو فى الايام الاخيرة •• قضايا تتعلق بالاختلاس أو سوء استخدام السلطة والتهريب •

كان هناك الدكتور السمنى وكيل وزارة الاصلاح الزراعى ومعه عدد من كبار موظفى الوزارة ••

وكان هناك رؤساء مجالس ادارات وباشوات سابقين وبعض الاجانب المتهمين بالتهريب •• وبحكم الزمالة فى المستشفى التى كانت عنبرا ممتدا يحتوى حوالى ثلاثين سريرا متجاورة وايضا لانى لم افقد طوال تلك السنوات حاســـة الصحفى الباحث عن الحقيقة فكونت علاقات بينى وبين غالبيتهم •

كان فيهم « البيك » المتحفظ الذى يصر على ان يعامل كل من فى المستشفى بما فيهم أنا ، بل وعلى رأسهم أنا ، كما لوكانوا من العاملين فى عزبته او قصره .

وكان فيهم الموظف الكبير الذى اتهم بالاختلاس واستغلال مركزه وهو بالطبع لايكف عن اتهام النظام كله بأنه أصبح « شيوعيا » ولم يعد فيه مجال للكفاءات الخاصة من امثاله ولذلك اتهموه بالاختلاس !! .

على أن اظرفهم واخفهم دما هو المليونير بسيونى جمعة .. لم يفقد حيويته ولم يكتف بانزال اللعنات على المجتمع « الذى لايقدر كفاءته » أو النظام الذى يغلق أبواب الرزق امام « الكفايات » .. بل كان فى حالة مرح متصل .. يلقى بالنكت والقفشات ويكون مجموعة السهرانين بالليل ليحكى عن مغامراته التجارية والنسائية بلهجة بسيطة وبلا تعقيد أو محاولة لاخفاء الحقائق .

كان يقول وهو يضحك من اعماقه :

ـ اعمل أيه .. أنا راجل شاطر .. امسك التراب يبقى ذهب زى الملك الرومانى القديم .. اظن كان اسمه ميداس .

وبسيونى جمعة شاطر حقا .. فى اعقاب الانفصال السورى صودرت ثروته وكانت اكثر من مليون .. وبدأ من الصفر وبعد سنتين صودرت ثروته مرة أخرى .. وكانت اكثر من مليونين هذه المرة .. ولكنه على يقين من أنه سيخرج يوم ما وسيتحول التراب مرة أخرى فى يده الى ذهب .

كيف ؟ .. ويضحك المليونير المصادر .

ـ ماهى دى بقى الشطارة .

ـ لكن كل شىء تقريبا اصبح مؤمما .

ـ ربنا يخلى الموظفين الكبار .. شوف فى بلدنا ابعد عن السياسة تكسب على طول الخط .

نصيحة يؤكدها دائما المليونير المصادر ثم يقول فى مزيج من السخرية والمرح :

ـ خمس سنين يا راجل علشان رأى .. اسمح لى دا غباء .

دا أنت لو خبط لك خبطة بمائة الف جنيه وانكشفت ديتها سنة واللا اثنين ... شوف بقى ضــاع منك كام ؟ في الخمس سنين .

منطق !!

يشبه من الناحية الاخرى منطق الشاويش متي في الواحات حيث لم يكن عقله يستطيع أن يهضم أن هؤلاء الذين يضربون كل يوم ويحملون الحجارة ويقضون زهرة شبابهم في المعتقلات منهم الطبيب والمهندس والكاتب والضابط والطالب والعامل وأن كل جريمتهم هي فكرة يحملونها في رؤسهم .

كان الشاويش متى يصيح .. عمرى ما شفت أغبى منكم !

وحـدث ..

في الساعة العاشرة من صباح يوم الاربعاء ٤ ابريل .. جاءنى عم محمد الممرض لاهثا وهو يحتضنى .

ـ استاذ .. ألف مبروك .. افراج .

كنت اعرف كل شيء .. بل وعرفت من أخوتي بالامس أن بعض الزملاء الذين أفرج عنهم من الواحات زارونى فى البيت على ظن منهم انه قد أفرج عنى .. واكدوا انهم افرجـــوا عن دفعات كثيرة من الواحات .

ورغم هذا فلقد كان لكلمات عم محمد وقع المفاجأة .

وتلفت وسط عنبر المستشفى في حالة تامة من انعدام الوزن .. وعقـلى تائه تماما لايعـرف فيم يفـكر .. والمرضى الاخرون يرددون كلمات التهانى ، وعم محمـد يلم حاجاتى بجوار السرير ويشدنى من يدى لانزل .. وعند البوابة تسلمت « الامانات » الحقيبة المهلهلة تضم ملابس وجنيهان ونصف متبقية من حساب كانتين السجن .

وحرص مأمور السجن والضباط على توديعى وكان الوكيل اكثرهم اطراءا لى واصرارا على أن نلتقى فى الخارج .

وخرجت من البوابة ومعى حارس واحد وبدون قيود .

والقيت نظرة طويلة على السجن من الخارج .

كثيرا ما خرجت من هذه البوابة فى الطريق الى القصر العينى

أو [illegible] في المرداش أو الواحات .. وكنت دائما أعود
ولكن هذه المرة .. خروج بلا عودة .

وانطلق بنا « الجيب » .. شارع محمد على ثم شـــارع بور سعيد فميدان السيدة .. واخيرا لاظوغلى .

ونزلنا امام مبنى المباحث العامة .

كنت هنا منذ خمس سنوات وسبع ايام .

المبنى لم يتغير .. والسلالم العريضة .. على تلك الدرجة انكفأ الدكتور لويس عوض .. منذ خمس سنوات وسبع أيام .

وسلمنى الحارس الى احدهم الذى قادنى الى أحدى الغرف .

ورأيت ضابط المباحث الذى كان يزورنى فى القصر العينى وفى سجن مصر :

ـ الف مبروك .

ـ شكرا ..

ـ .. أخبار عينك ايه ؟ ..

ـ أحسن ..

وقدم ورقا وقلما وهو يبتسم .

ـ تحب تكتب لنا بعض البيانات .

وهززت رأسى وأنا ايضا ابتسم .

واستوفى بياناته .. السن .. العمل .. العنوان .

ثم قام من مكتبه وصافحنى وهو يقول :

ـ آسف لكل ماحدث .. كنت أقوم بواجبى الوظيفى .

قلت له :

ـ وانا كنت أقوم بواجبى الوطنى .

وخرج معى الى باب الغرفة وأشار بيده .

ـ مع السلامة .

وتحرك قدمى بضع خطوات فى الردهة .. ثم وقفت اتلفت حولى .. لا أحد ورائى وتحركت خطوات أخرى .. لا أحـــد يرقبنى .. الكل مشغول بأعمال أخرى .. واجتزت الردهة وبدأت انزل السلم العريض .. وخيل لى أن احـــدا ينادينى والتفت .. لا احد ..

ونزلت الى الفناء ثم الى الباب الرئيسى ٠٠ وترام يمرق فى سرعة وضجة ٠٠ والشارع ملء بالعربات والناس ٠٠ ونظرت الى الحارسين اللذين يقفان عند البوابة كأنما استاذنهما ٠٠ ولم يلتفتا الى ٠٠ وخطوت على رصيف الشـــارع ٠٠ خطوة ، اثنين ٠٠ اربعة ٠٠ خمسة ٠

وتحولت الى قطرة تائهة فى بحر الحياة التى يمتلىء بهـا الشارع ٠٠ واسرعت اخترق الشارع الى الجهة الاخـــرى ٠٠ وكدت اصطدم بتاكسى ٠٠ وصاح السائق : ٠

ـــ بطلوا الهباب اللى بتخدوه .. فوقوا بقى !!

وابتسمت لوقاحة السائق ولما كان يمكن أن يحـدث لوان الرجل لم يستطع أن يتفاداني ٠٠ واخذت جانبا على الرصيف ووضعت الشنطة على الارض ٠

كنت فى حاجة لان اتأكد انه قد أفرج عنى حقا ٠٠ مبنى المباحث قد ابتعد .. ولا أحد خلفى . بل ولا أحد يهتم بى ٠٠ الشارع مزدحم على غير العادة بالناس والعربات ٠٠ واخرجت منديلا امسح بعض العرق ٠٠ وابتسمت طالبة صغيرة وهى تنظر الى وتشير لزميلتها ٠٠ واخـــذت افتش فى نفسى ٠٠ بالتاكيد هناك شىء ما اثار تلك الابتسامة ؛ ملابسى ، الجاكته طويلة اكثر من الجاكتات التى اراها ، ولكن هكذا كانت الامور منذ خمس سنوات ٠٠ والبدلة مكسرة ٠٠ كان لابد ان اكويها ٠٠ ولو ٠٠ ماذا قالت عنى الفتاة ٠٠ ربما قالت فلاح يأتى مصر لاول مرة ٠

وحملت الشنطة مرة أخرى وسرت فى اتجاه باب اللوق ٠

فكرت فى أن انادى تاكسى أو اركب اتوبيس أو ترام ٠٠ ولكنى لم استقر على شىء كانت قدماى تمضيان بلا تفكير وعيناى تجولان فى الشارع بلا هدف محدد ٠٠ واصطدمت بالمارة اكثر من مرة واعتذرت ٠٠ ولكن لم انادى تاكسى ٠٠ كنت اريد ان امشى ٠

وتوقفت مرة أخري امام محل لعصـــــير القصب وطلبت « شوب » ثم وقفت أتامل نفسى وملابسى فى مرآة المحل ٠٠

واعدت تصفيف شعرى وانفض الكثير من التراب وانبقع فى الجاكته .

ـ استاذ .. العصير .

واخذت « الشوب » .

قال الرجل .

ـ حضرتك كنت معتقل .

وامتقع وجهى لذكر الكلمة وقبل أن أقول شيئا قال الرجل .

ـ اصل كل زمايلك فاتوا من هنا .. كلهم شربوا عصير .

وابتسمت فى بلاهة وخرجت مسرعا وناديت تاكسى .

ـ شارع ٢٦ يوليو يا اسطى .

واخذت نفسا عميقا بعد أن تركنا الشـــارع واختفى مبنى المباحث العامة .. ودخل التاكسى فى شارع هدى شعراوى ثم ميدان التحرير فالكورنيش .. واخـــذت احملق فى مبنى التليفزيون العملاق .. تركته مجرد ارض واسعة ووابورات تدك الاساس .. وقال السائق اشياء لم اسمعها كانت كـــل حواسى تتركز فى عينى .. وكانت عينى تعيد اكتشـــــاف المرئيات .. الناس اكثر والشوارع ازحم والبنات احلى وخاصة فى « المينى جيب » .

ونزلت من التاكسى .. ووقفت امام العمارة .. لم ينقص حجرا واحدا حتى الشرخ فى زجاج البوابة لم يزداد .. ظل كما هو .. واسرعت الى الداخل وبدأت ارتقى الدرجات الاولى .

وشهدنى عم مدبولى من الخلف .

ـ نورت يا أستاذ .. ألف حمد الله على السلامة .

وخرج البواب من غرفته واحتضننى بعنف وهو ينادى على أختى .

وفتحت أبواب الشقق .. وانطلقت الزغاريد .. ووجـدت نفسى فى الدرجات الاولى وحولى جمهرة من الجيران ، وشقت أختى الجموع واخذتنى بين يديها .. ونزل ابى السلالم مهرولا وانكسرت نظارته .

وتحركنا درجة درجة حتى وصلنا الى الدور الثالث .

منذ خمس سنين وعدة ايام نزلت هذه الدرجات قفزا وهروبا من نشنجات اختى وبكاء سامح الصغير ..

ودخلت الشقة .. كانت مزدحمة واندفعت بغريزة مفاجأة الى غرفتى واسرعت اختى تفتحها .

ووقفت على اعتاب الغرفة أتأملها واعيد اكتشافها .

كل شيء فى مكانه .. والسرير والمراتب المقلوبة .. والكتب الملقاة فى كل مكان .. وبقايا السجاير .. وكتاب كنت اقرأه فى نفس الليلة .. فى مكانه ورائحة غريبة تملأ الغرفة .. وكدت أشم أنفاس الضابط ورجاله .. فى تلك الليلة الكئيبة منذ خمس سنوات .

قالت اختى :

ـ منذ تلك الليلة لم نفتحها .. لم اكن استطيع .

ثم أسرعت الى النافذة تفتحها ، وانهمكت فجاة فى ترتيب كل شيء بينما كانت الغرفة تموج بهواء جديد ..

فذلكة ختامية

من الناحية الفنية يعتبر الفصل الســـابق هو ختام تلك المرحلة أو تلك الملحمة ، أو تلك التراجيديا أو ســـمها كما شئت .

فبكل المعايير انتهى الحدث بالاسس المعترف بها فى البناء الدرامى .. بداية المشكلة ثم تعقدها ثم الوصول الى حل .
ولكن هذه المعايير تسقط تماما اذا كان العمل المقدم ليس بناء دراميا أو قصصيا ورغم ماحفل به من وقائع ترقى الى هذا المستوى — ولكنه أولا وأخيرا مرحلة تاريخية كاملة ، ولما كانت الوقائع التاريخية وخاصة اذا كان هناك التزام بسردها .. اكبر بكثير من مجرد اعتقال فرد أو مجموعة من الافراد والجماعات ثم الافراج عنها — فلقد وجدت القلـــم يلعب فى يدى بعد ان وضعت السطر الاخير بل واحسست بقلق داخلى غير مريح .
وكان هذا يعنى أن هناك اشياء اخرى يجب أن تقال وان هذه الاشياء تفرض نفسها من واقع الالزام والالتزام .

الالزام طالما زعمت لنفسى فى المقدمة أن هذه المرحلـــة من أخطر المراحل التى مرت بها مصر والعالم العربى فهنا يكـــون لزاما على ان احاول أن اصل الى نتائج وضعت مقدمات بعضها ، ولم يكن من الممكن أن تبقى الحقيقة ناقصة مبتورة تحت دعوى أن الافراج قد تم فى أبريل ســـنة ١٩٦٤ .. أنه تاريخ هام ولاشك — ولكن الوقوف عنده يوحى كما لو أن فترة الاعتقال قد تحولت الى جملة اعتراضية بين قوسين دون ان يكون لها اثرا او تأثير فى مسار الاحداث .

بالتأكيد أن الامر لم يجر على هذه الصورة .
والالتزام بالاحساس بالمسئولية ازاء العمل المقدم فالقضية فى النهاية ليست رواية مثيرة ، رغم ماقد يكون فيها من اثارة

.. وليست عرضا لمعاناة ذاتية لفـــرد أو مجموعة افراد .. ولانريد أن تكون مجرد صرخة من صرخات الاحتجاج على ماقـد حدث .. ولكنها في الواقع قصة شعب بأسره أو هكذا كانت ومازالت قناعتي .. قضية تعلو فوق كل الخلافات الفكـرية والايديولوجية في الماضي والحاضر .. أنها قضية حضارية .. قضية تتعلق بالانسان المصرى .. بامكانيات تنظيم صراعاته وخلافاته على اسس حضارية بعيدا عن كل اساليب التعذيب والقهر البدنى والنفسي الذىمارسته او تمارسه أو قد تمارسه أى سلطة في الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

ولقد قيل ، وهو قول صحيح اعتقد انه من مأثورات جواهر لال نهرو ، أن السلطة مفسدة وان السلطة المطلقة مفســدة مطلقة ، ولعلهذا هو الدافع لان تلجأ غالبية النظم الحضارية سواء أكانت راسمالية أم اشتراكية الى محاولات التقليل من هذه المفسدة ومطلقاتها .

الدول الاشتراكية تحاول أن تواجه هذه المفسدة بأكبر قدر ممكن من المشاركة الجماعية والجماهيرية ، وبأكبر قدر ممكن من الاجراءات الاقتصادية واجتماعية التى تقلل أو تحد أو حتى تلغى الفوارق والامتيازات الطبقية .

والدول الراسمالية المتحضرة لديها هى الاخرى ماكينتهـا الخاصة متمثلا فى نظام الاحزاب والبرلمـانات والنقـابات والاتحادات والتى تخرج من خلالها دخان العادم القادر عـلى موازنة حركة الموتور أو بمعنى أخر حركة النهب والاستغلال الرسمالى .

ولست بالطبع ممن يبنون الاوهام او على اسـتعداد لان تخدعهم الواجهـات الديمقراطية التى تسـتخدمها الدول الراسمالية المتحضرة .

فحين يتكلم الانسان عن النظم الحضارية فان الامر هنا نسبى اذ لابد وان نتفق على ان هناك خطافاصلا ، وان لم يكن حاسما ، بين مجتمعات تسود فيها القيم الحضارية العـامة متمثلة فى الديمقراطية الاشتراكية أو حتى الديمقراطيات الراسـمالية

القائمة على نظرية « دخان العادم » وبين مجتمعات تنطلق فيها السلطة بلا حدود أو حواجز ، حتى ولو كانت حواجز شكلية ... ولايشك القارىء للحظة واحدة أن الديمقراطية الصحيحة فى مفهومى هى تلك التى تستمد معناها من ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، أى باختصار - الديمقراطية الاشتراكية .

ولكن أيضا لا اريد للقارىء أن يشك فى اننى حين أواجه واقعا معينا ومرحلة معينة يكون من الصعب فيهما تحقيق الديمقراطية الاشتراكية فاننى أصوت على الفور للنظام الرأسمالى الذى يضع فى اعتباره نظرية الشكليات الديمقراطية .

أن ذلك أفضل بالتأكيد من نظام رأسمالى يعطى لنفسه تفويضا مطلقا تحت أى دعوى ، فهناك فرصة فى الاختيار الاول لحركة الجماهير ولسيطرتها على صمام « دخان العادم » ولحظتها تستطيع الجماهير أن تحطم الموتور الرأسمالى ذاته وتستبدله بطاقة اشتراكية جماهيرية .

حقيقة ان الثورة الاشتراكية لم تتحقق حتى الآن من خلال البرلمانات والانتخابات الرأسمالية ، هذا لو أسقطنا مناعتبارنا تجربة تشيللى المجهضة ، ولكنها أيضا مسألة واردة ليس من الناحية النظرية فحسب بل وأيضا من خلال دراسة صبوره لمجريات الامور فى بعض البلدان الرأسمالية وعلى وجه التحديد ايطاليا وفرنسا وبشكل احدث البرتغال واليونان .

وحين أمنت ومن خلال دراسة ووعى بواقع مصر وظروفها بالاشتراكية ، وبالاشتراكية العلمية كحل قومى وطبقى وانسانى لهذا الواقع وتلك الظروف فلقد آمنت وفى نفس اللحظة انه الحل الديمقراطى الاوحد .

ولم يحدث لمرة واحدة ان وجدت تناقضا فى فهمى للضرورة الاشتراكية وللمتطلبات الديمقراطية .

ولعلى لاأتجاوز الحقيقة اذا قلت أن الذين تصوروا انهم يبنون الاشتراكية تقفزا على حرية الانسان وحركة الجماهير واعتمادا

فى أجهزة [illegible] البيروقراطية او منظمة المجتمع من واقعها هم فى النهاية أبعد الناس عن الاشتراكية أو بأقل المعايير وأكثرها تساهلا منتمون لها .

فالاشتراكى الحقيقى بقدر ماهو وطنى حقيقى بقدر ماهو ديمقراطى حقيقى ان هذه الحقائق الثلاث المتكاملة هى التى تعطى للاشتراكى أيضا عواطفه الأمميه الحقيقية .

والذين يبحثون عن تناقضات بين أن تكون اشتراكيا وديمقراطيا أو أن تكون وطنيا وأمميا هم العاجزون عن استيعاب وفهم الاسس الحقيقية للاشتراكية العلمية ..

ولكل هذا ولبعض منه ، فليس فى نيتى أن أتخذ مسوح القاضى القادر على أصدار حكم فى هذا الكتاب ، ان هذا لم يطرأ على الذهن ولم أسمح لنفسى بأن تغرق فى متاهات لست قادرا عليها كما انى لست مؤهلا لها .

كذلك فلست ممن يريدون لانفسهم موقف الشهادة سواء بالسلب او الايجاب لتاكيد التهمة او نفيها .

ان كل ماأحلم به من خلال ماقدمته هو أن أكون مجرد واحد من المحلفين الذين لعبوا دورا فى القضية .. والقضية التى أعنيها ليست قضية الامس بل قضية اليوم والغد .

قضية اطمح ان يكون كل ابناء وبنات مصر مشاركين فيها شهودا ومحلفين وقضاه .. وأن يكون حكمهم « حتى لا يتعرض أى مصرى أو مصرية لأى نوع من أنواع القهر البدنى والنفسى لانهم يحملون رأيا يختلف مع الآخرين » تلك هى قضيتى واعتقد انها قضية الجميع .

واضعا فى الاعتبار كل تلك الظروف .. فلقد وجدت انه من الافضل لو اجملت بعض الملاحظات السريعة التى واكبت هذه المرحلة وكانت بمثابة علامات طريق .

أولا : انه بعد تصفية معتقل الواحات ثم بعد ذلك الافراج عن المسجونين الشيوعيين الذين كانت قد صدرت بحقهم احكام . كان هناك قدر كبير من التفاؤل فى أن مصر بازاء مرحلة انطلاق وطنى ديمقراطى عارم وقد كان هناك مبررات قوية لهذا التفاؤل فصدر الدستور الذى يضع فى صلبه عددا من الاسس

التى تدشن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تمت ، لذلك تلاحقت الاجراءات الخاصة بالمزيد من التأميمات والتشريعات التى كان من الممكن ان تضع حدا للنمو الرأسمالى ولكن الانعكاسات الحقيقية لتلك الاجراءات والتشريعات فى واقع الناس وحياتهم ظلت أقل بكثير ، اذ أن الذى أشرف على التنفيذ ظل فى الاساس هى نفس الاجهزة والقوى السابقة دون أن يطرأ على جهاز الدولة أو نظامه أى تغيير جذرى ٠

ثانيا : قامت التنظيمات الشيوعية او بمعنى أدق التنظيمان الشيوعيان بعد حوالى عام من الافراج أى فى سنة ١٩٦٥ بعقد مؤتمر موسع وقررا حل نفسيهما على أساس أن الاتحاد الاشتراكي العربى هو التنظيم الثورى المؤهل لكى يقوم بدور قيادي وطليعى وباعتباره تنظيم السلطة الثورية ٠ ولقد كانت هناك أقلية فى التنظيمين تعارض الحل على أساس أن يبقى التنظيم الشيوعي مع الدخول فى جبهة متحدة مع الاتحاد الاشتراكى كمرحلة أولى ، ومن الممكن من خلال الجبهة وضع أسس التنظيم الثورى الواحد ٠

وبالرغم من أن هذه الاقلية سجلت رأيها الا انها لم تتخذ أى خطوة بعد قرار الحل فى اتجاه اعادة التنظيم ٠

ثالثا : بينما عاد الصحفيون الذين كانوا فى المعتقلات الى عملهم بعد أقل من شهر من الافراج عنهم وكذلك معظم المثقفين الا أن العمال فى غالبيتهم العظمى لم يعودوا الى أعمالهم السابقة، وظل الكثيرون من المعتقلين من العمال بلا عمل لسنوات بعد ذلك والتحق غالبيتهم بأعمال فى القطاع الخاص ٠

كذلك فان المدرسين وأساتذة الجامعات لم يسمح لهم بالعودة الى عملهم السابق فالحقوا بوظائف ادارية ٠

ومن الملاحظ أيضا انه بينما أعطيت عضوية الاتحاد الاشتراكى لعدد من المثقفين من المعتقلين والمسجونين السابقين الا انها حجبت بشكل شبه مطلق عن العمال ٠

كما عرف بعد ذلك ان كل من عاد الى عمله كان يشفع بقرار

العودة قرار سرى آخر يحذر من تولى الشخص أى مسئولية قيادية ! رغم ان وثيقة الحل كانت قد أعلنت ورغم الحماس المطلق للمعتقلين السابقين للتجربة .

رابعا : فيما عدا عدة شهور فيأواخر سنة ١٩٦٤ فانمعتقل القلعة وسجن طرة عادا من جديد يستقبلان نماذج من المعتقلين الشيوعيين تحت دعاوى كثيرة بلغت الى حد أ نأحد الزملاء ـ

فرانسيسلبيب ـ اعتقلبتهمة انه «يلسن» علىالنظام،واعتقل لفترة أيضا الزملاء الذين سجلوا رأيهم فى المؤتمر الموسع للتنظيم الشيوعى وكانوا ضد قرار الحل .

بل ان عددا من قيادات منظمة الشباب الاشتراكى وأساتذة المعهد العالى للدراسات الاشتراكية قد اعتقلوا سنة ١٩٦٦ تحت دعوى الترويج للمذهب الماركسى .

خامسا : حقيقة ضم الى التنظيم الطليعى والذى كان يضم كل المحافظين ورؤساء مجالس الادارات وقيادات الاجهزة عدد من الماركسيين ، ولكن هذا العدد الذى لم يتجاوز العشرين بأى حال من الاحــوال كانت غالبيتهم من المثقفين ومن العاملين فى أجهزة الاعلام بوجه خاص .

ولقد كانت قيادة التنظيم السرى ـ ويعلم الله لماذا كان سريا رغم انه تنظيم السلطة ـ تختار نوعيات خاصة تثق فى ولائها . ولست أدرى أيضــا لماذا يحلو للبعض دائما أن يقرن الماركســيون بالتنظيم السرى رغم أنهم كانوا فى غالبيتهم العظمى بعبدين عنه .

سادسا: ان ثورة ٢٣ يوليو هى فى النهايه ثوره وطنية تقدمية عملت بقدر طاقة وامكانيات قيادتها على ان تخطو فى طريق التطور الوطنى الديموقراطى وبالذات فى الستينات ، والاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخــذت فى تلك الفترة غيرت الكثير من أوراق الماضى ومؤلفاته .

ولكن ظل الاعتماد فى الاساس على الاجهزة الرسمية وكذلك

عدم الثقة في ايجاد تنظيمات سياسية وجماهيرية ناضجة بما في ذلك الاتحاد الاشتراكي نفسه هو الذى أعطى لكثير من قوى التخلف الفرصة الواسعة للهجوم على الثورة ومنجزاتها ، وهو نفس العامل الذى حال دون أن تلعب القوى الوطنية والديمقراطية دورها الجماهيرى الحقيقى لتأصيل وتطوير تلك الافكار والمنجزات .

وأظن انه لا طريق أمامنا الان سوى أن نعرف كيف نختلف وكيف نتفق ولماذا نختلف ولماذا نتفق ؟ .. مع الغاء كافة القيود التى تمنع الانسان المصرى من ان يعبر عن رأيه صراحة دون ان يتعرض لاى شكل من اشكال القهر المادى والمعنوى .

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٣٦ / ١٩٧٥

طبع بمطابع مؤسسة روز اليوسف

كتب تحت الطبـع

- **المحرقـون بالزيت.**
  مسرحية سياسية
- **الناصرية وتجربة الثورة من اعـلا**
  رسـالة الدكتوراه
- **الخـروج**
  شهادة سياسية قصصية

مختارات من كتاب « الخرج » للمؤلف تحت الطبع

- وكتب الى صـــديق عزيز كان يعمل فى عاصمة عربية يستحثنى للحاق به ويبدى استغرابه لاصرارى على البقاء فى مصر رغم انى مفصول وممنوع من دخول الجريدة او الكتابة وقال فى نهاية رسالته « بالله عليك ماذا تنتظر وهل تنتظر حتى يقبضون عليك ويرسلونك مرة اخرى الى معتقل الواحات فى اعماق الصحراء ، ربما تكون قـد اشتقت اليه ٠٠٠ » ٠

والتقيت به بعد عامين فى حـديقة المنزل الفخم الذى يقيم فى العاصمة العربية وقلت له مداعبا ٠٠

او ليست الواحات افضل !!

وقال فى كلمات قاطعة فاجاتنى ٠٠ الف الف مرة ٠٠

- وطرت من برلين الى بغـداد حتى لا يفوتنى واحـد من اخطر مؤتمرات القمة العربية ٠٠٠ وتحولت ردهات وصالات القصر الذى اجتمع فيــــه الملوك والرؤساء العرب الى خلية نحل حقيقية وخاصة وقـد حضر المؤتمر اكثر من ٧٠٠ صحفى من جميع انحاء العالم ، مناقشات ومراهنات ، وحماس زائد ، وروايات تحكى لها طعم الروايات البوليسية ٠٠

واجتاحنى حزن عميق فلقـد احسست أن دور مصر التقليدى ، دورها الذى وهبته لهـا عوامل جغرافية وتاريخية وبشرية وحضارية ، وجعلتها وعلى امتداد التاريخ البشرى هى مفتاح المنطقة الاستراتيجى ٠٠

ذلك الدور الذى اكده مينا ورمسيس ودافعت عنه كليوباترا وفهمه واستوعبه صلاح الدين والظاهر بيبرس وشجرة الدر ومحمد على وابرزه مصطفى النحاس وفجره جمال عبد الناصر ٠٠

هــذا الدور بدا وكانه يباع فى المزاد ٠٠٠

- وانتبهت على ضجة هائلة تغرق صالة الترانزيت فجاة وتضع حـداً لتلك الخواطر التى توافـدت فى ذهنى المكدود ٠٠ وتاملت الصالة التى تشكو الفراغ والسكون فى تلك الساعة من الليــــل وقـد امتلأت بعـدد كبير من الفلاحين وعمال الزراعة وبعضهم يحمل حتى الفاس والغلق التقليدى على كتفه ، وافترش غالبيتهم ارض الصالة فى حلقات دائرية ، وراحــــوا يتبادلون النداءات والحوار العالى الصوت ، ويحولون برد الصالة الموحش الى سامر أو مولد أو مقهى ٠

وجرى عمرو الصغير نحوى ليقـول فى براءة طفولية :

بابا ٠٠ بابا ٠٠ الفلاحين بتوع بلـــدنا هم هنا علشان بيودعـــوك وكتمت ابتسامة مر

٠٠ لا يـ مر ليس كذلك ٠٠٠ فالفلاحون فى بلدنا يرحلون هم الآخرون ٠٠